







# الوقائع والبريد

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

274

كانون الثاني - شباط ١٩٩٧



## محتويات العدد

5	■ واقع النظام الملكي وثورة ١٤ تموز	د. حسان عاكف حمودي
19	■ نقص المياه وبعض مشكلات البيئة في الشرق الأوسط	د. حسن الجنابي
29	■ اللغة الكردية والناطقون بها	محمد توفيق علي
38	■ المعلوماتية المعاصرة والحرب	حسني دريد التكمجي
48	■ بدايات الاعتزال الكلامية والفلسفية	د. رشيد البندر
61	■ ملاحظات حول الصراع الطبقي	جاءك كيركوت
69	■ العلاقات الاجتماعية - السياسية في بابل	محمد دندمايف

## ليتنسح الحوار ويتعمق - ملف ٦

82	■ ملاحظات حول الموضوعات	عزيز سبامي
89	■ ورقة عمل حول آلية العلاقة بين حشع وحشك	
101	■ التيار الديمقراطي لا بد أن يؤكد وجوده	عزت العراقي
106	■ لتبقى السياسة الوطنية ثابتة	عبد الهادي حسين
113	■ حول «التنظيم المشاعي للمجتمع» لهادي العلوي	عبد الإله الياسري

	أدب وفن	119
علي الشوك	■ نموذجان من الشعر السومري	128
صباح هرمز	■ المسرح الكردي بعد الانتفاضة	129
د. حسين كركوش	■ قراءة نقدية في رواية جنان حلاوي «يا كوكتي»	141
د. مؤيد عبد الستار	■ حوار مع المخرج رياض أحمد	154
ملازن يوسف قلو	■ هموم عراقية على المسرح الأسترالي	159
فلاح موسى	■ اللون والتجريد في أعمال خالد يابان	163
يوسف أبو الفوز	■ النهر / قصة	166
د. محمد حسين الأعرجي	■ غربة أليفة / شعر	169
كريم الأسدي	■ زهيرات (مواويل) / شعر	171
بلقيس حميد حسن	■ صوت المسافات / شعر	172

● الغلاف الأمامي للفنانة ناجحة هادي

● لوحة الغلاف الأخير: «علاقة» للفنان خالد يابان

أُغلق تحرير العدد أواخر تشرين الثاني ١٩٩٦ .

## واقع النظام الملكي وثورة ١٤ تموز

(٢ من ٢)

د. حسان عاكف حمودي

### النظام في أعوامه الأخيرة

رغم كل أعمال الارهاب والغش فازت الجبهة الوطنية الموحدة بعشرة دوائر انتخابية، في انتخابات أيار ١٩٥٤. فطار صواب أقطاب الحكم، وقال نوري السعيد وكان يومها في لندن «لن أذع هذا المجلس يجتمع ساعتين»<sup>(١٤)</sup> وفعلاً تحقق للبasha ما أراد، فأخذت وزارة ارشد العمري تماطل في عقد اجتماع المجلس، وهو ما لم يحدث سابقاً. ولم ينعقد المجلس الا بعد مرور عدة أسابيع، ولم يستغرق انعقاده سوى أقل من ساعتين، استمع خلالها الى خطاب العرش. ثم صدرت الارادة الملكية بتعطيل اجتماعاته الى نهاية شهر تشرين الثاني. ولم يحضر رئيس الوزراء العمري هذه الجلسة — كما جرت العادة — بل تعتمد السفر للاصطياف، على شواطئ البسفور. وفي ٤ آب حل المجلس عندما شكل نوري السعيد وزارته، بعد ضغط السفير البريطاني على عبد الاله لتكليفه بتأليف الوزارة. فكان أول مجلس لم يعقد سوى اجتماع واحد.

وبعد موافقة الملك على شروط نوري السعيد لتأليف الوزارة، التي تضمنت تعطيل الدستور، وحل مجلس النواب، وإجراء جملة «اصلاحات»، تهدف الى «تعزيز الروح الوطنية بين المواطنين ومكافحة ذوي المبادئ الهدامة الموالين للاستعمار أيا كان»<sup>(١٥)</sup> وجّه نوري السعيد كلمة إلى الشعب مليئة بالوعد والوعيد، وكانت ايذاناً ببداية حملة جديدة من الارهاب السافر، وصفتها جريدة «صوت الاهالي» في ٨/٨/١٩٥٤، عن حق بانها

«من مظاهر هستيريا المكارثية المحمومة» وانها «هوس وعار على الدولة» وقالت عنها جريدة «الاستقلال» بانها «مكارثية المحتوى». وتوالت المراسيم المخالفة لميثاق حقوق الإنسان وقواعد القانون الاساسي:

١- المرسوم رقم ١٦ لسنة ١٩٥٤ «مرسوم وماشابه ذلك»، الذي اضاف فقرة جديدة الى المادة ٨٩ من قانون العقوبات البغدادي رقم ٥١ لسنة ١٩٣٨، بحيث تشمل عقوبة السجن أو الاعدام ليس دعاة الشيوعية فقط، بل تنسحب أيضاً على انصار السلام والشبيبة الديمقراطية وماشابه ذلك.

٢- المرسوم رقم ١٧ لسنة ١٩٥٤، الذي اجاز اسقاط الجنسية عن العراقي المحكوم عليه وفق المادة السابقة.

٣- المراسيم ١٨ و ١٩ و ٢٤ بغلق جميع الأحزاب والصحف و ٤٥٥ نادياً ونقابة وجمعية تعاونية وخيرية. واذا كان قانون المطبوعات لسنة ١٩٣٢ وتعديلاته اللاحقة قد همّش حرية الصحافة والنشر وجعل تقييد حرية الصحافة، قاعدة، فان مرسوم المطبوعات ٢٤ الغى هذه الحرية تماماً.

٤- مرسوم الاجتماعات العامة والمظاهرات رقم ٢٥ لسنة ١٩٥٤.

في هذا الجو المشحون أجرى نوري السعيد الانتخابات بمهزلة جديدة إذ فاز بالتزكية ١٢١ نائباً من أصل ١٣٥. أما الباقون فقد فازوا بانتخابات صورية. وحصل حزبه «الاتحاد الدستوري» على أكثر من ٩٠٪ من مقاعد المجلس في حين كان الحزب قد فشل قبل أربعة أشهر فقط، أي في انتخابات ايار ١٩٥٤، في الحصول الا على ٥٦ مقعداً من ١٣٥ مقعداً<sup>(١٦)</sup>.

كانت تهمة «الشيوعية» و «الافكار الهدامة» تستخدم لمحاربة اي مواطن يدعو للاصلاح او لفكر وطني يرفض الاحلاف والمعاهدات المذلة، فهذا هو بهجت عطية مدير «التحقيقات الجنائية» للسنوات من ١٩٤٧ — تموز ١٩٥٨ يترجم المقصود من ذلك في كتابه المرقم ٤٤٨٩ في ٢٨ تموز ١٩٥٧ المعنون الى وزير الداخلية معتبراً فيه جميع العرائض التي تنشر في الصحف الداخلية لتأييد عرب عُمان ضد الانكليز عملاً شيوعياً محضاً، مطالباً باتخاذ التدابير بحق امثال هذه الصحف<sup>(١٧)</sup>. ولم يكن سعيد قزاز الذي شغل، منذ عام ١٩٥٣ حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، منصب وزير الداخلية في سبع وزارات بحاجة إلى هذه النصيحة. فشهدت هذه الحقبة وقائع تعذيب وهتك للاعراض والحرمات والمساکن ومجازر للسجناء السياسيين الشيوعيين واسقاط للجنسية وانتهاك أبسط



حقوق الانسان، وفي دفاعه امام محكمة الشعب عام ١٩٥٩ قال سعيد قزان «اني فخور بانني كافحت الشيوعية بدافع اسلاميتي ووطني، وتنفيذاً لقانون لايزال يعتبر من شريعة البلد، فخور بأنني كنت وزيراً فعالاً اعمل بوحى من ربي وعقل في رأسي وقلب في صدري، محذراً من شرور الشيوعية واطارها على وطني العزيز»<sup>(١٨)</sup>. وشهدت الفترة استخدام مستشارين بريطانيين متخصصين في شؤون القمع والارهاب، وذاع صيت «ماكنوتش»، مستشار وزارة الداخلية، المتخصص في قمع التظاهرات والتجمعات الجماهيرية في المستعمرات البريطانية الذي جيء به من هونك كونغ.

ومنذ وقت مبكر من الخمسينيات شنت السلطة حملات انتقامية واسعة استهدفت الطلاب والمدرسين والمثقفين من مختلف الاتجاهات الوطنية يتعاون وزارة المعارف مع مديرية التحقيقات الجنائية، التي تمنح الطلاب والطالبات شهادة «حسن السلوك» كشرط للقبول في الكليات وللتعيين في مؤسسات الدولة والسفر<sup>(١٩)</sup>.

وجرى تجنيد بعض العمادات والادارات والطلاب في اعمال تجسسية، كذلك كان دور الملحقيات الثقافية وبعض الدبلوماسيين في مراقبة تحرك ونشاط الطلبة والمواطنين العراقيين في الخارج. وشاعت ظاهرة الكتب السرية المتبادلة بين وزارتي المعارف والداخلية والتحقيقات الجنائية وعمادات الكليات لـ «اتخاذ ما يلزم لطرده الطلاب طرداً نهائياً وتزويد وزارتي الداخلية والدفاع بالمعلومات لاتخاذ الاجراءات والتدابير اللازمة»<sup>(٢٠)</sup>. فالتالب «أصبح عنصر هدم في الدولة» وينبغي «ايقاف التلاميذ عند حدهم»<sup>(٢١)</sup> على حد تعبير وزير المعارف، خليل كنه وأن «المدرسين والاساتذة يجب أن يكونوا كالجند يؤمرون فيطيعون»<sup>(٢٢)</sup> وعلى استاذ الجامعة أن يفهم أنه «لا يستطيع ان يعبر عن رأيه السياسي، له الحق في أن يكون له رأي سياسي، ولكن يجب ان يحتفظ بهذا الرأي لنفسه»<sup>(٢٣)</sup> وفق سياسة خليل كنه صهر نوري السعيد، التي كان يصرح بها في لقاءاته العامة مع اساتذة الكليات والمعاهد، والتي فاقت في تطبيقاتها النص المجحف للفقرة (و) من المادة الرابعة من قانون انضباط موظفي الدولة التي حرمت على الموظف «الاشتغال بالامور الحزبية السياسية»، ولاحتت اساتذة الكليات بالطرده والسجن لانهم «تجروا» على رفع مذكرة الى رئيس الوزراء والبلاط تحدثوا فيها عن امور عامة تخص شؤون البلد، ولم يكن الجيش يمانئ عن هذه السياسة فكانت قياداته العليا تستمد الارشاد والتوجيه من العميد دانيال، رئيس الهيئة الاستشارية البريطانية في الجيش العراقي، بمساعدة الملحق العسكري لكل من السفارتين البريطانية والامريكية. وانتشر الضباط

البريطانيون في صنوف الجيش بصيغة الانتداب والتفتيش والارشاد. وكانت لهؤلاء الكلمة العليا فيما يتعلق بالجيش وقياداته. وظهر «الوكلاء» و «السريون» في الوحدات العسكرية لمراقبة المتطرفين. وفرضت القيادات العسكرية على الامراء تقديم تقارير شهرية يتعهدون فيها بعدم وجود ميول «شيوعية» لدى ضباطهم وجنودهم. واستمر الامر على هذه الحال حتى ١٤ تموز ١٩٥٨.

### مؤشرات الواقع الاقتصادي الاجتماعي عشية ثورة تموز

تطرقنا حتى الآن الى الملامح السياسية للنظام الملكي، ولا بد لاستكمال الصورة من نظرة سريعة على الطابع الاقتصادي - الاجتماعي للنظام، باعتبار ذلك القاعدة التي تنبثق منها مؤسساته وقوانينه، والوجه الآخر المتمم لهذه «الديمقراطية». فالديمقراطية السياسية بمقوماتها ومؤسساتها، على اهميتها الاستثنائية، تحتاج لان تتكامل بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية. والحريات، عامة كانت او سياسية او مدنية، تبقى ناقصة من غير تحرر المواطنين من الاستغلال والتبعية الاقتصادية والاجتماعية، اي من غير الديمقراطية الاجتماعية، من غير العدالة الاجتماعية.

ظل النظام الملكي على مدى اربعين عاماً بمؤسساته وقوانينه ممثلاً لمصالح الفئات الارستقراطية العسكرية والمدنية ومصالح الاقطاعيين وشيوخ العشائر ومدافعاً عنها، بالضد من مصالح السواد الاعظم من ابناء الشعب. وبقي الاقتصاد العراقي متخلفاً مشوهاً تابعاً في سماته بما كان يحمله من مظاهر الاستغلال والاحتكار والطفيلية والاثراء غير المشروع من جهة، والفقر والفاقة من الجهة الاخرى. وسادت في الريف العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية. وادى ذلك الى استقطاب واضح بين طبقات الشعب وفئاته الاجتماعية، الامر الذي ترك نتائج اجتماعية خطيرة مست حياة ومصالح الاكثرية الساحقة من الشعب.

وكان واضحاً، في العقد الاخير من عمر النظام الملكي، على اقل تقدير، كم هي حاجة البلاد الى اصلاح اجتماعي جذري يمس الاسس التي تقوم عليها العلاقات المادية الانتاجية والعلاقات الاجتماعية الاخرى، الحقوقية والسياسية والاخلاقية، وهو ماكانت تخشاه الفئة الحاكمة «التي تستشعر الامان والحماية لمصالحها في ظل النظام القديم القائم»<sup>(٢٤)</sup>. واغرز هذا الامر سخط ومعارضة اوسع فئات السكان، وفرض بالمقابل على السلطة اللجوء الى الوسائل البوليسية لاسكات وقمع اية مطالبة بالاصلاح والتغيير.

— بلغ عدد الاميين ٤٢ ملايين نسمة من مجموع سكان العراق البالغ ٦٥ مليون نسمة حسب احصاء عام ١٩٥٧<sup>(٢٥)</sup>.

— كان أكثر من ٨٥٪ من سكان الريف لا يملكون شبراً واحداً من الأرض، في حين كان أقل من ١٪ من سكان الريف يملكون ثلاثة أرباع الأراضي الزراعية. وكان بعض كبار الملاكين يستغل ٢٠ ألف عائلة فلاحية<sup>(٢٦)</sup>، ومساحة الأرض التي يملكها بعضهم قد تجاوزت الـ ٤٠٠ ألف دونم. وكان هناك مائة مالك تزيد ملكية كل واحد منهم على مليون دونم، من امثال امير ربيعة<sup>(٢٧)</sup>. علماً بأن الفلاحين كانوا اغلبيية السكان.

— وصل عدد العمال عام ١٩٥٧ الى نصف مليون عامل غالبيتهم بدون الحد الأدنى من الضمانات الاجتماعية والصحية.

— وكان ربع سكان الريف وأكثر من نصف سكان المدن عاطلين عن العمل.  
— على الصعيد الصحي، فان نقص التغذية يعتبر السبب في وفاة ٥٠٪ من الأطفال.  
وان متوسط الاعمار كان ٣٠ عاماً<sup>(٢٨)</sup>.

— لم تزد المصروفات الحكومية على شؤون التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية عن عشرة ملايين دينار، اي سدس مجموع المصروفات، وبلغت المصروفات المكرسة لاجهزة القمع تسعة ملايين دينار<sup>(٢٩)</sup>.

### تحرك القطاعات العسكرية في ١٤ تموز

«من الضروري ان يتولى القانونون حماية حقوق الانسان، لكي لا يضغط المرء اخر الامر الى التمرد على الاستبداد والظلم»

الاعلان العالمي لحقوق الانسان في ١٠/١٢/١٩٤٨

لا خلاف مع القائلين بالخطورة المتمثلة بنزعة القادة العسكريين في اقامة سلطة عسكرية دكتاتورية تعطل الحياة البرلمانية الدستورية والتطور الديمقراطي، خصوصاً عندما تتخلف الاحزاب والقوى الديمقراطية عن لعب دورها المطلوب في السلطة والمجتمع. ولا خلاف ان العسكريين، مقارنة باقرانهم المدنيين، هم اكثر تشبهاً بالسلطة بعد الوصول اليها. ولم تقلل الاحزاب الوطنية المعارضة للنظام الملكي من خطورة زج الجيش في العمل السياسي. وفي مناسبات عدة عبرت هذه الاحزاب عن خشيتها من ذلك، وحذرت منه، مؤكدة ان غياب الحياة البرلمانية الحقيقية، وتعطيل ارادة الشعب وغياب الاحزاب والمنظمات الجماهيرية، وكذلك الصراعات بين رجال الحكم هي عوامل تدفع

عناصر من القوات المسلحة وتشجيعها على التحرك لحسم الاوضاع والصراعات القائمة. وحتى عام ١٩٥٦ لم يطرح اي من الاحزاب الوطنية فكرة اسقاط النظام او تغييره بالطرق العنيفة، بل كانت مطالبتها مقتصرة على إجراء التغييرات في إطار النظام القائم. غير أن استمرار القمع والارهاب، تحريك القوات المسلحة لقمع التحركات الجماهيرية، واهمال المعالجة الجذرية للمشكلات الاجتماعية، هو الذي صعد من حدة وعنف المجابهة بين الشعب والحكام، ودفع الجماهير وطلائعها السياسية للتفكير باستخدام الاساليب العنيفة، ومنها التنسيق مع القوات المسلحة، لاجراء التغيير المطلوب. ففي ظل دكتاتورية غاشمة يكون من واجب القوى الديمقراطية لا بل من حقها عدم التقيد بأساليبها السلمية المعتادة، وعليها حينئذ ان تسلك طريق الثورة، ولو كانت بقوة السلاح، لم يكن هذا رأي الشيوعيين وحدهم بل جاء أيضاً على لسان الاستاذ كامل الجارحي منذ ١٩٤٦<sup>(٣٠)</sup>.

وضمن هذا السياق جاءت ثورة تموز «كتعبير عسكري عن الارادة الوطنية للشعب، بتعبير المؤرخ العراقي — الامريكي د. مجيد خدوري<sup>(٣١)</sup>. وكان تحرك الجيش بمثابة الاسلوب العنفي الممكن آنذاك في قلب السلطة التي فقدت مقومات بقائها واصبحت عقبة أمام تطور البلاد. وجمعت الثورة بشكل تام بين ثورتين، ثورة الجيش وثورة الجماهير، التي كانت مهية للانفجار في أية لحظة<sup>(٣٢)</sup>. وشكل نزول الملايين الى الساحات والميادين العامة في الساعات الاولى للثورة إنتفاضة شعبية حقيقية كانت متممة للثورة العسكرية

واذا كان هناك ما هو استثنائي ومخالف للعادة في تحرك الجيش لتفجير ثورة تموز، فهو ليس السبق في فتح بوابات الثكنات العسكرية للسماح للجيش في تقرير شؤون البلاد الخطيرة، إنما كون هذا التحرك كان اول تحرك عسكري من نوعه يجري لصالح الشعب وقضيته العادلة منذ تأسيس الدولة العراقية. لقد قامت السلطات الملكية باستخدام الجيش قرابة ٤٥ مرة ضد التظاهرات الجماهيرية والتحركات الفلاحية والعشائرية واضرابات العمال والثورات الكردية وغيرها، وفي مناسبات عدة جرت الاستعانة بسلاح الجو البريطاني أيضاً. وإن حركتي ١٩٣٦ و ١٩٤١ لم تخرجا عن كونهما انقلابين باستغلال الاستياء الشعبي لتصفية الحسابات بين المتنافسين على كرسي الحكم<sup>(٣٣)</sup>. والمفارقة ان الزعيم المدني للانقلاب العسكري الاول هو حكمت سليمان، ثاني رئيس للبرلمان العراقي، وتزعم الانقلاب الثاني رشيد عالي الكيلاني اول رئيس للبرلمان. وفي آب ١٩٣٧ اطاح انقلاب عسكري مضاد بحكومة حكمت التي جاء بها انقلاب بكر صدقي، وفرض القادة العسكريون على الملك غازي، خلافاً لرغبته، تكليف

جميل المدفعي بتشكيل الحكومة الجديدة. وفي نهاية عام ١٩٢٨ اسقط العسكريون حكومة المدفعي. واجبروا الملك غازي ثانية على تكليف نوري السعيد بتشكيل الوزارة. واكثر من ذلك لم تتردد السلطات في العهد الملكي عن استخدام الجيش العراقي في الصراعات السياسية الداخلية لبلدان عربية شقيقة، لدعم حلفائها من الحكومات والقوى اليمينية، ومعلوم ان القطعات العسكرية للواءين التاسع عشر والعشرين التي قجرت ثورة ١٤ تموز جرى تحريكها من ثكناتها من قبل السلطة الملكية لغرض إرسالها عبر الاردن الى لبنان لقمع انتفاضة الشعب اللبناني بوجه سلطة كميل شمعون ذيل السياسة الامريكية في المنطقة في ذلك الحين. كما بذلت السلطة الكثير من الجهود بين ١٩٤٨ — تموز ١٩٥٨ لزج الجيش في محاولات تدبير انقلاب عسكري في سوريا، بذريعة منع التقليل الشيوعي هناك.

والقت افادات وشهادات القادة العسكريين والمسؤولين العراقيين امام «محكمة الشعب» بعد الثورة وكذلك المحاكمات التي جرت قبلها في دمشق، الاضواء على تفاصيل هامة من تلك الخطط والتحركات العسكرية، فذكر غازي الداغستاني نائب رئيس اركان الجيش واحد الاقطاب الفعالة في تلك النشاطات، ان «الحكومات العراقية المتعاقبة قد قبلت مبدأ التدخل في امور سوريا الداخلية منذ عهد حسني الزعيم إن لم يكن قبل ذلك»، مستعرضاً كيف تولدت الـ «قناعة لدى عبد الاله ونوري السعيد، ولدى بعض الساسة من السوريين أنفسهم، ان الطريق الوحيد لضمان النجاح هو استخدام الجيش العراقي وسوقه لغزو سورية»<sup>(٢٤)</sup>. وأكدت افادات وشهادات رفيق عارف رئيس اركان الجيش، واحمد مرعي مدير الاستخبارات العسكرية، واحمد مختار بابان رئيس الديوان الملكي ومسؤولين آخرين كيف استحوذت فكرة استخدام الجيش العراقي لتغيير النظام في سورية على عدد من رؤساء الوزارات الى جانب عبد الاله ونوري السعيد. وفي مذكرة قدمها توفيق السويدي وزير الخارجية الى السفير البريطاني في بغداد في ٥ حزيران ١٩٥٨ قال «ان الخطر الشيوعي اصبح يهدد الحكومة العراقية من سورية والكويت».

وإذا شئنا العودة الى البدايات الاولى لتأسيس الجيش العراقي نرى ان الحكم الملكي ومن ورائه الانكليز اناطوا بالجيش منذ تأسيسه مهمة بوليسية داخلية، وزجوه فيما بعد في الصراعات السياسية الداخلية، رغم انهم حرّموا العمل السياسي بين افراد القوات المسلحة. وليس من المبالغة القول انهم ارادوا لهذه المهمة ان تعلق على مهمته في حماية حدود الوطن التي كانت منقطة في سنوات الانتداب بقوات الاحتلال البريطانية. فالتقات

العراقية بحجمها وتسليحها لم تكن قادرة على مواجهة الاخطار الخارجية المتمثلة بمطالبة تركيا بولاية الموصل، والتهديدات الايرانية في شط العرب والحدود الشرقية، وغزوات قبائل نجد على المناطق الجنوبية الغربية. ويندر ان نقرأ منهاجاً وزارياً آنذاك دون ان يؤكد على حاجة المملكة الى جيش تستخدمه في «حفظ امنها الداخلي» و«اخماد الاضطرابات الاهلية» الى جانب الدفاع عن الوطن<sup>(٣٥)</sup>.

ان ذلك يؤكد حقيقة ان الجيش والشرطة والتشكيلات الاخرى للقوات المسلحة هي، كالقوانين والمؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ادوات فعالة بأيدي اي نظام لتثبيت دعائمه. ثم ان القوات المسلحة في أي بلد هي جزء من الشعب، تنحدر من طبقاته وشرائحه الاجتماعية المختلفة، ويتأثر كل عسكري بأفكار واحلام طبقاته واوامها. وتدخل الجيش في الامور السياسية وممارسة النشاط السياسي بين افراد القوات المسلحة ظاهرة اعقد كثيراً من أن تعالج بالتمنيات النبيلة بابعاد الجيش عن العمل الحزبي والسياسي والمطالبة المشروعة للقوات المسلحة باحترام المؤسسات الدستورية والبرلمانية وخضوعها لقراراتها.

ان قيام حكومة ثورة ١٤ تموز بالغاء مؤسسة البرلمان واخفاها في احلال البديل يشكل ردة الى الوراء من وجهة النظر التاريخية العامة. كما ان تراجع زعمي الثورة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف عن العهد الذي اتفق عليه الضباط الاحرار، لتشكيل مجلس قيادة ثورة، باعتباره شكلاً من السلطة التشريعية المؤقتة في مرحلة الانتقال، يشكل هو الآخر تراجعاً عن دور القيادة الجماعية، ونزوعاً الى الاستئثار والتفرد. غير انه لايجوز للباحث الموضوعي الاقتصار في تحليله على وجود او عدم وجود النصوص القانونية وهياكل المؤسسات القائمة واغفال جوهرها وتجلياتها العملية في واقع الحياة السياسية الفعلي. فعدا عن كونها حررت البلاد من السيطرة والنفوذ الاجنبي، ساهمت ثورة تموز المجيدة في اطلاق طاقات الملايين من ابناء الشعب في ميادين النشاط السياسي والاجتماعي المختلفة، بعد ان تذوقت طعم الحرية لأول مرة منذ قرون. وهيات الثورة الظروف للمنظمات الاجتماعية والمهنية والثقافية وال نقابات لممارسة نشاطها علناً. وعملت الاحزاب السياسية على المكشوف لأول مرة في تاريخ العراق الحديث بالرغم من انها لم تكن مجازة رسمياً، وكان لهذه الاحزاب صحفها ومطبوعاتها التي توزع في مختلف مدن البلاد.

واذا كان النظام الملكي قد طارد السياسيين، وحاسب على الشبهات ووشايات

الشرطة السرية، ووضع القانون تحت رحمة البوليس السري ورغبات الملك واسياده، فان قاسم، رغم فريته ونزوهه نحو الديكتاتورية، وضع «الرحمة فوق القانون» وانتهج سياسة «عفا الله عما سلف» في التعامل مع أغلب رجالات العهد الملكي، ومع خصومه السياسيين بمن فيهم أولئك الذين خططوا لقتله.

والى جانب ذلك دشنت ثورة تموز مرحلة من الديمقراطية الاجتماعية بانتهاج سياسة اقتصادية اجتماعية لصالح اوسع فئات السكان، حيث توجهت الثورة منذ ايامها الاولى لانهاء مقومات الاقطاع بقانون الاصلاح الزراعي الذي حدد سقف الملكية وافر توزيع الاراضي على الفلاحين، وقانون الاحوال الشخصية الذي منح المرأة في العراق، ولأول مرة، حقوقاً متساوية مع الرجل. كما اقرت المادة الثالثة من الدستور المؤقت، ولأول مرة، بان العرب والاكراد شركاء في الكيان العراقي. واعلن انسحاب العراق من المنطقة الاسترلينية لتحرير الدينار. وبالقانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ استرجع العراق ٩٩,٥٪ من اراضي الامتيازات النفطية التي كانت تحتكرها الشركات الاجنبية. والى جانب ذلك بوشر بتنفيذ برنامج للتنمية والاصلاحات الاجتماعية والثقافية والصحية لرفع مستوى معيشة السكان خصوصاً من ذوي الدخل المحدود، الامر الذي منح الزعيم قاسم، الى جانب عوامل أخرى، شعبية واسعة لم يتمتع بمثلها اي حاكم عراقي قبله او بعده.

ويصعب على المتابع المنصف ألا يرى انه رغم غياب المؤسسات الدستورية، وتبلور ملامح نظام دكتاتوري فردي، ودخول القوى الوطنية في متاهات الاحتراب، تبقى الفترة الممتدة من ١٤ تموز ١٩٥٨ حتى ٨ شباط ١٩٦٣، خصوصاً في سنواتها الاولى، من الفترات التي تمتع بها المواطن بنوع من الحريات العامة لم يشهدها منذ تأسيس الدولة العراقية حتى يومنا هذا.

### **جمع الحصان ثم كبا**

ظل الوطنيون العراقيون، على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم السياسية، على مدى اعوام طوال، يفاخرون بثورة ١٤ تموز، ويتغنون بمجزاتها، معتبرين ماحدث في ذلك اليوم معلماً تاريخياً، وانعطافة نوعية في المسيرة الوطنية الديمقراطية للبلاد، الى جانب كونه تنويعاً طبيعياً لكل النضالات والمنازلات التي خاضها الشعب ضد الحكومات المتعاقبة، من أجل الاستقلال الوطني الناجز، واقامة نظام برلماني دستوري حقيقي، يضمن حرية التنظيم السياسي والنقابي والاجتماعي، ويصون حقوق المواطن وكرامته.

وإذا كان السياسيون العراقيون (المدنيون منهم والعسكريون) قد اختلفوا حول الموقف من التعامل مع «الحصان الجامح، الذي ينبغي اعادته الى الحظيرة (كما وصفت جريدة «التايمس» اللندنية ذلك الحدث الخالد مؤلّبة عليه) — فإن اختلافهم هذا يعود الى التنافس المدمر الذي نشب بين القائمين بالثورة، من الضباط الأحرار والقوى والفعاليات السياسية، حول من يمتطي صهوة ذلك الحصان الأصيل، ويمسك بقيادته، وبأي اتجاه ينبغي أن ينطلق فدخل الجميع في دوامة صراع مرير وسم تلك الفترة المبكرة من عمر الثورة بالاضطراب والتمزق. ولم يجدوا مايتهم بعضهم بعضاً به أفضل من الادعاء بأن الطرف الخصم قد «اغتصب الثورة» أو أنه يريد اغتصابها وحرفها عن مسارها الوطني الديمقراطي. ولم يقل هؤلاء أو اسلافهم، بمن فيهم من ناله من الاضطراب الاذى الكثير أو شعر بالغبن لأن الثورة لم تنصفه، إن ما حصل في ذلك اليوم هو خطأ تاريخي، ولم يشك احد بنضج الاسباب والمقدمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية له. حتى صدام حسين، عندما اراد تهميش ذلك العيد الوطني ومحوه من ذاكرة الشعب لاحلال انقلابه في ١٧ - ٢٠ تموز محله، لم يجرؤ على الطعن بالثورة والتشكيك بوطنيتها وضرورتها الموضوعية، رغم أنه طعن بالوطنيين المخلصين من رجالاتها، وفي المقدمة منهم الشهيد عبد الكريم قاسم وزملاؤه من الضباط الوطنيين والديمقراطيين والشيوعيين، ليبرر مواقف حزبه ومعاداته لمسيرة الثورة.

غير أن الأمر اختلف في السنوات التي أعقبت اجهاض انتفاضة اذار ١٩٩١ المجيدة، وما سببه ذلك من انتشار روح اليأس وخيبة الأمل بين أوساط واسعة من الشعب والقوى السياسية المعارضة للدكتاتورية، وما حققته اطراف خارجية في مقدمتها الامبريالية الامريكية، من نجاحات في سعيها المتواصل لترويض السلطة وتأسيس العراقيين، معارضة وشعباً. في جو الاحباط والهزيمة هذا اخذت كتابات تحاول النيل من ثورة ١٤ تموز، وتلوم رجالها والقوى التي عملت لانبثاقها، على اساس أن الثورة مهدت لالتفاف العسكريين على الحياة البرلمانية والدستورية التي كانت قائمة في العهد الملكي، وبالتالي فهي مسؤولة عن الأوضاع المأساوية التي وصلت اليها بلادنا. ولاغربة في الأمر عندما تصدر مثل هذه التقييمات من قوى وطبقات تضررت مصالحها بالثورة. تقييمات ينبغي محاورتها، بعيداً عن الطعون والالتهامات الجاهزة، أو عندما تصدر عن قوى تدعو لاعادة الملكية الى العراق، أو اقامة نظام برلماني ليبرالي، كما هو حال فئة النكثوقراط وبعض الجماعات الليبرالية التي ظهرت في الساحة السياسية خلال السنوات الأخيرة. الا أن



ما يثير الانتباه هو صدور تقييمات من أفراد او اتجاهات لازالت تفاخر بهويتها الديمقراطية اليسارية، لكنها تنظر الى ثورة ١٤ تموز باعتبارها «نكبة وطنية كبرى»، وتلوم الاحزاب المعارضة للنظام الملكي، السرية منها والعننية، لانها «لم تدرك اهمية وجود حكم مدني دستوري، وفتحت بذلك الطريق للجيش لينطلق من ثكناته، ويحطم بجزمته المؤسسات القانونية والدستورية، التي كانت قائمة في العهد الملكي».

يرى مجيد خدوري أن الانعطافات والتغيرات الحادة في طابع الصراع داخل المجتمع العراقي، منذ ثورة تموز حتى الآن، ترتبط أساساً بالاتجاه الموضوعي، بعد تموز، نحو بلورة طبقة حاكمة جديدة من كبار ضباط الجيش والبرجوازية الصاعدة، مناهضة لطبقات النظام القديم من جهة، ومتناقضة مع القوى والطبقات الاجتماعية الديمقراطية من جهة اخرى<sup>(٣٦)</sup>. يضاف الى ذلك الصراعات السياسية والعقائدية التي شهدتها المجتمع بين فئات العسكريين المتنافسة من جهة، وبين الاحزاب السياسية من جهة أخرى. بهذه العوامل ترتبط حالة الانعطافات والتداعيات في المجتمع العراقي أكثر من ارتباطها بالكيفية والاداة، العسكرية او المدنية، التي أطلقت ثورة تموز. ثم ان التآمر الداخلي والخارجي الذي تعرضت له بالشكل الذي لم يسبق لثورة مماثلة ان تعرضت له، لعب هو الآخر دوراً سلبياً في زيادة حدة التوتر الاجتماعي، وتعميق الصراعات الداخلية، وإضعاف النضال من أجل إنهاء الفترة الانتقالية والتوجه لارساء حياة دستورية برلمانية حقيقية.

### **ملاحظات اخيرة**

أولاً؛ ان تقييم اي حدث تاريخي او ظاهرة اجتماعية، بعد استفاد الحدث امكاناته وتبلور ملامحه، يكون اكثر موضوعية من تقييم يجري في معمعان الصراع والتناحر، فمن يقف خارج الغاية يستطيع ان يرى اشجارها افضل ممن يقف داخلها. غير ان العلمية والموضوعية تتطلبان أيضاً عدم اغفال معايير ومعطيات الحقبة موضع التقييم، وتجنب معانيثها بمعايير حقبة اخرى. بديهي ان يكون الجيل الحالي اكفا من الذي سبقه في محاكمة الاشياء، ليس ذلك لاننا اذكى من اسلافنا، وانما ببساطة لان ما هو متوفر لدينا من معارف، ومتراكم من تجارب، اكبر مما كان لديهم قبل ثلاثين او اربعين عاماً. وانطلاقاً من ذلك فان تقييم حدث بخطورة ثورة ١٤ تموز يتطلب عدم تجاوز شهادات الاحياء والاموات من خيرة مفكري وسياسيي العراق الذين عاصروا عملية التحضير للثورة ومخاضاتها وساهموا في تفجيرها وعاشوا تفاصيل احداثها، المدونة في عشرات الكتب.

ثانياً: ان الحق بالثورة ضد الظلم، ومقاومة الحكومات الجائرة، حق طبيعي لكل انسان وشعب، مارسته البشرية، قبل ان تثبته دساتير ومواثيق وطنية ودولية، كاضافة ثمينة الى المفاهيم الحضارية والى مقومات الحياة المدنية المعاصرة، بما تنطوي عليه من حقوق للانسان والشعوب (٣٧).

ثالثاً: ان المأسى التي حلت ببلادنا جراء سيطرة الانظمة الدكتاتورية المتعاقبة، خصوصاً بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، ينبغي الا تكون المعيار لتقييم ثورة ١٤ تموز، وتدفعنا للترحم على ايام نوري السعيد. ان اعداء ١٤ تموز، على اختلاف تلاوينهم، حققوا نجاحات لا يستهان بها في محاصرة الثورة، واجهاض مسيرتها، وقادوا البلاد باتجاهات مدمرة، مغايرة تماماً للاهداف التي انبثقت من أجلها.

رابعاً: ان الحديث عن الترابط بين ثورة ١٤ تموز وما جرى ويجري اليوم مقبول، اذا كان القصد منه ان تاريخ الشعوب هو سلسلة من الحلقات المترابطة والمتفاعلة، غير ان ما يطرح امامنا يتجاوز هذا الفهم الى اتهام الثورة بانها المسؤولة عن مأسينا الحالية بما فيها جريمعتي القادسية وام المهالك.

واذا اردنا الحكم على احداث التاريخ من خلال هذا الفهم فعلينا مثلاً ان ندين اهم انقلابين ثوريين غيرا مسيرة البشرية خلال القرنين المنصرمين واعني بهما الثورة الفرنسية وثورة اكتوبر الاشتراكية، لان قادة الاولى حصدهم بعضهم رؤوس البعض وانجبت نابليون الاول، المشبع بروح الغزو والعدوان، ونابليون الثالث المهووس بالاستبداد والتسلط. والثورة الثانية لو لم تكن لما كانت صورة القرن العشرين على ما هي عليه من غليان واضطراب، و«نكبات متعددة الجنسيات» في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، ولما عاش العالم عقوداً عديدة في ظل توازن الرعب وهاجس فناء البشرية. واذا شئنا الاسترسال على هذا المتوال نقول، ان ظهور الاسلام مسؤول عن اندلاع الحروب الصليبية، وان لجوء الكرد لرفع السلاح بوجه الحكومات الشوفينية، لنيل حقوقهم القومية، مسؤول عن مجزرة الانفال وقصف المدن بالسلاح الكيماوي ومحو آلاف القرى من الوجود... الخ. ويمكن ان نسطر وفق هذا المنطق قائمة طويلة من الامثلة، لكنها لا تقود الا الى التشوش والضياع.

ختاماً فان حرية الرأي والاجتهاد ضرورية لمجتمعنا وحركاته السياسية، فلنستثمرها بحثاً عن الحقيقة التي تخدم الناس في السير نحو تحقيق الحلم الازلي في بناء مجتمع الحرية والرفاه والعدالة الحقّة.

## الهوامش

- (١٤) جريدة لواء الاستقلال، ١٩٥٤/٩/٨.
- (١٥) الحوادث، ١٩٥٤/٨/٥.
- (١٦) تاريخ الاقطار العربية المعاصر / دار التقدم، موسكو.
- (١٧) محكمة الشعب، الجزء الثاني، ص ٣٠١١.
- (١٨) محكمة الشعب، الجزء العاشر، ص ٤٠١٤.
- (١٩) من / وزارة المعارف، (العدد: ١٥٤٧ / سري. التاريخ: ١٠ كانون الاول ١٩٥٠) الى مديريات الشرطة العامة: الموضوع / شهادات حسن السلوك: يرجى التعميم على كافة مديريات الشرطة في الاولوية بالامتناع عن اعطاء شهادات حسن السلوك لمراجعيها من الطلاب والطالبات. وان يطلب اليهم مراجعة مديرية التحقيقات في بغداد لتزويدهم بتلك الشهادات واعلامنا.
- (التوقيع: وزير المعارف، خليل كنة)
- (٢٠) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٥٦٤-٥٨٦.
- من / وزارة المعارف: (التاريخ: ١٩٥٥/٥/٣١) الى / دار المعلمين العالية: نرفق طياً نسخة من التقرير المتضمن بعض المعلومات المرسله اليها من الجهات المختصة حول الطلاب الواردة اسمائهم ادناه. يرجى اتخاذ مايلزم لفصلهم حالاً فصلاً نهائياً من المعهد وتزويد كل من وزارة الداخلية والدفاع بالمعلومات اللازمة عنهم. (التوقيع: وزير المعارف خليل كنة)
- (٢١) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٢٠٧ / شهادة الدكتور عبد الله اسماعيل، استاذ كلية الحقوق.
- من / عمادة دار المعلمين العالية الى / وزارة المعارف: نرفق قائمة بثلاث نسخ باسماء خريجي الكلية لعام ١٩٥٢-١٩٥٣ مع ملاحظتنا التفصيلية حول من لا نوصي بتعيينهم بالنظر لاعتناقهم المبادئ الهدامة ولانهم في نظرنا يكونون خطراً على توجيه التعليم في المملكة. التوقيع: عميد دار المعلمين العالية.
- (٢٢) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٢٢٩ / شهادة الدكتور مهدي المخزومي، عميد كلية الاداب.
- (٢٣) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٢٣٢ / شهادة الدكتور مصطفى كامل ياسين—استاذ كلية الحقوق.
- (٢٤) مجيد خوري، العراق الجمهوري، ص ٢.
- (٢٥) ليث الزبيدي، مصدر سابق، ص ٣١، عن المجموعة الاحصائية لعام ١٩٥٧.
- (٢٦) زكي خيري. ملاحظات دولية عن الاصلاح الزراعي المنشود في العراق، ص ٤٢.
- (٢٧) ليث الزبيدي، مصدر سابق، ص ٣٣.

- (٢٨) هشام متولي / اقتصاديات القطر العراقي، مركز الدراسات الاقتصادية دمشق، ١٩٦٤.
- (٢٩) هليم احمد / موجز تاريخ العراق الحديث ١٩٢١—١٩٥٨، ص ١٢٨.
- (٣٠) كامل الجارحي / جريدة صوت الاهالي ٢١/١/١٩٤٦.
- (٣١) مجيد خدوري، العراق الجمهوري.
- (٣٢) مجيد خدوري، مصدر سابق، ص ٧٤.
- (٣٣) د. رحيم عجينة / الثقافة الجديدة، عدد ٢٣٦، ص ١٢٠.
- (٣٤) محكمة الشعب / الجزء الاول، ص ٢٧١.
- (٣٥) ورد في منهاج الوزارة الاولى التي تشكلت بعد تتويج الملك فيصل في ايلول ١٩٢١ الاشارة الى حاجة المملكة الى جيش «يلم شعنها داخلاً، ويدافع عن كيانها خارجاً» ومن أجل ان «تكون المملكة العراقية في سكون من الفواتل والمشاكل الداخلية...».
- وجاء في المادة الثامنة من الاتفاقية العسكرية المعقودة طبقاً للمادة السابعة من المعاهدة العراقية البريطانية لعام ١٩٢٢ تأكيد واضح على استخدام الجيش العراقي «بأعمال عسكرية لحفظ النظام الداخلي» أو «إخماد أي اضطراب أهلي» الى جانب «صد أي تجاوز خارجي».
- اما المادة سادساً من منهاج الوزارة السعدونية الاولى في تشرين الثاني ١٩٢٢ فقد اكدت على «اتخاذ جميع التدابير لاحداث قوة وطنية من الجيش والشرطة تكفل حفظ الامن وصيانة البلاد من كافة الطوارئ».
- وعلى غرارها ذهبت المادة ١١ من منهاج الوزارة العسكرية الاولى في كانون الاول ١٩٢٢ حين اشارت الى «تقوية القوات الوطنية على ان تكون قادرة لحفظ الامن داخلاً، ومنع التجاوز من الخارج» (٣٤).
- وفي لائحة قانون التجنيد الاجباري التي قدمها رئيس الوزارة الى مجلس النواب في حزيران ١٩٢٧ جاء إن مهام الجيش هي «للأمن الداخلي والدفاع عن الوطن» (٣٥).
- (٣٦) مجيد خدوري / العراق الجمهوري.
- (٣٧) حسين جميل / مصدر سابق، ص ٢٥٨.

## نقص المياه وبعض مشكلات البيئة في الشرق الأوسط

---

### د. حسن الجنابي

الوضع المائي في العراق والدول المجاورة حرج للغاية بسبب ازدياد حدة الخلافات حول تقسيم المياه، بخاصة مياه الرافدين دجلة والفرات، والبرامج المعلنة لدول المنطقة للتجارة بها أو استعمالها كاداة للضغط السياسي. فلقد بيّنا في بضع مقالات سابقة<sup>(١)</sup> بعض تجليات أزمة المياه العذبة والاهتمام الدولي بشأنها في منطقتنا التي تعتبر نموذجاً لما يحصل في مناطق وقارات أخرى ليست بالبعيدة عن الاهتمام الدولي أيضاً. يتعلق الأمر بنوعية حياة الاجيال القادمة وهل ستضطر للعيش في عالم مليء بالنزاعات المائية أم أن الجيل الحالي سيتمكن من تطوير أليات ووسائل تضمن استمرار التقدم مع الحفاظ على البيئة ومصادرها الضرورية للحياة.

انعكس القلق الدولي بالمشكلة في مؤتمرات عدة عقدت خلال العقد الاخير كمؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو ومؤتمر برلين ومؤتمر السكان في القاهرة وفي حزيران المنصرم في مؤتمر اسطنبول الذي تكرر فيه تحذير منظمة الامم المتحدة للعالم حول نقص المياه والتلوث البيئي في المدن الكبرى على وجه الخصوص. فقد اشار التقرير الافتتاحي لهذا المؤتمر الى أن أكثر من مليار ونصف المليار انسان سيواجهون في العام ٢٠٢٥ ظروفاً تهدد حياتهم وصحتهم بالخطر اذا لم يتم إتخاذ تدابير جذرية لحل مشكلات التدهور المتفاقمة، وما يرافقها من فقر وتشرد وبطالة وانهايار القيم الاجتماعية لمجاميع كبيرة من البشر ممن لا يتمتعون بشروط مناسبة للسكن والتغذية والملبس

والتعليم. وقدّر التقرير عدد الوفيات الناتجة عن تناول مياه شرب ملوثة في مدن العالم الثالث الكبرى بعشرة ملايين وفاة سنوياً. وكان المفترض ان يتمخض المؤتمر عن التزام دولي باعتبار السكن الصحي حقاً من حقوق الانسان الاساسية التي يجب أن تسهر على توفيرها الدول لولا معارضة الولايات المتحدة الامريكية لذلك<sup>(٢)</sup>.

لا تقتصر شحة المياه على مدن العالم الثالث الكبيرة بل تشمل مدن غربية واوروبية عديدة كلوس انجلس وكارديف ووارشو وغيرها، وتقدر احصائيات الامم المتحدة عدد الذين لا يحصلون على مياه شرب صحية بأكثر من مليار انسان، وتعزى هجرة أكثر من ٢٥ مليون انسان سنوياً الى تدهور ظروف الحياة وانهايار التوازن البيئي في اماكن سكناهم ويسميهـم نورمان مايرز من جامعة اوكسفورد «لاجئي البيئة» مؤكداً أن عوامل كالتصحـر والجفاف والتلوث هي السبب وراء نزوحهم ومفاقمة مشكلات الاسكان والبطالة والفقر. اما علماء المناخ والمختصون الآخرون فيقرعون ناقوس الخطر من ارتفاع حرارة الارض التي يعتقدان لها علاقة مباشرة بانتشار حالات الجفاف في مناطق لم تشهدهما من قبل كالشمال الاوروبي، حيث شهدت بريطانيا في العام الماضي اقسى جفاف في تاريخها، كما قلّت مناسيب المياه في موسكو لهذا العام بنسبة ٦٠٪ عن المؤلف.

### **الزيادة السكانية و«الامن» الغذائي**

إن أكبر مشكلة تتعلق بالمياه العذبة هي سرعة تزايد سكان العالم. فأخر الدراسات تقدر ان عدد سكان الارض سيرتفع من ٥ر٢ مليار حالياً الى ١١ر٣ مليار (بدلاً من ١٠ر٢ كما كان مقدراً في السابق، في نهاية القرن المقبل، وسيرتفع العدد الى ١٤ مليار قبل أن يصل الى حالة تشبه الاستقرار. بحلول العام ٢٠٢٥ سيبلغ عدد السكان حوالي ٨ر٥ مليار أي بزيادة مقدارها ٤٥٪ خلال ثلاثين سنة أكثر من ٩٠٪ منها ستحصل في دول العالم الثالث.

ان الزيادة السكانية الهائلة هذه تتطلب زيادة في الانتاج الغذائي العالمي بنسبة ٣-٤٪ سنوياً وهذا يفترض زيادة سنوية في المساحات المزروعة بمقدار خمسة ملايين هكتار، ستحتاج بالطبع الى مياه إضافية لأن جميع الاراضي الصالحة للزراعة الديمية مستثمرة حالياً. وجدير بالذكر ان السنوات القليلة القادمة ستشهد خسارة ما يقرب من ٨٠ مليون هكتار من الاراضي المزروعة نتيجة للتملح والادارة السيئة واستنزاف الموارد المائية وتلوثها.

قد يكون من الصعب للبعض تصور أن المياه يمكن أن تكون العامل المحدد الرئيسي للأنشطة الانسانية، خاصة وإن ثلاثة ارباع الكرة الأرضية مغطى بالمياه. يتعلق الامر، ببساطة بـ ٢٥٪ فقط من تلك المياه التي تملأ المحيطات والبحار والانهار وهي المياه العذبة الضرورية للانسان. أضف الى ذلك فإن ثلثي تلك الكمية متجمد في القطبين، وما تبقى فهو موزع بشكل غير منتظم في الانهار والبحيرات وتحت سطح الأرض، وإن ٤٠٪ من تلك المياه مشتركة بين أكثر من دولة مما يؤدي الى اختلافات وتوترات وحتى مناوشات عسكرية تنبئ بنزاعات خطيرة مقبلة في بعض المناطق.

### مبادرات دولية

لقد خصصت الامم المتحدة ٢٢ آذار يوماً سنوياً أسمته «اليوم العالمي للمياه» وكان شعاره لهذه السنة «المياه للمدن العطشى» بهدف جلب انتباه العالم للمخاطر الناجمة عن اهمال قضية المياه أو العبث بها<sup>(٣)</sup>. كما تم بناءً على توصية أخرى انشاء المجلس العالمي للمياه كأكبر منظمة غير حكومية لدراسة الشؤون المائية بما فيها شحتها والمحافظة على نوعيتها وتطوير أسس وأطر موحدة عالمياً لمعالجة المشكلة المائية، وقد انتخب الخبير المصري د. محمود ابو زيد رئيساً انتقالياً للمجلس الى حين اكتمال الاجراءات الفنية والتشريعية التي يفترض استكمالها في اجتماع جنيف في اواسط تموز من هذا العام تنفيذاً لقرارات مؤتمر ريو دي جانيرو ومتابعة لتنفيذ ما تم الالتزام به آنذاك على غرار مؤتمر برلين.

في تقريره الشامل عن ادارة المياه على مستوى العالم، اضاء اسماعيل سراج الدين، نائب رئيس البنك الدولي لشؤون البيئة، حجم المشكلة التي تواجه البشر حيث يعاني ٤٠٪ من سكان الارض موزعين في ٨٩ بلداً درجات مختلفة من شحة المياه<sup>(٤)</sup>. وجدير بالذكر ان البنك الدولي أكبر مستثمر للأموال في قطاع الماء وتبلغ استثماراته في هذا القطاع ٢٣ مليار دولار في افريقيا وحدها موزعة على ٤٤ مشروعاً. أما مجموع استثماراته عالمياً خلال الثلاثين سنة الاخيرة فقط فتقدر بـ ٤٠ مليار دولار أي بمعدل ١٣ مليار في السنة.

يقدر التقرير المذكور حاجة المجتمع الدولي للتغلب على المشكلات المتعلقة بشحة المياه خلال السنوات العشر المقبلة بحوالي ٦٠٠ مليار دولار وهذا رقم فلكي قياساً بإمكانات الدول الفقيرة الأكثر معاناة من شحة المياه وتلوثها، ويبرز منطقتي الشرق

الأوسط والشمال الأفريقي باعتبارهما أكثر مناطق العالم تعرضاً لنقص المياه البالغ ٤٠٪ للشخص الواحد حالياً، وسيصل الى حوالي ٨٠٪ في العام ٢٠٢٥ حيث ستبلغ حصة الفرد ٦٦٧ متراً مكعباً في السنة بعد أن كانت ٣٤٣٠ متراً مكعباً في ١٩٦٠. لقد طور البنك استراتيجية خاصة للعمل في أفريقيا، قسّم خلالها الدول في هذه القارة الى ثلاث مجاميع. كل مجموعة يمكنها الاستفادة من نوع مختلف من المساعدات حسب استقرارها السياسي آخذين بالاعتبار الظروف المميزة لكل بلد في تطوير خطته المائية بعيداً عن الاعتماد على التقنية الهندسية والاستشارات الخارجية المرتفعة الكلفة غالباً والبعيدة عن معرفة حاجة السكان المحليين لهذا المصدر. كما تؤكد على المقاربة الإقليمية المتكاملة للدول المشتركة بالحوض المائي بعيداً عن تحقيق فوائد لطرف واحد على حساب الاطراف الاخرى<sup>(٥)</sup>.

ضمن سلسلة النشاطات الدولية الهادفة الى تعزيز الوعي العام بحجم المشكلة المائية التي تواجه البشرية يقام في آب من هذا العام (بناءً على دعوة معهد ستوكهولم المائي) مؤتمر دولي حول مشكلة المياه سيتحدث خلاله عدد من الشخصيات العالمية بضمنهم الامير صدر الدين أغا خان الذي قاد عمليات الامم المتحدة للاغاثة في العراق غداة حرب الخليج الثانية. سيركز المؤتمر على محاولات الاجابة على عدة اسئلة تتعلق بمستقبل البشرية وعلاقتها بالمياه في ضوء تحديد الاولويات على أسس اخلاقية وفيما اذا كانت للانسان خيارات فعلية مابين الظروف البيئية والصحية والاقتصادية، ثم علاقة ذلك بالقضايا ذات الابعاد الاخلاقية كالتعليم والعمل والمساواة وغيرها.

### **الشرق الأوسط حقل تجارب**

ان الخصائص الديموغرافية والهيدرولوجية والسياسية هي التي تجعل منطقة الشرق الأوسط والشمال الأفريقي محط اهتمام مركز. فسكان المنطقة يشكلون ٥٪ من سكان الأرض في حين تمثل المياه المتجددة المتاحة للاستعمال ١٪ فقط من مجموع مياه الأرض العذبة. وتقدر حصة الفرد الواحد من الماء بحوالي ١٢٥٠ متراً مكعباً في السنة، علماً أن التوزيع السكاني بين بلدانها لا يتناسب مع توزيع المياه سواء على مستوى الدول أو الجهات (الأقاليم) في حين تتقارب نسبة النمو السكاني المرتفعة في جميع البلدان، وتزيد على ٣٪ في أغلبها، مما يزيد في المنافسة للحصول على الكميات المطلوبة من المياه لتحقيق مستوى حياة صحية معقول. وفي الوقت الحاضر، يقدر البنك الدولي عدد



السكان الذين لا يحصلون على مياه شرب صحية في المنطقة بـ ٤٥ مليوناً، وعدد السكان المحرومين من أنظمة التصريف الصحية بـ ٨٠ مليون نسمة ويتوقع أن ترتفع هذه الأرقام بسرعة انسجاماً مع سرعة التزايد السكاني وتلكو التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العديد من البلدان وما ينتج عنها من افقار لفئات عديدة من السكان. من الواضح ان المنطقة لا تستطيع سد النقص الحاصل في مصادر المياه دون اتباع وسائل جديدة اذا ما اريد تحقيق النمو الاقتصادي، أو على الأقل الاستقرار السياسي والعسكري الحرج القائم حالياً، وتجنب حدوث مجاعات وكوارث اجتماعية. فانتاج الحبوب، مثلاً، بحاجة الى أن يرتفع بمقدار ٧٠٪ خلال الثلاثين سنة المقبلة، ومعروف ان انتاج الكيلوغرام الواحد من الرز يحتاج الى ٥٠٠٠ ليتر من الماء من الصعب جداً توفيرها اذا لم تكن على حساب القطاعات الاخرى المستهلكة للماء والتي تعاني أصلاً من العجز.

بهذا الصدد يقترح البروفسور ج.آ.آلان من «مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن» استيراد الغذاء والكف عن التوسع الزراعي حيث ان كلفة استيراد الغذاء أقل من كلفة انتاجه، ويقدر أن كمية المياه التي تحتاجها عائلة فلاحية واحدة تكفي لسد حاجة عشر عوائل غير فلاحية (الايكونوميست ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٥). أما استاذ الاقتصاد بجامعة هارفرد فرانكلين فيشر، فيرى أن الحل يكمن باقامة سوق مائية دولية في الشرق الاوسط، ويقدم لذلك نموذجاً رياضياً (موديل) سماه «موديل هارفرد» لحل المشكلة المائية، أو على الأقل الخلافات بشأنها، على أسس تجارية بحتة، باعطاء قيمة مادية للماء. وهو يعتقد ان نمودجه سيحقق الاستعمال الكفوء للماء في القطاعات الانتاجية المهمة تستطيع معه السلطات المسؤولة السيطرة النوعية على طرق توزيع واستعمال المياه. يعتمد «الموديل» على جملة فرضيات منها ان الدولة في الشرق الاوسط ليست حرة باستعمال مياهها بل أن عليها ان تدفع مبلغاً معيناً كما لو انها تشتري حصتها، ويمكنها كذلك بيع كل أو جزء من تلك الحصص لدولة اخرى. ويفترض أن يؤخذ في الحسبان اختلاف قيمة المياه من منطقة الى اخرى وكذلك الاهمية الاجتماعية والثقافية التي تختلف عن قيمته المادية المقدرة بالعملة.

من الطريف في هذا «الموديل» انه يقدر قيمة المياه التي تنازلت عنها اسرائيل للفلسطينيين حسب اتفاق اوسلو بثلاثة ملايين دولار فقط، وقيمة المياه المتنازع عليها بين سوريا والاردن واسرائيل والفلسطينيين بحوالي ١١٠ مليون دولار فقط وسوف لن تزيد في العام ٢٠٢٠ عن نصف مليار دولار. وهذه بالطبع ارقام صغيرة قياساً بحجم

الاقتصاد في المنطقة وكلفة المعدات العسكرية والمواجهات العسكرية المحتملة بشأنها.

### تحويل المياه وتجارتها

أخذت الدول الغنية المعروفة بشحة مياهها تفكر بنقلها من مناطق أخرى منذ عقود، ويبدو الآن أن استيراد وتصدير المياه عملية لا مفر منها في المستقبل القريب للعديد من دول العالم، وهذه وإن كانت لا تمثل حلاً نهائياً لشحقتها وسوء توزيعها، إلا أنها إجراء انتقالي معقول عند توفر المال والامكانيات التقنية لمدّ أنابيب نقل المياه المستوردة والخزانات الخاصة باستقبالها وتوزيعها للمستهلكين في القطاعات الاقتصادية المختلفة. ومن الجدير بالذكر إن نقل المياه من أماكن تواجدها الطبيعي إلى أماكن أخرى يعد أمراً في منتهى الخطورة على المستوى البعيد فيما يتعلق بالنتائج البيئية والايكولوجية وبالطبع الهيدرولوجية، التي حتمت التوزيع المعروف لمياه الأرض. وسيكون لها تأثير سلبي بالغ على الأنظمة الايكولوجية في المناطق التي تقع هيدروليكيًا في الجهات السفلى للبحاوض المائية (الانهار)، ويتوقع، بالارتباط مع تقليل نسب جريان الانهار، خلق مشكلات سياسية واقتصادية وعسكرية في حالة اشتراك أكثر من دولة واحدة بالنهر.

إن نقل المياه من حوضها الاصلي إلى حوض آخر هو أمر مرفوض بيئياً وتعرض عليه حركات البيئة النشطة، لكن القضية شائكة أكثر مما قد يبدو للوهلة الاولى. فالماء، بالضد من بعض المعتقدات الدينية والتقاليد الثقافية، في طريقه لأن يصبح سلعة تباع وتشترى في الاسواق العالمية بعد أن كان هبة يتمتع بها الانسان دون قيد. وإن نظرة بسيطة لاقتصاديات المياه في العالم<sup>(٦)</sup> كافية لتلمس اتجاه تحويل المياه إلى سلعة، وتأسست لذلك شركات عملاقة مختصة بالعمل في الاقتصاد المائي<sup>(٧)</sup>.

لقد اجريت دراسات شاملة لنقل المياه من دولة إلى أخرى بنفس الطرق التي يتم بها تصدير النفط الخام. ويتزايد عدد الدول التي تعلق آمالاً على حلّ جانب من مشكلة الحاجة للمياه عن هذا الطريق في جميع القارات بما فيها أوروبا الغنية بمصادرها المائية، فمثلاً يجري الآن التفاوض لتصدير المياه من فرنسا إلى اسبانيا التي يضر بها الجفاف منذ عدة سنوات. ومما يغري باستيراد المياه لبعض الدول (في الخليج مثلاً) هو قلة كلفته قياساً بالوسائل الاخرى للحصول على مياه صالحة للاستعمال كتحلية مياه البحر. فاستيراد المتر المكعب من المياه من الباكستان إلى السعودية يكلف ٧٩ سنتاً ومن السودان ٢٩

سنتاً ومن مصر بحدود ٦٠ سنتاً، في حين تصل كلفة المتر المكعب من المياه المحلاة الى دولار ونصف<sup>(٨)</sup>.

### محاولات استيراد المياه في الشرق الأوسط

يشكل الشرق الأوسط ساحة نموذجية لاقتصاد المياه وتجريب الوسائل والخطط للتغلب على نقصها، وهي مرشحة كي تكون سوقاً مائية مربحة. فاستيراد المياه، على مستوى الدراسات، له تاريخ طويل يبدأ في العام ١٩٥٣ حين انجزت دراسة مشروع تزويد الكويت بالمياه العراقية من قبل شركة بريطانية، تبعتها شركة سويدية استمر عملها حتى مطلع السبعينات. غير أن المشروع لم ينفذ بسبب انعدام ثقة الحكومة الكويتية بنظيرتها العراقية. لكن صدام حسين بفضل «قادسيته» الأولى استطاع استعادة ثقة الكويتيين وحمل حكومتهم على الوقوف الى جانبه في الحرب ضد إيران فبادر «برد الجميل» بالطلب الى شركة فرنسية لاستكمال دراسات المشروع القاضي بتصدير ٦١٦٥ متراً مكعباً في اليوم من المياه الى الكويت، ومنها ١٨٥٠ متراً مكعباً من مياه شط العرب و ٤٣١٥ متراً مكعباً في اليوم من دجلة. وقد استكملت الدراسة فعلاً في العام ١٩٨٨، وقام أثرها ولي العهد الكويتي في شباط ١٩٨٩ بزيارة بغداد حيث أعلن الاتفاق بين الحكومتين<sup>(٩)</sup>. ومعروف بالطبع ما صدر صدام للاشقاء الكويتيين بدلاً من المياه في مغامرته الثانية التي حتمت تخلّيه الطوعي عن نصف مياه شط العرب لصالح إيران وهي الحصة التي زعم انه حارب من أجلها ثمانية اعوام عجاف أهدرت دماء زهاء مليون انسان. لقد كان من نتائج الحرب مع إيران تشجيع الدول المجاورة للجوء الى وسائل أنانية، وفي أغلب الحالات غير أخلاقية، بالتصرف بالمياه التي تشكل جزءاً من السيادة الوطنية العراقية وحقاً من حقوق سكان وادي الرافدين منذ وجد الانسان على تلك الأرض. فالحكومة الإيرانية اقترحت تزويد دولة قطر بمياه نهر (القارون) وهو رافد من روافد شط العرب<sup>(١٠)</sup>. أما تركيا فقد واصلت بعناد لا اخلاقي برنامجها المائي متحدياً بذلك ليس فقط الشروط البيئية والتحديات الفيزيائية للغرات، بل كذلك التاريخ والمصالح المشتركة والقيم الدينية عن طريق مشروع مؤشرات الفشل فيه أكثر من مؤشرات النجاح.

ويُنفذ بطريقة ابتزازية فيها من الاستفزاز والتعنت والعجرفة الشيء الكثير وبموافقة الفئات السياسية التركية معارضة كانت ام حكومية، ولا تشذ عن ذلك الحكومة الجديدة التي يقودها الاسلاميون الاتراك<sup>(١١)</sup>. ويستثنى من ذلك نفر قليل من علماء البيئة الاتراك

الذين يعارضون بعض جوانب المشروع لنتائجه السلبية على المدى البعيد، وكونه اهداراً للموارد المالية التي تحتاجها بالحاح القطاعات الاقتصادية الاخرى. ومما له دلالة خاصة أن البنك الدولي اوقف دعمه للمشروع التركي ما لم يتم التوصل الى اتفاق تركيا مع سوريا والعراق مما اضطرها لتمويله ذاتياً وبالتعاون مع شركات غربية.

لا نهدف في هذه الفقرة المناقشة الشاملة للمشروع التركي، الذي سبق وعرضناه في أكثر من مقال، بقدر اضاءة السعي التركي لتسويق مشروع تصدير المياه. فهذا هو الهدف الرئيسي لعمليات الدولارات المصروفة في اقامة المنشآت الهيدروليكية التركية في حوضي الفرات ومجلة. يتناغم السعي التركي في لعب دور القوة الاقليمية العظمى، من خلال التحكم بعصب الحياة (المياه) في المنطقة، مع السعي الاسرائيلي بنفس الاتجاه، وكان من نتائج ذلك عقد الاتفاقات العسكرية والاقتصادية وبضمنها الدراسة الجدية لتصدير المياه التركية الى اسرائيل من نهري سيحون وجيحون<sup>(١٢)</sup>.

من جهتها فإن اسرائيل، بعد ان تنازلت عن بعض الحقوق المائية التي اغتصبتها في حروبها السابقة، تنافس تركيا في الحماس لتجارة المياه وتعرض منشآتها لتخزين المياه المستوردة لتنتقل لاحقاً الى دول اخرى. وهي ترى حل الازمة المائية مؤقتاً بنقل مياه النيل من مصبه عند البحر المتوسط الى قطاع غزة، ومياه نهر الليطاني اللبناني الى بحيرة طبرية ثم الضفة الغربية واسرائيل والاردن، وبالطبع المياه التركية للاردن والخليج. وهي تمارس ضغوطاً متنوعة على الاردن والسكان العرب في الضفة الغربية فيما يتعلق باستعمال المياه، وقد المص مسؤول اردني بأن اسرائيل تضخ مياه بحيرة طبرية المالحة الى نهر الاردن مما يساهم بتدهور نوعية المياه الجارية فيه<sup>(١٣)</sup>.

تعتبر الباكستان من الدول الغنية مائياً وتحاول بعض دول الخليج استيراد المياه منها. فالامارات المتحدة تفكر بشراء ٥٢٠ ألف متر مكعب في اليوم من نهر منغولي الباكستاني اليها ومد انابيب تحت بحر العرب على عمق ٦٠٠ متر، وقد انجزت دراسة ذلك في العام ١٩٨٩ من قبل شركة بريطانية. أما السعودية فتدرس بدائل عديدة لاستيراد المياه من الباكستان والسودان ومصر وتركيا وكذلك كندا. غير ان حرب الخليج الثانية ساهمت بتأجيل تلك المشاريع لاغراض الأمن الوطني، ليس فقط في السعودية بل مجمل المنطقة، باستثناء الاتفاق الاخير بين تركيا واسرائيل على نقل المياه والذي نتج ضمناً عن الاصطفاف الجديد للدولتين والذي ادخل عاملاً آخر على المعادلة الشرق - اوسطية. من الجدير ذكره أن الاعمال التركية الاخيرة، بعد اتفاقها مع اسرائيل، والتي تمثلت

بتخفيض جريان الفرات في نهاية نيسان الماضي الى ٢٠٠ متر مكعب في الثانية بدلاً من ٥٠٠ متر مكعب كما أعلنت مراراً من جانب واحد، أثارت ردود أفعال قوية لدى سورية التي ايدها جامعة الدول العربية في معارضتها لاقامة السدود الجديدة على الفرات قرب الحدود الدولية<sup>(١٤)</sup>. وقد لمّح رئيس الوزراء التركي آنذاك، مسعود يلماز، رداً على ذلك، الى حقوق تركيا بمياه نهر العاصي متهماً سوريا بالاستحواذ على حصتها من تلك المياه<sup>(١٥)</sup>.

### خاتمة:

يركز نشاط البيئة بمختلف مشاربهم على شعار أساسي هو «فكر كونياً وانشط محلياً». وهذا ليس شعاراً اعتبارياً، بل شعار يضع مسؤولية حماية البيئة على عاتق الانسان كفرد ومجتمع، فإضافة الى المسؤوليات التي تتحملها الدول، يلعب الافراد والمجاميع المحلية المختلفة دوراً أساسياً في العمل على منع التلوث والحفاظ على جمال البيئة وعطائها لما فيه خير الانسان. بهذا المعنى هدفت مقالتنا المختصرة هذه الى زيادة الوعي، ومن ثم الاهتمام، بالمشكلة البيئية عموماً، والمائية منها على وجه التحديد، لدى القراء غير المختصين، نظراً للدور المهم الذي يمكن ان يلعبه الرأي العام المدرك للمشكلات الاساسية التي يواجهها الانسان المعاصر.

الهدف الآخر هو اضاءة جانب من جوانب المشكلة اياما في منطقتنا، ولعل هناك من يفكر، وهو محق، بأن المنطقة تتميز بانتهاكات فاجعة لحقوق الانسان نفسه تجعل من التفكير بالبيئة نوعاً من الترف والنخبوية أمام الاعتداءات الفاضحة على القيم الانسانية المتمثلة بانعدام حرية التعبير والتفكير والتنظيم والصحافة، وحيث تعج المدن العربية بالسجون بدلاً من الحدائق. إن هذا صحيح، لكن الأصح هو أن العمل في سبيل البيئة النقية والمعتاة لا ينفصل عن النضال من أجل الحقوق الاساسية للانسان للعيش بكرامة وحرية في ظل حكم يساهم هو في انتخابه ويسهر على خدمة المجتمع، بل أنه عمل واحد متكامل ولا يستطيع الانسان المعاصر، مهما ضاق مجال اختصاصه، أن يعيش منعزلاً عن مصير الآخرين.

إن مشكلة من حجم مشكلة الفرات، على سبيل المثال، يجب أن تكون محط اهتمام الكاتب والعالم والاقتصادي والمؤرخ والشاعر والفنان مثلاً في محط اهتمام المهندس المختص، لكي يكون من الصعب على أنظمة الحكم تجاوز الوعي الشعبي وحين تنتصر

الإرادة الشعبية في هذه القضية تصبح أكثر تأهيلاً لانتصارات أخرى على الدكتاتورية والتخلف.

سببني ١٩٩٦/٨/٨

## الهوامش

- (١) راجع مقالتنا في الثقافة الجديدة، الأعداد ٢٤٨، ٣٥٨، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٨.
- (٢) من الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي إمتنع عن التوقيع على أهم وثيقة صدرت عن مؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو في عام ١٩٩٢ وهي المعروفة باسم Agenda-21 والقاضية، ضمن مطالب أخرى، بتخصيص ميزانية محدّدة من الناتج المحلي للعناية بالبيئة.
- (٣) اقترت الأمم المتحدة ذلك بناء على توصية من مؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو وذلك لرفع مستوى الوعي العام بقضية مياه الأرض.
- (٤) Ismail Serageldin, "Towards Sustainable Managment of Water Resources" World Bank Publication 1996.
- (٥) Financial Times News letter, Water Breifing. Issue 56, 6 March 1966.
- (٦) هذه التسمية قد تكون غير دقيقة المقصود بها العمليات التجارية والصناعية وكل ما له علاقة بتكنولوجيا المياه المستعملة في تكريرها ومعالجتها أو إدارتها وتخزينها وتوزيعها. ولربما تصح تسمية الصناعة المائية.
- (٧) تحولات إدارة وتخزين وتوزيع المياه في أغلب المدن الكبرى في العالم إلى القطاع الخاص وليس آخرها شراء مصلحة مياه مدينة ادبيلايد في استراليا من قبل شركة فرنسية عملاقة بملياري دولار، واللافت للنظر الاتجاه السائد لخصخصة الصناعة المائية في المدن الاسيوية الكبرى بما في ذلك بعض المدن الصينية.
- (٨) Farouq Al-Layla 1987 "Study of Water Transportation to Saudi Arabia" ASCE J. of Water Resources Planning and Management vol.113. No.3.
- (٩) World Water, April 1989.
- (١٠) جريدة «الاتحاد» الاماراتية، السبت ٦/١/١٩٩١.
- (١١) Financial Times News letter, Global Water Report, 19 June 1996.
- (١٢) World Water and Environmental Engineering. Feb. 1996. انظر «المياه التركية للبيع».
- (١٣) Financial Times, News Letter, Water Breifing, Issue 52, 10 January 1996.
- (١٤) في ١٠ عام ١٩٩٥ وقع الاترك مع كونسرنينوم نمساوي عقداً لبناء سد قرقاميش على بعد ٤ كلم عن الحدود السورية، وكان اتفاق آخر قد عقد مع شركات أخرى لبناء سد بريجيك على مسافة ١٥ كلم من الأول.
- (١٥) International Water Power and Dam Construction. June 1996.

## اللغة الكردية والناطقون بها

---

محمد توفيق علي

هذه المقالة ترجمة بتصرف عن الانكليزية استجابة لاعلان من مكتبة معهد اللغويين البريطاني للتعاون في اعداد قاموس للغات ستنتشره دار (بلومسبري) علماً بان المعطيات المطلوبة ليست عن قواعد اللغة المعنوية، بل عن تاريخها وموقعها الجغرافي وانعكاسها على ثقافة الناطقين بها. واقتصر الطلب على تحرير وتدقيق ما يעדّه المؤلف عن اللغة المعنوية وبالأخص عن اللغات غير المالوفة. ولكوني كردياً وعضواً في هذا المعهد، وجدت من واجبي القومي والمهني إعداد هذه المساهمة الموجزة وسهلة الفهم على القارئ الغربي. لذا اعتمدت اسلوب الأشكال البيانية المرفقة التي ينبغي شرحها ببعض الملاحظات. هذا وأناشد المعنيين بثقافة الكرد تدقيق هذه المساهمة وإغنائها بموضوعية.

### ١- الموقع الجغرافي للناطقين بالكردية

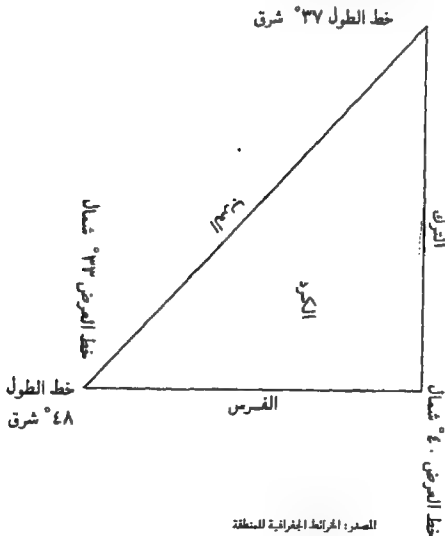
تشكل الخارطة الجغرافية لبلد ما أداة أولية ونقطة إنطلاق لدراسة شعبه وموطنه، ولكن بسبب إفتقار الشعب الكردي الى كيان سياسي خاص بقوميته وتقسيم موطنه، كردستان، على دول ذات حدود دولية مثبّتة، إرتأيت إستبدال الخارطة بالشكل الهندسي المنتظم وذلك تحاشياً للاعتبارات الدولية والحساسيات القومية التي تحرف قضية شعب وموطنه الى عدد نفوسه وحجم مساحته. وأخترت المثلث لكونه أكثر الأشكال تشابهاً مع الخارطة الفعلية لكردستان الكبرى. ولتحديد موقعها على خارطة العالم دونّت خطوط

الطول والعرض على الشكل البياني الذي لا يعني أن كل ما في داخله هو كردي أو كردستاني، أو أن لا إمتداد لهما خارج هذه الخطوط الوهمية.

كان لموقع كردستان عند تقاطع طرق القاتحين من آسيا وأوروبا وأفريقيا تأثير سلبي على احتفاظ الشعب الكردي بهويته القومية، أما الخصائص الطوبوغرافية (الجبال العالية والوديان والطرق الوعرة) فاثرت إيجابياً على الاحتفاظ بها. واعترافاً بهذه الحقيقة صاغ الشعب الكردي هذه الحكمة: «لا صديق للکرد غير جباله».

### الشكل البياني (١)

#### الموقع الجغرافي للناطقين بالكردية





## ٣ السيرة التاريخية للناطقين بالكردية

يتكون هذا الشكل من خط عمودي يمثل الزمن، على يمينه تواريخ الأحداث الهامة منذ ما قبل الميلاد حتى هذا اليوم. وعلى يساره سرد مدون لهذه الأحداث، كالحروب وحكم الامبراطوريات وهجرة الشعوب... الخ.

قد لا يكون بعض هذه التواريخ دقيقاً ولا الأحداث شاملة، فالغرض منها هو الربط بينها وبين مدى تأثيرها على ثقافة شعوب هذه المنطقة الجغرافية. فالمهم هو الأحداث نفسها والى حد أقل تسلسلها الزمني.

### الشكل البياني (٢)

#### السيرة التاريخية للناطقين باللغة الكردية

النظام العالمي الجديد

بعد الميلاد ٢٠٠٠

الحرب العالمية الثانية

١٩٤٥ - ١٩٣٩

الامبراطوريات الأوروبية

١٩١٨ - ١٩١٤

الحرب العالمية الأولى

الامبراطورية العثمانية

الديانة الإسلامية

الشعوب التركية

١٢٥٨

المغول

١٣٦

الحرب الممسون

الهجرة النهرية ٥٨٠

الابراتيون

الديانة المسيحية

الامبراطورية الرومانية

ميلاد المسيح

اليونانيون

الديانات القديمة

اسكندر المكدوني

قبل الميلاد ٣٣٤

الامبراطورية الآشورية

المصدر: تاريخ العالم

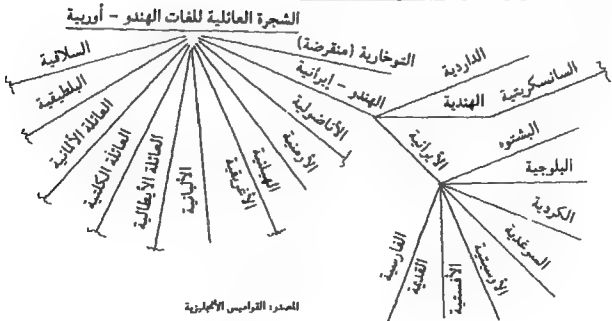
### ٣- أصل الكردية وعلاقتها العضوية بغيرها

#### شجرة عائلة اللغات الهندو - أوروبية

يوجد هذا الشكل البياني في معظم المصادر اللغوية الغربية وبالأخص القواميس الانكليزية. تكمن مساهمتي هنا في ترجمة مضمونه وتطويره بأعدادي للشكلين البيانيين رقم ٤ و ٥، بالإضافة الى ترجمتي لمضمونها. هنالك تدخل كبير، إن لم نقل تطابقاً، بين الدلالات اللغوية والدلالات القومية / الأثنية للمصطلح الواحد. فالشعب الكردي ينتمي اثنيّاً الى الشعوب الأيرانية، كما تنتمي لغته الى اللغات الأيرانية، التي تنتمي بدورها الى الهندو - إيرانية، التي تنتمي بدورها الى نواة الهندو - أوروبية. أو بعبارة أخرى، مرت اللغة الكردية بالمراحل المذكورة ولكن بأسبقية معاكسة. جرى بتر العائلات اللغوية في الشكل البياني باستثناء الأيرانية التي لاتشمل جميع لغاتها هنا كما يتوضح ذلك في الشكل البياني الرابع.

الشكل البياني (٣)

#### أصل اللغة الكردية وعلاقتها العضوية باللغات الأخرى



## ٤- اللغات الإيرانية من حيث الزمان والمكان

### (أ) شجرة عائلة اللغات الإيرانية

قبل الشروع بتصنيف اللغات الإيرانية من حيث المكان، ينبغي الإشارة إلى مصطلحات الاتجاهات النسبية، الشمال والجنوب والشرق والغرب، كون اللغة الموصوفة بها قد لا تتطابق مع الموقع الجغرافي الحالي للناطقين بها. وخير مثال على ذلك إنتماء الكردية والبلوجية إلى مجموعة اللغات الإيرانية الغربية الشمالية من حيث التطور الزمني. وبينما تقع كردستان في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشعوب الإيرانية، نلاحظ أن بلوجستان تقع في أقصى الجنوب الشرقي لها. قد يستنتج من ذلك انحدار الكرد من بلوجستان أو البلوج من كردستان أو انحدار الشعبين من بلد آخر، يدعي البعض بأنه آسيا الوسطى والبعض الآخر بأنه ما وراء القفقاس. ولكنني أترك هذا الأمر للمؤرخين.

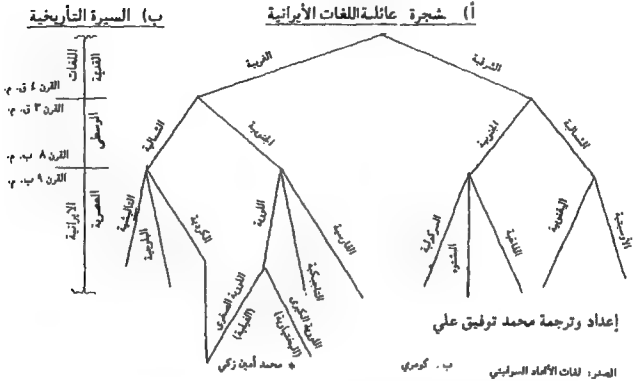
نلاحظ تصنيف اللورية مع الفارسية والتاجيكية ضمن مجموعة اللغات الإيرانية الغربية الجنوبية. تقسم اللورية بدورها إلى اللورية الصغرى (الفيلية). واللورية الكبرى (البختيرية). كما نعلم فإن الفيلية تقر بانتمائها إلى الكردية على صعيد العراق، على أقل تقدير. أما البختيرية فلإنها أكبر الظن تقر بانتمائها إلى شعب لوري وموطنه لورستان. ونعلم أيضاً، يوجد اختلاف مذهبي / طائفي بين اللور والكرد وتشابه بينهم والفرس. ومن الناحية الجغرافية، تقع لورستان في جنوب شرق كردستان على الحدود المتاخمة لبلاد فارس. أما الناطقون باللغات الإيرانية الأخرى، فإنهم يمتدنون من ما وراء القفقاس إلى الصين عبر أفغانستان وجمهوريات آسيا الصغرى، مثل طاجيكستان.

### (ب) السيرة التاريخية

إن هذا الشكل هو امتداد للشكل رقم ٢ ولكنه خاص باللغات الإيرانية ولذلك يرافقه ويوضح المصطلحات، القديمة والوسطى والحديثة، ويربطها بتاريخ ترمز إلى أحداث هامة كالاحتلال وهجرة الشعوب عبر التاريخ.

الشكل البياني (٤)

تصنيف اللغات الأيرانية من حيث الزمان والمكان



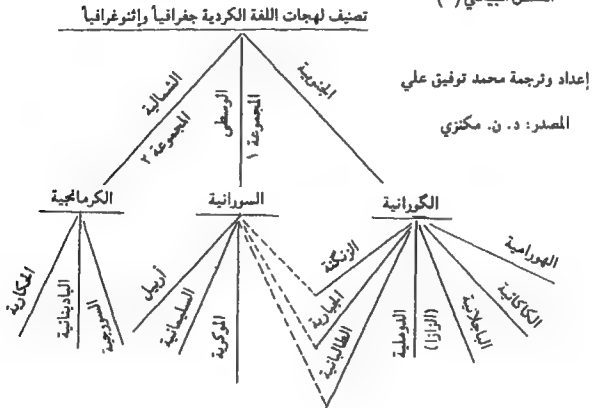
٥- اللهجات الكردية جغرافياً وإثنوغرافياً

يعتبر مصدر معطيات هذا الشكل من أهم الدراسات عن لهجات اللغة الكردية والتصنيف القبلي / العشائري للمجتمع الكردي على صعيد كردستان العراق مع تداخل قليل مع كردستان إيران وتركيا، إذ أنه عبارة عن دراسة ميدانية قام بها الاستاذ د.ن. مكثري عام ١٩٥٤-١٩٥٥ ونال عليها الدكتوراه في عام ١٩٥٧ وأصبح استاذاً للغات الإيرانية.

لقد جرى تصنيف الكورانية ضمن اللهجات الجنوبية للغة الكردية، لكن المؤلف يقول بانتماء الكوران الى الشعب التاتي او الطاجيكي وبأن عشائر الزنگنه والجبارية والطالبانية كانت عشائر كورانية تم صهرها لغوياً تحت تأثير إمارة بابان في السليمانية لغاية القرن التاسع عشر. يؤيده في هذا بعض المستشرقين الآخرين مثل الأستاذ الفرنسية جويس بلاو. أما المؤلفون الكرد، فهم يخالفون ذلك كلياً. ولعل خير مثال على ذلك هو عنوان ومقدمة المقال المنشور في العدد ٩٣ من «الثقافة الجديدة» (٥) في أيار

١٩٧٧، بقلم د. معروف خزندار الذي كتب بعنوان «الشعر الديني في اللهجة الكورانية الكردية». من هم الكورانيون؟ انهم جيل أو مجموعة اثنوكرافية تشكل الشعب الكردي مع مجموعات أخرى لها تسمياتها أيضاً. ولعل أدق تقسيم علمي للمجموعات الاثنوكرافية التي يتكون منها الكرد هو ما قام به المؤرخ الكردي الأمير شرف خان البدليسي (١٥٤٣ - ١٦٠٣) الذي قال: «والشعب الكردي أربعة فروع كبيرة، تخالف لهجات لغتهم وسحنتها وأدائها، أولهم (كرمانج) وثانيهم (لر) وثالثهم (كلهر) ورابعهم (كوران)». ولكنه يتفق مع مكنزي في الصهر اللغوي لعشائر الزنكنة والجبارية والطالبانية وإنتمائها الى الكوران بالأصل ويضيف إليها عشائر الببيان والشوان.

#### الشكل البياني (٥)



الموطن: يسمى موطن الشعب الكردي كردستان، على غرار تركستان وهندستان وعربستان والخ... يتم الاشتقاق بأضافة لاحقة (ستان) الهندو إيرانية الى اسم الشعب المعني. الجغرافياً: تقع كردستان عند سلسلة جبال زاغروس في غرب ايران وسلسلة جبال طوروس في الأناضول في تركيا وسلسلة جبل حميرين في وادي الرافدين، العراق.

بالإضافة الى منبع النهرين الرئيسيين دجلة والفرات، ينبع معظم روافدهما من جبال كردستان أيضاً.

**الطوبوغرافيا:** يتراوح ارتفاع كردستان بين بضع مئات من الامتار فوق سطح البحر في المناطق السهلية وبضعة آلاف من الامتار فوق سطح البحر في المناطق الجبلية.

**المساحة:** تقدر مساحة كردستان بين ٤٠٠ ألف و ٥٠٠ ألف كيلو متر مربع، أي أكبر من مجموع مساحة بريطانيا العظمى وهولندا وبلجيكا وسويسرا والدانيمارك.

**المناخ:** نظراً للموقع الجغرافي والطوبوغرافي لكردستان، يعتبر مناخها شبه استوائي. تتراوح درجات الحرارة بين ٤٥ درجة مئوية في الصيف في المناطق السهلية الحارة (كرميان) و -٣٥ درجة مئوية في الشتاء في المناطق الجبلية الباردة (كويستان). يتراوح مقدار سقوط الأمطار بين ٤٠٠ و ٥٠٠ ملم سنوياً. يتميز الصيف بالحر والجفاف، والشتاء بالبرد والثلج والربيع بسقوط الأمطار وذوبان الثلوج وباعتدال الجو والخريف يتميز أيضاً باعتدال الجو.

**النفوس:** يقدر نفوس الشعب الكردي بأكثر من ٢٠ مليون نسمة. بغض النظر عن دقة تعداده، فإن الشعب الكردي رابع أكبر شعوب المنطقة عديداً بعد العرب والترك والفرس. والأهم من هذا، فإنه أكبر شعوب العالم التي لا تزال تفتقر الى كيان سياسي خاص بقوميته.

**الاقتصاد:** يعتمد اقتصاد كردستان على الزراعة بما فيها الاكتفاء الذاتي لسكانها. تتميز المناطق السهلية بخصوبة تربتها لزراعة الحبوب لاسيما الحنطة والشعير. المناطق الجبلية تتميز بزراعة الفواكه كبساتين الكروم والجوز وبترابية نحل العسل. ويتميز الريف الكردستاني بتربية المواشي والحيوانات بأنواعها والتي تزود سكانها باللبان واللحوم والجلود والصوف. أما الصناعة فتقتصر على الصناعات اليدوية وأهمها الغزل والنسيج في صناعة السجاد. ولهذه الصناعة اليدوية التقليدية مغزى إقتصادي واجتماعي وثقافي لدى شعوب المنطقة. تعتبر صناعة السجاد الكردي تراثاً ثقافياً للشعب، لها خصائصها المحلية من حيث التصميم والتركيب والتلوين بالأصباغ الطبيعية. سبق وأن كانت من إختصاص الريف الكردستاني والقبائل الرحالة، أما الآن، فتوجد معامل للسجاد اليدوي في المدن الرئيسية في كردستان العراق.

**الزي القومي:** يتميز الزي الكردي للنساء والرجال بالألوان الزاهية التي تشبه ألوان الطبيعة في كردستان. يتكون الزي الرجالي من السترة والسروال الفضفاض بالإضافة الى ربطة الرأس والخصر، ويصر على إرتداء السروال. وتعتبر المرأة الكردية في المنزل

حاملة للعلامات المراثية للهوية القومية. أما الأقمشة، فقد تكون مستوردة أو محلية من غزل ونسج الصوف وبالأخص للزي الرجالي. هنالك تداخل مع الأزياء القومية للشعوب المجاورة من العرب والفرس والترك، شأن الخصائص الثقافية الأخرى ومنها لهجات اللغة، تختلف عناصر الزي الكردي حسب الاختلاف الاقليمي والقبلي والديني، وتواكبها في ظاهرة التغير التي تمرّ بها الثقافة الكردية بصورة عامة.

**المجتمع الكردي:** شأنه شأن بقية شعوب المنطقة، يتكون المجتمع الكردي من طبقات اجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة. ان النظرة السائدة لدى الآخرين الى المجتمع الكردي انه مجتمع عشائري أو رعي —رحال. ان القبلية والعشائرية والاقليمية والطائفية لها تأثير حتى على الساحة السياسية الكردية، بدليل الاحداث المخزية في كردستان العراق في الآونة الأخيرة. تشكل هذه الظاهرة الاجتماعية السبب الرئيسي لتأخر الشعوب الجبلية في بلوغ الوحدة القومية، حسب تفسير بعض علماء الاجتماع. هذا ويرد البعض الآخر ذلك الى عدم مرور هذه الشعوب بمرحلة العبودية، مرحلة تشكيل الدول.

**الديانة:** منذ الفتوحات الاسلامية للعرب في القرن السابع بعد الميلاد، اعتنقت أكثرية الشعب الكردي الاسلام ديناً والسنة الشافعية مذهباً. ان الفيلية (اللور الصغير) تعتنق الشيعية مذهباً، شأنها شأن البختيارية (اللور الكبير). أما الكوران، فانهم يعتنقون مذهب أهل الحق (عليه الله) أو العلوية والتي تعتبر فرعاً من الشيعة. وهناك الطائفة اليزيدية التي تعتبر حركة صوفية عانت الى أصولها أو جذورها القومية. هذا وترجع بعض الطقوس الدينية المشتركة لهذه الطوائف الى الديانات القديمة، الزرادشتية الايرانية والمثرائية الهندية. ومن الحركات الصوفية المنتشرة في كردستان الشمالية، النقشبندية (...) والقادرية في كردستان الجنوبية (...). ونقطن في كردستان شعوب وجاتيات غير كردية، منها الآشوريون والكلدانيون والارمن المسيحيون، وكذلك اليهود. ومن الاقوام الأخرى التركمان الذين يشاركون الشعب الكردي في الديانة باختلاف مذاهبها وطوائفها منذ وصولهم الى كردستان قبل اقل من ألف عام وكذلك الامر بالنسبة للعرب منذ وصولهم الى كردستان قبل أكثر من ألف عام.

### المصادر الأخرى

١ — الثقافة الكردية والهوية القومية P. Kreyenbrook and C. Alison

٢ — كردستان والکرد. عبد الرحمن قاسملي.

## المعلوماتية المعاصرة والحرب

---

حسين دريد التكمحي

ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين، بعد عذاب طويل توصلت الانسانية الى حقيقة أن ما تستطيع تحقيقه يمكن أن يتحقق أفضل منه عن طريق المعرفة. وقد توسع مفهوم التكنولوجيا، ليشمل الى جانب الادوات والوسائل والعقول الالكترونية والروبوتاتية، كل شيء يضاعف قدرات الانسان لاختراق المكان والزمان وتنشيط الادارة والقوة. والانتقال من تكنولوجيا الى اخرى كثيراً ما يحدث تغييراً عميقاً في العلاقة التي.fnائها أو نسجناها عبر الزمن بين العناصر المختلفة داخل اي نظام، وهو ما يحتم تطوير القدرات الأخلاقية والقانونية والسياسية والمفهومية لاستقبال أي طارئ من شأنه أن يسبب الارباك والمشاكل غير المحسوبة. وهكذا ننظر من حولنا، فنرى أننا نعيش عصر المعلوماتية، بعد أن وُصفت عصور تاريخية للانسانية بتعوت مختلفة، كعصر الحديد أو عصر البخار أو عصر الذرة. لكننا نعيش، في ربع القرن الأخير على الأقل، عصرًا عالميًا جديدًا هو عصر المعلومات. وفيه تتوسع وتتعمق الانسيابية المعلوماتية لتحصل الشعوب على المعلومات المتاحة، وتزول العوائق على طريق نشرها واستخدامها على نحو رشيد. وقد تزايد حجم هذه المعلومات — العلمية والفنية خاصة — في العالم بنسبة ١٢٪ — ١٥٪ سنوياً، فيتضاعف كل ٥ أو ٦ سنوات. وهذا يؤكد أهمية انشاء المؤسسات والاجهزة والمنظومات الفنية والعلمية والسياسية الأكثر اكتمالاً لمعالجة وحفظ ونشر المعلومات وتنسيق الجهود على المستوى الدولي. أما غالبية



البلدان النامية، فهي محرومة فعلياً من الوصول الى هذه المعلومات بسبب ارتفاع تكلفتها، والاحتكار المعلوماتي متعدد الجنسية، وعدم توفر المراكز الوطنية للمعلومات. لقد أزاحت الثورة المعلوماتية المنظومات التقليدية القديمة في ادارة صراعات الوعيد والردع النوويين، لانها تحتاج أصلاً الى الكفاءة الادارية العالية والانظمة السياسية الحديثة والقدرات العلمية الهائلة لخوض الحرب التكنولوجية والحروب المعلوماتية العصرية. وفي مقدمة هذه المستلزمات الاقتصادية الوطنية القوية القدرة على تحمل أعباء هذه الصراعات. وبعد الهزائم اللوجستية للاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية تعمقت وازدادت ديناميكيا الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في هذه البلدان والعالم في سعي للانتظام على اسس جديدة، وظهور النظام العالمي الجديد والزعامة الامريكية والدور الياباني والالاماني.

يصنع الناس تاريخهم بأنفسهم ليس كما يرغبون، يصنعونه تحت ظروف لا يختارونها بأنفسهم. فهي مشروطة موضوعياً ومستقاة ومنقولة بأبداع من الماضي. وكان احتلال اكتشافات واختراعات المعالجة المعلوماتية والتكنولوجية المتقدمة في الاتصالات، موقعها خلف تلك المرتبطة أساساً بالبنى التحتية لهذه المجتمعات (كالطاقة وتطبيقاتها في الانتاج والنقل) الحافز للأزمة التحكيمية في عموم مجتمعات البلاد المتقدمة صناعياً، وقيام الثورة التحكيمية (Control Revolution) وباكورتها التكنولوجية الالكترونية والنووية، منذ ما يقارب المئة سنة... واستخدام الكمبيوتر والمعالجات المجهريه وتكنولوجيا البرمجة الجينية. ورسخ الانتقال المرن من الازمة التحكيمية، أواخر الثورة الصناعية، الى الثورة التحكيمية، نهاية القرن التاسع عشر، التطور الثابت والمستمر للمجتمعات الحضارية الحديثة والتي يطلق عليها بحق «المجتمعات المعلوماتية»، حيث التقدم الكبير في استخدامات الطاقة، وسرعة المعالجة والتحكم معاً، اللذان عمقا دورهما منافع تكنولوجيا التحكم (التغذية المرتدة Feed back، التغذية المؤثرة العكسية، التغذية المرتدة الايجابية، الاستقرارية) وهي بدورها أرسيت الموثوقية والتنبؤية في نشاطات التحكم، وتوسيع استخدام تقنيات التحكم وتكنولوجياتها. وقد وسعت الثورة التحكيمية من قابلية السيطرة على المواد والطاقة واستخداماتها في الانتاج والنقل والتوزيع والاستهلاك، وعمقت التناقضات في النظم الاجتماعية القائمة، عمودياً وافقياً، بأطوار ومظاهر مختلفة، منها الحاد ومنها الملطف. ومن أبرز المظاهر العصرية للثورة التحكيمية: ١- تزايد أهمية التكنولوجيا المعلوماتية. ب- النمو المتزن المضطرد

المتوازي للاقتصاد المعلوماتي والتحكم به عبر الدولة والقطاعات الاقتصادية الاخرى. ج — توسع القاعدة المنظمة لاساس التحكم وتطبيقاته في الهياكل الاجتماعية. د — تركّز وتمركز المعالجة والاتصال بالمعلومات. هـ — تصاعد نمو المعلوماتية في المعرفة والثقافة العصرية.

اصبحت المعلومات القاعدة المادية للاقتصادات الوطنية الحديثة. وهي لا تمتلك حدوداً وفواصل وطنية.. حيث يجري التطور في المجتمعات الحضارية عبر انتاج القيم المعلوماتية، وهي قيم مادية بالطبع. إلا أنها تختلف عن القيم المادية الاخرى التي ولدت المجتمعات الصناعية والزراعة القديمة. فالمعلومات هنا هي قلب الحاجات الاقتصادية للمجتمع، ويتطور الاقتصاد الوطني وينمو حول هذا القلب عبر انتاج ونقل واستخدام واستهلاك القيم المعلوماتية. وظهرت مفاهيم جديدة مثل الاقتصاد المعلوماتي المتمركز، أو اقتصاد المحور المعلوماتي (حيث تفوق المعلوماتية، هنا كنتاج اقتصادي، السلع التقليدية والطاقة والخدمات) والصناعة المعلوماتية، والادارة المعلوماتية والعصر المعلوماتي والغضاء المعلوماتي.. الخ، وتعنى المعلوماتية، كمفهوم مادي، بالعلائق والمستلزمات الشرطية بين الجسم والموضوع التي تسمح بالانتخاب والاختيار الفعال القادر على دفع الجسم على تطوير جانب من قيمته الاستعمالية. وقد أسهمت تكنولوجيا المعلومات المتقدمة في ترسيخ نمط جديد من الانتاجية كان له آثاراً اجتماعية أهّلته لاجراء التحولات الاجتماعية العميقة في مختلف البلدان، الرأسمالية والنماذج الاشتراكية القائمة.

إن احدى أهم مظاهر مازق الرأسمالية استغلال تراجع التجارب الاشتراكية وفشل بعضها، لتثبت أنها الخيار الوحيد امام البشرية. لكن التجربة العملية تؤكد تقاوم الازمة البنوية الشاملة للرأسمالية وعجزها، رغم نجاحات التكيف والتجديد، عن القضاء على الازمات الدورية والمقتالية.. كما أن فشل تجربة ما، أو نموذج، لا يلغي ويسقط القيمة المضمونية، بل العكس هو السليم. فمضمون الاشتراكية الانساني والديمقراطي ملهم للشعوب من أجل المستقبل الأفضل. لقد تفوق السوفييت في انتاج الفولاذ والكونكريت والنفط والكثير من المواد الاساسية الاخرى خلال الثمانينات إلا أن المواد الالكترونية و السلع الاتصالات الحديثة قد تحدد دخولها الى الاراضي السوفيتية وكانت تحت اشراف أعلى الجهات الأمنية. كما منعت من النشر والانتشار أجهزة الاستنساخ والفاكس والكمبيوتر الشخصي (PC)، والمعدات الالكترونية الخاصة بالمؤسسات والخرائط

العلمية والتقنية والاحصائيات الديموغرافية الدقيقة. لقد أحكمت المراتب العليا في القيادة السوفيتية، وبأشراف ضيق جداً، تسيير معابر السيل المعلوماتي الجديدة بأراضيها. وكان رفع القيود على التحكم المعلوماتي الفرس الجامعة في البيريسترويكا، لكن الخلل في السيطرة على الحلقات التحكيمية الرئيسية أدى إلى تدمير حزب السلطة وزعزعة الدولة.. وقبعت المعلومات كثمرة محظورة في كل زاوية وفي عقول الجميع بالنصف الثاني من الثمانينات، وتدفقت إلى البلاد معدات الاناعتين المسموعة والمرئية الحديثة والبعد الوسائطي (المليتميديا multimedia). لقد انتج الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٧ من الفولاذ، ضعف انتاج الولايات المتحدة، إلا أنه لم يمتلك في هذا العام سوى مائتي ألف جهاز ميكرو كمبيوتر (كمبيوتر شخصي) مقارنة مع ٢٥ مليون جهاز في الولايات المتحدة.

لقد أدرج ستالين، رغم مأثره، وبجرّة قلم السيرنتيك ضمن الخدع البرجوازية والعلوم الكاذبة ولم تتل الاهتمام اللازم ابداعات العالم الاميركي (نوربوت فينر)، الذي كتب آنذاك: «تعتبر المعلومات مادة للمعالجة أكثر من كونها مادة للخنز»، وكان هذا الموقف أيضاً من العالم (فرويد) ونتاجاته في علم النفس. أما العلماء السوفييت الذين فسروا الاتجاهات العلمية الجديدة، وبرّروها على الأقل، فقد زجوا في السجون ومعسكرات العمل مثلما حصل مع عالم الفيزياء الفلكية (غرونيدليوبارسكي) الذي اتهم بالدعاية المعادية للسوفييت. ولم يكرر ليوبارسكي ما سماه فينر في حينه، بالثورة الصناعية الثانية (ظهور الكمبيوتر)، بل سماها هو «ثورة العلم والتكنولوجيا» وقد كتب «أرنست نيزفيسنتي» وهو ضابط كبير في أجهزة الأمن بالاتحاد السوفييتي عن نوربرت فيز في الستينات «أنه تماماً على حق عندما يذكر في كتابه — السيرنتيكا والمجتمع — أنه بدون التغذية المرتدة لا يمكن للمجتمع ان يحيا.. ولكن قد أخطأ جداً عندما فكر أن مجتمعنا يفقد التغذية المرتدة. فنحن نمتلكها لأن أجهزة أمن الدولة هي نمط من التغذية المرتدة. وفي بلادنا ترسل هذه الاجهزة مختلف التقارير الى القيادة عن الاوضاع الحقيقية في البلاد»<sup>(١)</sup>. وهكذا ظل النشر المعلوماتي جريمة يحاسب عليها القانون السوفييتي طيلة نصف قرن من الزمن سادت فيه الليسنكوية (نسبة الى مدرسة ليسنكو استاذ البيولوجيا في زمن ستالين وخروشوف ومؤدلج إكاديمية العلوم في موسكو) اساليب بيريا (قائد أجهزة الأمن السري زمن ستالين).

يؤكد الاستاذ الاميركي (ليوماركس) على ان التكنولوجيا المتطورة المحسنة تعني تقدماً... شرط معرفتنا آفاق التطور والخطوات اللاحقة. فهي تقدم باتجاه ماذا؟<sup>(٢)</sup>. لقد

ظهرت في الولايات المتحدة وأوروبا المدارس الفلسفية المتعددة التي تخدم كل منها مصالح طبقات وفئات اجتماعية معينة في تفسير العلاقة ما بين التكنولوجيا والعصرية المتقدمة والمعلوماتية الحديثة والتقدم الاجتماعي اقتصادي. وأهمها مدارس بنجامين فرانكلين، توماس جيفرسون، دانييل ويبز، إدوارد إيغريت، هنري آدمز، تورستاين فيلين، أندرو كارنيجي، توماس اديسون، فريدريك تايلر، وتوماس كارليل.. وتوزع أصحابها ما بين المدرستين الفلسفتين الأساسيتين المادية والمثالية. والماديون منهم ما بين الميتافيزيقية والميكانيكية والجدلية.

لقد طبعت الثورتان التحكيمية والمعلوماتية والثورة العلمية التكنولوجية العالم بسماتها، ولدت الأوجه الكارثية للتكنولوجيا الحديثة مثل: هيروشيميا والرعب النووي والخراب والدمار البيئي في العالم الصناعي المتقدم، الحوادث العرضية الخطيرة والانهايارات المفاجئة (مثل حوادث المحطة النووية في ولاية بنسلفانيا سنة ١٩٧٩، ومحطة تشرنوبل السوفيتية المعروفة سنة ١٩٨٦) .. ان الموت والدمار اللذين ميزا تاريخ هذا القرن (حربان عالميتان بربريتان، هلوسة نازية، رعب ستاليني، سباق التسلح النووي، الدكتاتوريات الفاشية، جنون حربي الخليج، الحروب الاهلية في أوروبا...) قد أدبا الى نشوء الحركة الاجتماعية المعادية للتكنولوجيا وقاعدتها الاجتماعية: الحركات المعادية لنشر السلاح النووي، الحركات المناضلة من أجل البيئة والمدافعة عن سلامة الطبيعة والتوازن البيئي، الحركات الاجتماعية النسائية التقدمية.. كما ولدت مرحلة جديدة في انتاج التكنولوجيات البديلة العصرية وتكنولوجيا سبل الطاقة المرنة.

وتطلب الآن ارتفاع سرعة وحجم وتعقيد العمليات الصناعية والنظم التكنولوجية في العالم تطوير اساليب جديدة في التحكم الذي يضمن بدوره تطوير تقنية وتكنولوجيا الجوانب المتعددة للمعالجة المعلوماتية والاتصالات الحديثة. وقد أمنت الاجهزة الادارية، والتلغراف، والاوراق النقدية، والكمبيوتر التحكم المطلوب. ولم يشهد المجتمع المعلوماتي التغيرات المفاجئة الأنثروبولوجية إلا عبر التصاعد المضطرب التدريجي في سرعة المعالجة المادية وقنوات تصريف الاقتصاديات الوطنية منذ أكثر من قرن. وكان تقدم التصنيع في القرن التاسع عشر وازمات التحكم ومعهدهات الثورة التحكيمية والتطور المستمر للمجتمعات المعلوماتية والمرحلة المتقدمة في الاتصالات عن بعد، هذا التقدم مسؤول بالواقع عن التغيرات الاجتماعية الاقتصادية الاخيرة، وظهور النظام العالمي الجديد ومجتمعات ما بعد الاشتراكية القائمة! والدول الصناعية الحديثة القائمة على تعزيز

التحكم الشمولي، والاعلام الجماهيري الحديث المكثف. اما العقل الصناعي (اي الروبوت) فقد أفرز فسيقساء حقائق معقدة في نهاية قرننا الحالي، تعكس التناقض الفسيح لعالمنا المعاصر.

لقد انتقل التاريخ العالمي الى مستوى جديد أثر فشل نماذج الاشتراكية القائمة والاختلال الحاصل بين قوى وعناصر ومكونات العملية الاجتماعية الاقتصادية... بينما تستمر الثورة العلمية التكنولوجية في سيرها جارفة جميع الاتجاهات والمظاهر البالية والرجعية ومعززة مجتمع الانتاج وخاصة الاختراعات والتحسينات التكنيكية. وتصل انتاجية العمل الى درجات تتدفق فيها الخيرات المادية ويتحقق فيض الانتاج والعمل عبر المجازفة والمباراة والمبادرة الجريئة، اي الديمقراطية بأوسع مفاهيمها على صعيد الانتاج وعلى الصعيد الجماهيري المحلي وعلى صعيد الدولة. وتعتبر الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج الشرط الأمثل للتقدم العلمي والتكنولوجي حيث تربط المعلوماتية المعاصرة ميادين التصميم والانتاج والتسويق بعضها مع بعض وبأوثق الاواصر مسببة التغيرات في بنية الانتاج، جاعلة اياه أشد سرعة وأكثر مرونة، ومعجلة التغيرات البنوية الواسعة العميقة في الاقتصاد. ويظهر جلياً دور الثورة العلمية التكنولوجية في نقل قوة العمل الاساسية الى ميدان المعلوماتية والخدمات لتصبح هذه القوة مزيجاً من القوى الاجتماعية التي تضم طاقة المجتمع الذهنية والعلم. ويتولد طراز جديد من العاملين في عموم الانتاج. أما الاحتكارات العالمية فتسعى الى تجنيد منجزات الثورة العلمية التكنولوجية في خدمتها دوماً لتخفيف تازم اقتصادها الرأسمالي ولتكييف جهازها الانتاجي مع المتطلبات الجديدة وتعميق التبعية التقنية والتكنولوجية للبلدان النامية.

تتصف الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة بتحول العلم الى قوة انتاجية مباشرة وسيادة المكننة والامتة الانتاجية، وتمركز الانتاج وتعمق تعاونونه وتآلف فروعه الانتاجية. وقد زودت الثورة العلمية التكنولوجية المصممين لا بالمواد التي يمكن الحصول عليها بل بالمواد التي يطلبونها، ومهدت السبيل لاحتلال عصر الاختيار غير المحدود. اما المعلوماتية الحديثة فقد وفرت امكانية التجريب والتحقق المسبق من مختلف المبادرات وجعلت من الثورة العلمية التكنولوجية الشريك والحليف الأهم للثورة الاجتماعية، وعززت من فهم جدل تجديد العالم وجدل المكتسبات الاجتماعية والعلمية التقنية. ونبتت الجمود والبيروقراطية التي رفضت يوماً ما السيبرنتيكا والبيوتكا وعلوم الهندسة الوراثية، الأمر الذي الحق ضرراً كبيراً بالفكرة الاشتراكية نفسها وتطويرها.

وتصبح جميع النماذج الاجتماعية الاقتصادية ذات الطابع الجامد والبيروقراطي عائقاً أمام تطور الثورة العلمية التكنولوجية وحتى اللحاق بركبها.

لقد جعلت الثورتان العلمية التكنولوجية والمعلوماتية الحرب انتحاراً للبشرية ويؤدي استخدامها على نطاق ضيق، في حروب مجنونة، الى الدمار والخراب الكبيرين بفترات وجيزة دون تقديم الخسائر بالأرواح، من قبل القوى المهاجمة، ودون الحاجة الى الجيوش الجرارة والكفاءة القتالية للمهاجمين ولا حتى الى الشجاعة والاقدام. وقد حولت التكنولوجيا الحديثة الحرب الى ما يشبه لعب الأطفال! فالأنظمة الخبيرة ومعدات الذكاء الاصطناعي والشبكات العصبية وأشعة الليزر والروبوت والسوبر كومبيوتر والكاميرات الحساسة في التعدد الوسائطي الملتيميدي تحدد الهدف وتحوله الى أثر بعد عين في لحظات. كما أن النموذجية العصرية السيرينغية والمخططات الخوارزمية ومعدات الاتصال عن بعد وتطور العلوم النظرية والتطبيقية والمنطق العشوائي (Fuzzy Logic) والاحتماليات تجعل من تنفيذ البروفات الكاملة للحروب قبل موعدها بفترات زمنية مناسبة من المهمات السهلة.

ويملك البنتاغون نطاقاً واسعاً من الخطط لتثوير ميدان المعارك بتكنولوجيا المعلومات بالمدى عينه الذي أدى الى ادخال الدبابات في الحرب العالمية الاولى أو القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية. فسيناريو الحرب المعلوماتية جاهز لو شكل أي حاكم تهديداً لأي حليف لأميركا في أي منطقة من العالم. فأميركا لن ترسل فرقاً عسكرية أو أساطيل حربية، بل بدلاً من ذلك تصب على المهاجم سلسلة من اللعنات المستحدثة التي تولدها فارة الكومبيوتر وشاشات الفيديو ولوحات التحكم فتخلق البيئات الملتيميدي الوهمية. أما دس الفيروسات الكمبيوترية في محطات الاتصالات الهاتفية، وصب القنابل الذكية المزودة بتقنية التوجيه عالي الدقة لتدمير مقرات التحكم الالكتروني الرئيسية فهي الشرارات الاولى في الحروب المعلوماتية. فيتلقى القادة الميدانيون أوامر مزيفة من أجهزة الراديو. وتشوش العربات الجوية الحديثة البث التلفزيوني، ويجري شن الحرب النفسية. وتقوم القنبلة المنطقية بمسح البيانات الخاصة والسرية في شبكات الدفاع والبنوك. كل ذلك يجري دون اطلاق رصاصة واحدة. اما التكنولوجيا الحديثة الأكثر تقدماً، فاستهدفت تدمير وحرق المكونات الالكترونية في المباني دون العاملين، تكنولوجيا حربية «مسالمة»، والاستخدام المكثف لمعدات جمع المعلومات الاستخباراتية لاسيما أجهزة التجسس الحراري البيولوجي.

ان التحدي الامني الرئيسي في هذا القرن، وربما في القرن المقبل، سيحمل عنوان «الحرب المعلوماتية». وهي شكل متطور للحرب النفسية التقليدية التي شنتها الدوائر الامبريالية طيلة سني الحرب الباردة. فهي نظام متقدم من نمط جديد للتأثيرات العقائدية على وعي الناس وعبر المجالات السايكولوجية — الاجتماعية. وتهدف من خلال الاحباط الروحي والتخريب ونشر الدعايات والتلفيق والتضليل والتهديد وعرض القوة العسكرية الى الضغط على الجهة المقصودة بالطريقة التي تجبرها على القيام بخطوات غير متزنة وغير مدروسة او مخططة فتضعف قدراتها النفسية — الروحية والمادية.

ومع الثورة المعلوماتية والعصر المعلوماتي ونمو التبادل العلمي التقني والثقافي بين الدول، تتوفر ظروف ملائمة أكثر إما للحرب النفسية الحديثة، الحرب المعلوماتية والتعظيم المعلوماتي والارهاب المعلوماتي، وإما للاستخدام السلمي للمعلومات الذي يسهم في نضال الشعوب العادل من أجل العدالة والسلام والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، وتستهدف استراتيجيات وتكتيك الحرب النفسية خلق امكانيات التفوق المستمر على الخصم. وهنا يبرز التحكم في توجيه الحالة النفسية للناس عن طريق الهامهم بأفكار معينة تنسجم مع سياسة النظام المعني. ويكون هذا التحكم عادة في البلاد الرأسمالية على هيئة خداع وتضليل وغش وتحايل وسرقة وتلفيق وضغط مقترن بالوعيد الملطف (ترغيب وترهيب). وتستخدم الحرب النفسية التشهير والخداع والتخوين والاشاعة وتزوير الحقائق والصاق التهم وخلق الاوهام وسرقة الشعارات والاستفزاز والانفعال والهلع النفسي في مظاهر متطورة تنسجم مع سيناريوهات الحروب المعلوماتية العصرية. وقد كان تزويد الدول المتحاربة بالمعلومات الاستخباراتية والاستراتيجية ميدان تنافس بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي. فالحرب المعلوماتية مفهوم ليس جديداً بل هو مرادف لكل الحروب التقليدية وشرط ضروري لتحقيق رجحان الكفة في موازين القوى الدولية والاقليمية طيلة التاريخ البشري. وقد اكتسبت مضموناً جديداً في دخول عصر المعلوماتية والثورة المعلوماتية. ومن المعروف اهمية توفر عدة عوامل تحدد الشروط الاجتماعية والسايكولوجية لتأثير المعلومات، منها على سبيل المثال: درجة الثقة تجاه المعلومات المعينة، ظواهر الانتقاء الاصطفائي ومساوئ فهم بعض الوسائل المعلوماتية، شبكة العلاقات الخاصة والشخصية والعامة التي ينتمي لها الأفراد والمجموعات، شكل المعلومات أو الرسائل المعلوماتية.

ان المعلوماتية الحديثة واختراعات التقنية المعاصرة ذات القوة التدميرية يمكن ان تشكل خطراً هائلاً إذا لم تكن تحت اشراف اناس ذوي ضمير وشعور بالمسؤولية وذوي ثقافة أيضاً. وهنا يجب وضع حد لسلخ السياسة عن قواعد الاخلاق الانسانية العامة، وتصفية الاغتراب بين الممارسة السياسية والاخلاق العامة، وتجسيد الواقعية والعقلانية الحقبة لمجاراة الأوضاع الخارقة الناشئة لأول مرة في التاريخ، وبالمعلوماتية المعاصرة والتبادل المعلوماتي المتعدد الجوانب والاتجاهات وتعاضم السيولة المعلوماتية يمكن ان تتحول البشرية الى اسيرة عالمية واحدة مجهزة بكل مستلزمات تطوير الحضارة. فالعالم اليوم مقعم بالآمال ومثقل بالمخاطر والتناقضات فهو يعيش اكثر الفترات التاريخية قللاً.

يقول الاستاذ بينجامين دزرايلي «ان الفرد الاكثر نجاحاً هو الذي يمتلك اكبر قدر من المعلوماتية، ونحن نضيف: واكثرها دقة وتركيزاً واكتمالاً. فصناعة التكنولوجيا المعلوماتية تحتل اليوم قلب الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة، وهي تشمل انتاج ومعالجة ونقل وتخزين وتوزيع واستخدام واستهلاك المعلومات. وتمخض تطور أكبر الصناعات في العالم عن التطور السريع للتكنولوجيا المعلوماتية، لاسيما تكنولوجيا الحافآت القاطعة او الحادة (Cutting-Edge)، التي تشمل معدات الكمبيوتر، حزم البرمجيات (السوفت وير)، معدات الذكاء الاصطناعي، الانظمة الخبيرة، الشبكات العصبية، الترانسبيوتر، الفايبر البصري، معدات الاتصال عن بعد... الخ. وأساس هذه المعدات جميعها الحاسوب او الكمبيوتر. ويعتقد الاستاذ ايسيو سونوب «ان التطور العلمي التكنولوجي منذ القرن الثامن عشر وحتى الآن، قد استكمل ثورته الصناعية الثالثة». فقد بدأت الثورة الصناعية الاولى مع اختراع الماكينة البخارية سنة ١٧٧٦ من قبل جيمس واط. وانطلقت الثورة الصناعية الثانية حوالي عام ١٨٧٠ مع اكتشاف الكهرباء ونشوء امكانية تحويله الى أشكال اخرى للطاقة. وتعتبر تكنولوجيا معالجة المعلومات عنوان الثورة الصناعية الثالثة وأساس انتاج الكمبيوتر.

### **الكمبيوتر والانسان:**

ان الكمبيوتر وسيلة معرفة عالمنا المعاصر المحيط، وتعلم وعمل وتربية حقيقية فعالة، إلا أنه ليس لعبة. ولم تصبح هذه المعدات مؤخراً أداة للتسلية واللعب فقط، بل وسيلة معلومات بهلوانية لتحقيق بعض الرغبات الخاصة والمطامع البراغمية.



والحقيقة أنه لا توجد قيمة لما يعمل كل من الكمبيوتر والانسان كل على حدة بالمقارنة مع تفاعلها معاً لتأدية أعمال أفضل وأسرع. فالبرمجة الكمبيوترية تحويل فعال للحقيقة الخاصة الى حقيقة للصالح العام. ولا يقوم الكمبيوتر بتنفيذ ارادة الانسان بشكل اعمى فقط، ولا يخزن المعلومات فقط، بل يدخل في اعتباره أيضاً التغيرات الحاصلة في الظروف والشروط والمتغيرات والعوامل. كما يتعلم الكمبيوتر أثناء تأدية عمله بحيث لا يكرر أخطاءه. وقد مضت خمسة عقود على ظهور كمبيوتر «فون بنومان» سنة ١٩٤٥، وهو أول كمبيوتر رقمي يعتمد على الصمامات أساساً في تركيبه. وشهد عام ١٩٥٥ ظهور أول كمبيوتر قائم على عمل الترانسسستور. ومنذ سنة ١٩٥٨، تأريخ ميلاد الدائرة التكاملية على يد المهندس الشاب (جاك كيلبي) كان عدد الترانسسسترات يتضاعف في الرقبة الواحدة كل سنة تقريباً. وبلغت التكنولوجيا الالكترونية من الدقة بحيث أمكن زراعة أكثر من مليون ترانسستور في الرقبة الواحدة. ومع ظهور المعالجات المجهرية (Microprocessors) سنة ١٩٧١، تطور التكامل الرقائقي من الوحدات الصلدة الى التكامل الصغير والمتوسط (١٠٠ وحدة في الرقبة) والتكامل الكبير (١٠٠٠ وحدة في الرقبة) والكبير جداً (أكثر من مليون وحدة في الرقبة). وتشمل تكنولوجيا التكامل اليوم حجوماً أقل من مايكرون في الرقبة الواحدة، وهذا يعادل عدد كريات الدم الحمراء في الانسان أو خلايا البكتريا الصغيرة. وهذا يعكس بالطبع سرعة المعالجة والكفاءة العالية للوحدات وتعدد التراكيب المجهرية المعمارية. واستخدمت تكنولوجيا التكامل في صناعة الكمبيوتر الحديث. وتنقذها اليوم ملايين التعليمات في الثانية الواحدة في السوبركمبيوتر. فكمبيوتر (كواي) قادر على تنفيذ (٢٠٠-٢٤٠ مليون) عملية في الثانية الواحدة. كما تطورات هندسة البرامجيات فظهرت منها التي تستخدم أكثر من لغة عالية المستوى. وقد برزت احتكارات الكمبيوتر في الخمسينات لتستحوذ على (٨٤٪) من الانتاج العالمي سنة ١٩٦٢، و (٩١٪) سنة ١٩٦٧. وقد تخلف السوفييت في انتاج السوبركمبيوتر الذي تضاعف انتاجه في الولايات المتحدة فقط ٣٧ مرة من سنة ١٩٦٥ وحتى سنة ١٩٧٠ (...).

### الهوامش

- (١) راجع سكوت شان، اليوتوبيا اللامعقولة: كيف أنهت المعلوماتية الاتحاد السوفييتي — شيكاغو ١٩٩٤.
- (٢) ليو ماركس: وهل التكنولوجيا المحسنة تعني تطوراً، American Technological Review عدد ٧١، سنة ١٩٨٧.

## بدايات الاعتزال الكلامية والفلسفية

د. رشيد البندر

ما زال الاعتزال يلفت أنظار التواقين الى حرية الفكر والإستخدام الأمثل للعقل، والتحرر من أسر النص، فالاعتزال يمتلك رؤية حيوية حول الوجود كطبيعة وانسان، وعلاقتها بالله، رؤية تمكن الانسان، الى حد ما، من حرية التصرف في شأنه الإجتماعي، ومن التأثير الواعي على الطبيعة لمصلحته. حاول المعتزلة في مختلف مراحلهم الكلامية والفلسفية تأكيد مسؤولية الانسان عن أفعاله، ومن البديهي أن يقود هذا الى تفعيل دور العقل في تنظيم الحياة الاجتماعية والتأثير في الطبيعة، ويبرر أحد رموز الإعتزال البغداديين، القاضي عماد الدين عبد الجبار، في كتابه «طبقات المعتزلة» اعتبار العقل الأصل الأول في الإيمان والحياة حتى قبل القرآن والسنة النبوية بقوله: «لأن به يميز بين الحسن والقيبح، ولأن به يعرف الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يُعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب». وقد عبّر شيوخ الإعتزال الآخرون عن هذا الأمر بمبدأ «الفكر قبل ورود السمع»، والمقصود بورود السمع هو النص المنقول كخبر أو رواية. وفي هذا المجال طرح المعتزلة أفكاراً بالغة الأهمية تجلت في رؤيتهم الخاصة للعقل كواسطة بين الله والانسان، ورؤيتهم لطبائع الاشياء وقوانين وجودها وتطورها كواسطة بين الله

والطبيعية، ويفهم من هذه الأفكار أن المعتزلة مالوا إلى القول بتدخل الله في الكون — بعد خلقه — من خلال تلك الوسائط. فالناس يحددون حياتهم الاجتماعية كنظام اجتماعي وسياسي، وهذا يتطلب تحريرهم من سطوة القدر. أما الطبيعة فتحدد أشياءها من خلال ما ترك الله فيها من طبائع.

وهذه الأفكار كلامية وفلسفية مثيرة في زمنها وربما في الزمن الحالي أيضاً، مع ذلك حاول مؤرخون عديدون أن يعطوا الإعتزال أبعاداً سياسية بحتة، بدءاً من ربط وجود الإعتزال كفكر وفلسفة بالذين اعتزلوا الخلافات في السلطة الإسلامية بين المركز و «المتمردين» سواء كان ذلك في معركة الجمل أو معركة صفين، فتسمية معتزلة إشتقت من العزلة. وبالمعنى بعض المؤرخين في الدور السياسي الثوري للمعتزلة في مواجهة السلطة الأموية ثم العباسية. كذلك بالغ المؤرخون المحابون في اعتبار المعتزلة حماة الدين ضد فرق إسلامية وديانات وفلسفات مانوية (ديانة عراقية) وإيرانية وهندية ويونانية، إنطلاقاً من فلسفة التوحيد المعتزلي الخاصة بتنزيه الذات الإلهية من كل الصفات، ومن إشغالهم لموقع فكري كادت تلك الديانات والفلسفات أن تحتله. وبذلك عدوا كمجسدين للدين الإسلامي وتخليصه من غلاة ومشركين. والظاهر أن هذه الآراء وغيرها من التي نسبها المؤرخون والباحثون إلى المعتزلة، إنما أتت كمحاولات في الدفاع عنهم ضد ما نسب لهم في التاريخ المللي والنحلي من مثالب وكفريات، لكن تلك المحاولات غطت على الجوهر الفلسفي للإعتزال في النظر للإنسان ككائن حر مسؤول عن أفعاله، والنظر إلى الكون كظواهر محددة بعلاقات وقوانين. أما مؤرخو الملل والنحل من المعتزلة فقد ذهبوا في الدفاع إلى حد الزعم أن الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز وأبناء وأحفاد علي بن أبي طالب وصلحاء الصحابة والتابعين كانوا من طبقات المعتزلة. وبذلك اسأوا كثيراً لمصداقية الرواية التاريخية حول الإعتزال. وكان المؤمل أن يرجع الباحثون إلى مؤلفات هؤلاء ليجدوا الحقيقة بعد أن أمتلا التاريخ المللي والنحلي بالأغاليط ضد المعتزلة وغيرهم من مخالفي المذهب الرسمي.

وملخص القول أن المحاولات، القديمة منها والحديثة، في الدفاع عن المعتزلة كانت بعيدة عن مسار الإعتزال التاريخي وعلاقته بتاريخ الفكر العراقي. فالإسلام كان في كل مكان، ولكن لماذا يظهر المعتزلة وإخوان الصفا بالبصرة وبغداد دون غيرهما؟ إن الطريقة التي كتب فيها تاريخ المعتزلة والفرق الفكرية الفلسفية، على اعتبار أنها منجزات عربية فقط، وهي نفس الطريقة التي كُتب فيها تاريخ المدن والحوضر العراقية، ببغداد

نسبت إلى أبي جعفر المنصور، والبصرة نسبت إلى عتبة بن غزوان، والكوفة نسبت إلى سعد بن أبي وقاص، الذين شيّدوا عدداً من المساجد والمعسكرات لمواصلّة الفتح، بأحجار الزقورات والمعابد والسدود.

حقيقة المعتزلة أنهم جماعة عراقية أظهروا دعوتهم في البداية بالبصرة ثم تأسس فرع لهم ببغداد في بداية القرن السابع الميلادي (أو الثاني الهجري)، ووردت تسميتهم من خصومهم، لكنهم وافقوا عليها وباركوها. ويقول قاضي القضاة عماد الدين عبد الجبار في كتابه «المجموع في المحيط بالتكليف» عن ملابسات تسمية المعتزلة: «إنما تسمينا بالعدل والتوحيد، لأننا أثبتناه تعالى واحداً عدلاً، وأن التسمية في الاعتزال مدح بالآيات التي في القرآن، وأن السبب في التسمية بهذا الاسم هو إعتزال عمرو (ابن عبيد الباب) وخلعه الحسن (البصري)، لوحشة لحقته من قتادة (السدوسي) وهو أعمى ورث رئاسة حلقة الحسن بعد وفاته)، فقال قتادة أصبح عمرو معتزلياً». وفي قناعتهم بهذا اللقب أو هذه التسمية يقول وزير المأمون ابن يزيد في كتابه المصابيح: «أن كل أرباب المذاهب نفوا عن أنفسهم الألقاب إلا المعتزلة، فانهم تبجحوا به، وجعلوا ذلك علماً لمن يتمسك بالعدل والتوحيد، وأحتج في ذلك أنه تعالى ما ذكره إلا في الإعتزال من الشر». كان روادهم الأوائل من البصريين: وأصل بن عطاء الغزال، عمرو بن عبيد الباب، عثمان الطويل، أبو الهذيل العلاف، إبراهيم بن سيار النظام، ومعمّر بن عباد السلمي، بشار بن برد، ابن الراوندي، ضرار بن عمرو، أبو الحسن إسماعيل الأشعري (قبل خروجهم — الأربعة — من الاعتزال)، وغيرهم. أما البغداديون فمنهم: بشر بن المعتمر الهلالي، ثمامة بن أشرس النميري، عبد الرحيم الخياط، أبو القاسم الكعبي (البلخي) وآخرون. كان وأصل بن عطاء على صلة بالحسن البصري الذي ينحدر من دست ميسان (العمارة) وكانت هذه الصلة صلة المريد بالشيخ أو التلميذ بالإستاذ، فالحسن كان صاحب حلقة دراسية في مسجد البصرة، يتحلق حوله عدد من الزهاد والمنقطعين إلى العلوم الدينية، وكانت هذه الحلقة بعيدة عن السياسة، فشيخها كان خائفاً من الحجاج بن يوسف الثقفي طيلة ولاية الأخير على العراق، والتي استمرت عشرين عاماً، وكانت فترة مرعبة بالنسبة لهذا الشيخ والعراقيين كافة. ورغم هذا الإنزواء عن السياسة والخوف فإن الحجاج قال عنه: «غلبنني علجٌ تواريه أخصاص (بيوت القصص) البصرة»، ولا ندرى بأي شيء غلب الحسن البصري الحجاج الرهيب؟ ربما بصبره عليه! لقد تناقست على ورائة أسم الحسن البصري وتراثه الفقهي مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية في زمانه وبعده.

حتى المسيحيون كانوا يعدونه من الرهبان المباركين، وعدَّ البعض الزاهدة رابعة العدوية من مريديه، وتخيلَ أنهما كانا يصليان معاً على سجادة تطوف فوق ماء الفرات. وذهب بعض المتصوفة إلى حد اعتبار الحسن البصري سلفاً لهم.

حاول بعض المؤرخين نسب الإعتزال للحسن البصري، فقد عدَّه مؤرخو الملل والنحل المعتزليون من طبقة الإعتزال الثالثة، والحقيقة أن الإعتزال ظهر خلاف رغبته، فقد إنقسمت حلقاته وإنصرف العديد من مريديه عنه ليلتقوا حول واصل بن عطاء الذي كثر الاتباع حوله. بعد أن جاهر الإعتزال بإعلان مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» (صاحب الذنب الكبير وسط بين منزلتي الإيمان والكفر، على أساس أن الإيمان ثابت والكفر زائل). وكان إعلانه لهذا المبدأ خلافاً لقول الخوارج في المذنب بأنه كافر، وكذلك خلافاً لقول المرجئة أنه مؤمن. والموقف من أصحاب الكبائر ليس موقفاً فقهياً عادياً، كما يتصور البعض، بل موقف سياسي خطير لأنه يتعلق بالموقف من أهل السلطة، وهذا هو بيت القصيد من تحديد الموقف والإختلاف عليه. وقد جاء موقف المعتزلة وسطاً بين الخوارج وحسبهم والمرجئة وتأجيلهم للعقاب. أما موقف الحسن البصري من هذه المسألة فهو القول بأن صاحب الكبيرة منافق، بمعنى أنه مؤمن. فكثير من المنافقين كانوا يعيشون حياة طبيعية كمسلمين في زمن النبي وبعده.

في مناظرة جمعت بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في مجلس الحسن البصري أكد واصل مبدأه الجديد «المنزلة بين المنزلتين»، ويروي المرتضى في «الأمالي» تفاصيل هذه المناظرة بالرواية الآتية: «جلس واصل في الحلقة وسئل أن يكلم عمرو، فقال واصل لعمرو: لم قلت أن من أتى كبيرة من أهل الصلاة إستحق أسم النفاق (حسب قول الحسن البصري)؟ فقال عمرو: لقول الله تعالى: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة، أولئك هم الفاسقون»، ثم قال في موضع آخر: «والمنافقون هم الفاسقون» فكان كل فاسق منافقاً، إذ كان ألف ولام المعرفة موجودتين في الفاسق، فقال له واصل: أليس وجدت الله تعالى يقول: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» وأجمع أهل العلم أن صاحب الكبيرة يستحق أسم ظالم، كما يستحق أسم فاسق، فالأ كبرت صاحب الكبيرة من أهل الصلاة بقوله تعالى: «والكافرون هم الظالمون» كما قال في القائف: «أولئك هم الفاسقون»، فأمسك عمرو، ثم قال له واصل: يا أبا عثمان إنما أولى أن يستعمل في أسماء المحدثين من أمتنا ما أتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة، أو ما أختلف فيه؟ فقال عمرو: بل ما أتفقوا عليه أولى،

فقال له واصل: الست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً، ويختلفون في ماعدا ذلك من أسمائه، لأن الخوارج تسميه مشركاً فاسقاً، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً، والحسن (البصري) يسميه منافقاً فاسقاً، فأجمعوا على تسميته بالفسق وأختلفوا في ماعدا ذلك من أسمائه، فالواجب أن يسمى بالاسم الذي اتفق عليه وهو الفسق، لإتفاق المختلفين عليه... فيكون صاحب الكبيرة فاسقاً، ولا يقال انه مؤمن ولا منافق ولا مشرك ولا كافر نعمة. فالفسق في مفهوم واصل هو المعني في مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» وبعد إنتهاء المناظرة التي إنتصر فيها واصل، وقف عمرو أمام الحاضرين قائلاً له: ما بيني وبين الحق من عداوة، والقول قولك، فليشهد عليّ من حضر إنني تارك المذهب الذي كنت إليه من نفاق صاحب الكبيرة من أهل الصلاة، قائل بقول أبي حنيفة (واصل) في ذلك، وإنني أعتزلت مذهب الحسن (البصري) في هذا الباب. وبعد إنقطاع عمرو بن عبيد في التناظر أمام واصل بن عطاء، أعلن إنتماؤه الى الإعتزال، ليصبح قطباً من أقطابه، ثم رئيساً للمذهب بعد وفاة واصل (١٢١ هـ) بطاعون أصاب البصرة. فقد جرت العادة أن يتجرد المنقطع في المناظرة عن رأيه السابق، ويتبنى رأي قاطعه باتفاق مسبق أو بدونه، وعن جدارة المعتزله في التناظر والجدل يقول صاحب بن عباد: تمكن من الشوق غير مسامح / كمعتزلي تمكن من خصم.

هكذا أعلن عن تأسيس الإعتزال كمذهب فكري من خلال طرح مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» في زاوية من زوايا مسجد البصرة، بعد إستكمال مستلزمات ذلك، وسط مذاهب متعددة من شيعة ومرجئة وخوارج وإباضية وجبرية وقدرية ومفكرين محايدين. لقد شيد المعتزلة كيانهم الفكري على ثراث تيارين معروفين، هما: نفاة القدر ومثبتي القدر من القائلين بنفي الصفات (تنزيه الله من ما تتصف به مخلوقاته أي ليس مثله شيء). وخلق القرآن (القرآن ليس كلام الله بل مخلوقاً من مخلوقاته)، ونفي القدر ونفي الصفات عن الذات الإلهية وهي الأساسية في الإعتزال، وعليها تعتمد مقولاتهم وأفكارهم الكلامية والفلسفية الأخرى. وما القول في «المنزلة بين المنزلتين» إلا الشكل الظاهري الذي أعلن به واصل بن عطاء إعتزاله عن مجلس شيخه الحسن البصري كما أسلفنا.

وإن دققنا في تسمية التيار الأول بالتيار القدري في كتب الملل والنحل نجد لها مطابقة بالمعنى لتسمية التيار المناقض وهو التيار الجبري، ولذا عمدنا الى تسميته بثقافة القدر. ومن هذا التيار اقتبس المعتزلة فكرة «نفي القدر» وبخلت جوهراً في فلسفة العدل المعتزلي، فشرعية حساب الانسان في الآخرة تتطلب الإيمان بنفي القدر وحرية الانسان

ومسؤوليته عن أفعاله، ومن أشهر هؤلاء القدريين أبو مروان غيلان الدمشقي ومعبد الجهنني وكلاهما قتلًا بسبب أفكارهما. أما التيار الجبري فبشكل عام كان على صلة وثيقة بالحكم الأموي، فكان مفكروا هذا التيار ينظرون إلى وجود الحكم الأموي كإرادة إلهية ليس من حق الناس تبديلها أو حتى الاعتراض عليها. لكن هذا التيار لم يكن متجانسًا. فالعديد من منظريه، وإن كانوا يقولون بالإجبار، أي الفعل خيرُه وشرُه من الله، ويبالغون في إلغاء الأسباب الطبيعية والاجتماعية، إلا أنهم تبنوا فكرة «نفي الصفات» عن الذات الإلهية والفكرة المتصلة بها فكرة «خلق القرآن». وهاتان الفكرتان لهما خطرهما على القائلين بهما، وفكريًا لا تقلان خطورة عن فكرة «نفي القدر». ومن أبرز هؤلاء المفكرين الجعد بن درهم والجهم بن صفوان اللذان قتلًا بحفلات دموية رهيبة من قبل ولاة الأمويين في العراق وبلاد فارس. وبسبب حضور الفكر القدري «نفي القدر» سُمي المعتزلة بالقدريين كما سماوا بالجهميين نسبة إلى الجبري الجهم بن صفوان. وكذلك عدَّ بعض مؤرخي الملل والنحل كل من ناقش في القدر أنه معتزلي، حتى قبل ظهور الإعتزال. أصبحت فكرة «نفي القدر» جوهرًا في فلسفة المعتزلة، بينما أصبحت فكرة «نفي الصفات» عن الذات الإلهية جوهرًا في فلسفة التوحيد لديهم، أما مبادئ أو أصول المعتزلة الأخرى: «المنزلة بين المنزلتين» و«الوعد والوعيد» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فما هي إلا مقترعات من مبدأ أو أصل العدل كشرط لتحقيقه. لم يكن المعتزلة الوحيدون من التيارات والفرق الفكرية الذين تبنوا فكر نفي القدر ونفي الصفات والقول بخلق القرآن، بل ظهرت واضحة ورئيسية عند الإباضية الذين ظهروا بالبصرة قبل ظهور المعتزلة بكثير. وما زالت الإباضية سائدة في عُمان حاليًا، وهو مذهب سياسي وكلامي لا يسمح أتباعه بتسميتهم بالخوارج، بل يؤكدون أنهم الشراة والحرورية الأوائل وإن الخوارج انشقوا عنهم كالآزارقة والنجدات وغيرهم، وتأخذ مسألة أسبقيتهم على المعتزلة زمنياً بنظر الاعتبار عند تحديد الفضل الفكري في تبني «نفي القدر» و«نفي الصفات»، فالشائع أنها أفكار معتزلية وإباضية غير معروفين بها. كذلك ظهرت فكرتا «نفي القدر» و«نفي الصفات» عند المذهب الشيعي الزيدي في ما بعد، لكن الزيدية استبدلوا مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» بأصل الإمامة الذي ضمه المعتزلة لأصل العدل، ومن المعروف أن للزيدية صلات متينة بالمعتزلة، منها الصلة القديمة بين واصل بن عطاء وزيد بن علي ثم التداخل بين معتزلة بغداد والزيدية بالإتفاق حول القول بإمامة المفضول قبل الفاضل، أي إجازة تقديم أبي بكر الصديق على علي بن أبي طالب رغم أن

الأول هو المفضل والآخر هو الفاضل عندهم.

يستطيع الفريقان من نفاة القدر والجبريين أن يستندوا إلى آيات في تأكيد شرعية رأي كل منهما (فالقرآن على حد تعبير علي بن أبي طالب حمّال أوجه)، فنفاة القدر يستطيعون دعم رأيهم بآيات منها: «ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» و«إنا أهديناها السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» و«وما تنفقوا من خير...». وكذلك الجبريون يستطيعون الاستشهاد بآيات تؤكد وجهة نظرهم منها: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» و«والله يرزق من يشاء» و«وما يُعمر من مُعمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب». كذلك الحال بالنسبة إلى نفاة الصفات ومثبتيها، فهناك آيات تجيز القول بالفكرتين، فالنفاة يجدون آيات تؤكد شرعية رأيهم منها: «فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذركم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير»، أما مثبتو الصفات فيجدون شرعية رأيهم في آيات عديدة تدل على جسمية الذات الإلهية منها: «يد الله فوق أيديهم» و«ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»، كما يستدلون ببعض أسماء الله التسعة والتسعين دليلاً على هذه الجسمية. ولتجاوز ما تختلف به الآيات مع ما ذهب إليه المعتزلة من نفي القدر أو نفي الصفات أو القول بخلق القرآن، عمدوا إلى تأويل تلك الآيات، وتحميلها معانٍ مختلفة عن لفظها الظاهر، ولهم في تفسير أو تأويل القرآن منهجهم الخاص. وقد قدم إبراهيم بن سيار النظام نقداً شديداً إلى مفسري القرآن من الفرق والمذاهب الأخرى، مشيراً إلى خطاهم في التفسير على اللفظ الظاهر وعجزهم عن فهم واستيعاب كلمات القرآن ومدلولاتها العامة، وعن كشف المعاني الصحيحة لأياته، ومن وصيته لأهل المعرفة بخصوص المفسرين قوله: «لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس». أما في مجال الحديث النبوي فينفرد المعتزلة من بين الفرق الإسلامية بموقف خاص. فلئن وجدوا طريقاً في تأويل القرآن والتخفيف من قدسية الأحكام التي تنبع من تفسير المفسرين، فإنهم وجدوا صعوبة وربما استحالة في قبول الرواية عن النبي، وما عُرف بالسنة النبوية. وكان رائدهم التخفيف من سطوة النقل على العقل في الحياة الاجتماعية، فمعروف أن السنة النبوية، أي أقوال النبي وصاياه وممارساته، ملزمة للمسلمين كافة بعد القرآن، وكثير من الأحكام أخذت شرعيتها من الأحاديث النبوية لا من القرآن، كقتل المرتد عن الإسلام، الاختتان، عدم مصافحة النساء واختلاف صلاة المسلمين من مذهب إلى آخر وغيرها. وكذلك بين المعتزلة صعوبة



وصول رواية سليمة عن النبي، فائمة الحديث قد ميزوا بين أنواع الحديث الصحيح والحسن والضعيف والموضوع الذي وضعه الفقهاء ونسبوه للنبي، إضافة إلى الأحاديث القدسية (كلام الله على لسان النبي من غير القرآن، ومن آلاف الأحاديث النبوية توصل بعض المعتزلة إلى الإلتزام بثمانين حديثاً فقط. ومن رأي كبار مفكري المعتزلة في رواة الحديث نذكر قول إبراهيم النخعي: «كيف نأمن كذب الصادق، وخيانة الأمين، وقد ترى أن الفقيه يكذب في الحديث، ويدلس في الإسناد، ويدعي لقاء من لم يبلغه... ولولا أن الفقهاء المحدثين والرواة والصلحاء المرضيين يكذبون في الأخبار ويغلطون في الآثار لما تناقضت آثارهم ولا تدافعت أخبارهم». ومن شروط المعتزلة في قبول الرواية عن النبي هو أن يكون الحديث من نص قرآني لا يعارض التأويل، أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه، أو من جهة العقل وضرورته. والحقيقة أن هذه الشروط تحول دون اعتماد أي حديث نبوي على الإطلاق. وفيما يتعلق أيضاً في قول المعتزلة بتقديم العقل على النص، ينصحو علانية في الابتعاد عن التقليد، وأخذ المعرفة والإيمان بالنظر والاستدلال، أي تأكيد قاعدة «الفكر قبل ورود السمع».

انتقل المعتزلة بفكرتي «نفي القدر» و «نفي الصفات» إلى الفلسفة، فربطوا فكرة «نفي القدر» بفلسفتهم حول العدل الاجتماعي. فهم يرون بأن الله عادل لا يفعل الظلم، ولهذا قد يتهمهم البعض بالثنوية، أي أن للخير صانعاً هو الله وللشر صانعاً آخر هو إبليس. لكن هل هنالك فكر ديني يخلو من ثنائية الخير والشر وأن مصدر الأول هو الله ومصدر الثاني هو إبليس؟ فلماذا الحذر من غواية الأخير إذا كان غير مقتدر على خلق الشرور، أو إذا كان الإنسان لا يملك من أمره لاخيراً ولا شراً؟ فحسب هذا المنطق، من يريد أن يتقي شر إبليس ينبغي عليه تجنب مسبته والتحرش به، وهو ما تذهب إليه بعض الديانات، كالآيزيديين في شمال العراق، مثلما يُعَاض من شروره برب العالمين عند ديانات أخرى. وارتباطاً بتطوير فكرة «نفي القدر» عن أفعال الإنسان، تبنى المعتزلة مبدأ أسبقية العقل على الإيمان، ورغم إتفاق مفكري المعتزلة على نفي القدر، اختلفوا في تفاصيل ذلك من خلال تفرعات فلسفية حول مسألة توليد الفعل. فهناك من يقول باكتساب الإنسان قدرته على الفعل من الله، وهناك من يحرر فعل الإنسان تماماً.

أما مسألة نفي الصفات عن الذات الإلهية والتي بدأت بسيطة عند واصل بن عطاء، الذي أخذها من بيئة البصرة الفكرية، فقد بدت عند خلفائه من المعتزلة أقرب إلى التعقيد والفلسفة. وكان إسخال الفلسفة عليها على يد أبي الهذيل العلاف الذي وحد بين الذات

الإلهية والصفات بفكرة «أن الله قادر وقدرته هو هي، وحي وحياته هو هي، وكريم وكرمه هو هو» الخ، أي أنه ألغى الثنائية بين الذات الإلهية وصفاتها، نافياً أن تكون قديمة بقدمه. وهذا هو التنزيه المطلق الذي يؤكده التوحيد المعتزلي. وهناك من المعتزلة كإبراهيم النظام من يؤكد صفة الذات كجزء من الذات لنفي الصفة المعاكسة عنها. فالقول بأن الله كريم نفي البخل عنه، والقول أنه حي نفي الموت عنه، والقول أنه عادل نفي الظلم عنه، وهكذا. وهناك معتزلة آخرون فلسفوا العلاقة بين الذات الإلهية والصفات بأفكار أخرى، فقد جعل معمر بن عباد من الصفات معاني لذات الله، كقوله: «أن الله عالم بعلم وأن علمه كان لمعنى والمعنى كان لمعنى لا إلى غاية». وفلسف أبو هشام الجبائي هذه العلاقة بقوله أن الصفات ما هي إلا أحوال الذات الإلهية: «والله هو عالم لذاته بمعنى ذو حالة هي صفة المعلوماتية».

كل ماتقدم وغيره من غريب الكلام ودقيقه الذي قد يجده القارئ عبارة عن تعقيد لفظي وفكري لدى المعتزلة ومتكلمين آخرين، وأن هذا التعقيد هو ما يسمى بـ «الكلام الدقيق» أي الفلسفة قبل أن تصبح هذه الكلمة مصطلحاً شائعاً عند المفكرين، ودقيق الكلام أو الفلسفة بتعريف أبو الحسن الخياط في كتابه «الإنصاف»: «غامض الكلام ولطيفة». وقد يكون للكلام الدقيق أو التفلسف، بنفي القدر ونفي الصفات، معنى في الفكر، وتتوقف عليه أمور كثيرة، ومع ذلك، هناك مجادلات كثيرة، خاضها كبار المتكلمين، وردت كرياضة فكرية، لا يرجى منها مواقف فكرية معينة تهتم حياة الناس، ومنها الجدال بعلم الله ومكانه، وطبيعة أهل الجنة وأهل النار، هل هم متحركون أم ساكنون وغيرها، ويصف هذه المجادلات الخياط بقوله: «إنما كان العلاف يتكلم في هذا الباب الذي ذكرناه عن طريق النظر، ويشحذ به الإفهام ويستخرج قوى المناظرين».

ترتبط بفكرة نفي الصفات ارتباطاً مباشراً بفكرة خلق القرآن، التي قال بها الجعد بن درهم إلى جانب نفي الصفات، وهناك من يحيل تاريخها إلى ديانات أخرى سبقت الإسلام. ويتفق المعتزلة كافة على أن القرآن ليس كلام الله، وأنه مخلوق له، كبقاقي المخلوقات، قد ينطق به نبي أو يظهر في شيء آخر، والحجة في ذلك أن الكلام صفة من صفات المخلوق (الإنسان)، وإذا كان الله متكلماً فمعنى ذلك أن الكلام قديم بقدمه، وهذا مناقض لجوهر فلسفة التوحيد المعتزلي في تنزيه الذات الإلهية من الصفات كافة. وتأتي فكرة خلق القرآن مناقضة تماماً لفكرة الصفتيين الجبريين التي تقول: «إنه قديم وما بين الدفتين هو كلام الله حقيقة لا مجازاً، أما الأشعري فيقف وسطاً بين الفكرتين عندما يقول:

إنه كلام الله مجازاً والمخلوق منه هي الحروف المقاطع.  
 إن فكرة خلق القرآن التي سحبتها المعتزلة على العلاقة بين الذات الإلهية والصفات،  
 أتاحت لهم تأويل القرآن؛ كونه مخلوقاً لله لا كلامه، فثمة فرق بين أن يكون القرآن كلام  
 الله أو هو من خلقه، ولعل ذلك شجع إبراهيم النظام على القول بعدم وجود إعجاز لغوي  
 في القرآن، والإعجاز فقط في أخبار الغيب (ابن الراوندي «فضيحة المعتزلة»/ ١١١).  
 ويتضح من إصرار الآخرين على أن القرآن كلام الله وقديم بقدمه، هو الدفاع عن قدسية  
 النص القرآني الصارمة، والوقوف ضد التأويل الذي يبني عليه المعتزلة شرعيتهم  
 الفكرية تجاه معارضيتهم. ومن الجدير بالذكر أن فكرة خلق القرآن تحولت في ما بعد إلى  
 محنة فرضها المأمون على فقهاء عصره، لم يكن لشيوخ المعتزلة دور سلطوي فيها ما  
 عدا إنتساب قاضي القضاة أحمد بن داود إليهم الذي نفذ أوامر المأمون والمعتصم ثم  
 الواثق في هذه المحنة وغيرها. ومن الأحداث الطريفة خلال هذه المحنة: أن أحد الفقهاء لم  
 يجد في القرآن ما يبرر القول بأن القرآن مخلوق، ليستعين به في الهروب من هذه المحنة،  
 غير النص القرآني: «جعلناه قرآنًا...» فقال لممتحنه أنني أقول أن القرآن مجعول، والجعل  
 هو الخلق، لكن هذه الحيلة لم تنطل عليهم، واصرروا أن يكون اللفظ صريحاً بالخلق لا  
 بالجعل.

بدأت محنة القول بخلق القرآن يسيرة أيام المأمون ثم اشتدت أيام المعتصم البعيد  
 عن الفكر أو المناظرات، فأخذ مخالفيه بالقوة مباشرة. وبعد إستخلاف المتوكل أصبح  
 أحمد بن حنبل فقيه الدولة الأول فقام بمطاردة المتكلمين من معتزلة وشيعة وغيرهم، بعد  
 أن كان يشهد ضدهم أيام هارون الرشيد، رغم حماية البرامكة لهم في أكثر من موقف.

في ظل سطوة المعتزلة على الحياة الفكرية ببغداد تحقق إنفتاح ملموس على الفرق  
 الإسلامية والديانات والثقافات الأخرى، وما عُرف عن محنة أحمد بن حنبل وجماعته أيام  
 المأمون كانت لا تعدى دعوتهم إلى التناظر مع مخالفيهم، بينما كانوا يرفضون ذلك  
 بفتاوى تحرم الجلوس مع المعتزلة وغيرهم على بساط واحد، معتبرين المعتزلة  
 والقائلين بخلق القرآن كفاراً. إن هذه الحقائق عن موقف الحنابلة عرفت فيما بعد، وقد يفيد  
 في هذا الأمر ما أورده القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة  
 أعلام مذهب مالك» خلال حديثه عن سيرة حياة أبي بكر الباقلاني أحد شيوخ الأشاعرة  
 في زمانه، وكان هذا قد ذكر شيخه الحسن الباهلي بموقف ابن حنبل وجماعته من  
 مناظرات المعتزلة والمأمون، عندما طلب من الباقلاني والباهلي المشاركة في مناظرات

عضد الدولة البويهى وقاضي قضاته بشر بن الحسين المعتزلي، وكان الحاكم البويهى قد أفتقد فقهاء ومتكلمي الأشاعرة والحنابلة، فقال لقاضي قضاته: «هذا المجلس عامر بالعلماء، إلا إني لا أرى فيه قاعداً من أهل الإثبات والحديث بناظر». فبعث قاضي القضاة إلى أبي الحسن الباهلي وإلى القاضي أبي بكر الباقلاني كتاباً دعاهما فيه إلى المشاركة، فكان رد الباهلي كما هو رد ابن حنبل: «إن هؤلاء القوم كفر، فسقة لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يُقال إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر الكبيرة». فرد الباقلاني على شيخه بقوله: «هكذا قال ابن كلاب والمحاسبي، ومن في عصرهم، إن المأمون فاسق، ولا نحضر مجلسه، حتى سيق أحمد بن حنبل إلى طرسوس، وجرى عليه بعده ما عرف، ولو ناظرناه لكفوه عن هذا الأمر، وتبين لهم ما هم عليه بالحجة وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد، ويقولون بخلق القرآن، ونفي الرواية؟ وما أنا خارج إن لم تخرج».

في ظل هذا الإنفتاح كثرت المناظرات الفكرية بين مختلف الاتجاهات، بعد تأمين الجدل السليم والإذعان لنتيجة المناظرة مهما كانت، وفي هذا الصدد نذكر حدثاً من أحداث بعض المناظرات، على سبيل المثال لا الحصر، يعكس أجواء التناظر والتزاماته، فقد حدث أن أحد المتناظرين نهر منظره في حضرة المأمون بقوله له: «يانبطي ما أنت والكلام»، (المعروف عن النبط أنهم سكان البطائح في جنوب العراق بين الكوفة والبصرة، وكانت كلمة النبطي شتيمة، وقد تطورت في العصر الحاضر إلى شتيمتي معيدي أو شروكي) فرد المأمون بعنف على الشاتم بقوله: «الشتم عي والبذا لؤم، وقد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل وقفناه، ومن ذهب عن الأمر حكماً فيه بما يجب». وفي ما بعد ظهرت مؤلفات في «آداب الجدل والمناظرة» تشير إلى مبادئ عديدة منها: التحرز عن رفع اليد أو الضرب على الفخذ أو رفع الصوت أو الإستهزاء بطريقة ما خلال الجدل، وقد أباح بعض الفقهاء الابتسامة بدل القهقهة عند إفحام المقابل.

لقد وضع المعتزلة أساساً لظهور فلسفة مصدرها العراق وتراثه الفكري الذي يمتد إلى عشرات القرون، لكن كتابة التاريخ المزيفة صورت مدن العراق عبارة عن صحارى ومستنقعات يقطنها بشر طوال الأنياب وربما لهم ذبول. فهنا ما قيل عن سكان البطائح أو عن أكراد الجبال، وترى عبد القاهر البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» يصف شيوخ المعتزلة البصريين بآبناء السباية، لأنهم كدروا عليه صفو مذهبه المتشدد، فكل معتزلي

هو مولى لآل فلان من القبائل العربية القادمة مع الفتح.

قدم المعتزلة للفكر العالمي أفكاراً فلسفية لم تلعب دورها الحقيقي في تفسير الكون أو تغييره، فالقمع سرعان ما طال أصحابها. وأغلب ما نجد الآن في المكتبة عن المعتزلة ليس إلا سطوراً في كتب الملل والنحل أو التاريخ العام، تغطيها اكوام من الأغاليط والشتائم، لكن هناك بعض الكتب القليلة التي ألفها معتزلة كعبد الرحيم الخياط وأبي القاسم الكعبي والقاضي عبد الجبار، إضافة إلى بعض أخبار الاعتزال التي تظهر هنا وهناك في مؤلفات الجاحظ. وليس من شك أن المعتزلة تأثروا بفلسفات أخرى منها الفلسفة الإفلاطونية والأرسطية، وبيعض ما وصل من فلسفات الهند، وكذلك بالفلسفة الإيرانية القديمة والتي كثيراً ما ناظر المعتزلة أقطابها من المجوس. ولكن ليس من الإنصاف أن ينكر على المعتزلة إبداعهم الفكري ويعتبروا ناسخين للفلسفة اليونانية حسب رأي بعض المستشرقين، ورأي خصومهم في الفكر كعبد الكريم الشهرستاني وأبي حامد الغزالي.

ومن نظريات المعتزلة الفلسفية المهمة في تأمل الكون نظرياتهم في الأجسام وتركيبها وعلاقتها بالأعراض، فقد توصل بعضهم، كمعمر بن عباد وبشر بن المعتمر، إلى القول بمسؤولية الأجسام عن خلق أعراضها من لون ورائحة وطول وعرض وكل ما يطرأ عليها. وتوصل إبراهيم النظام إلى القول بالمداخلة والكمون في ظهور الأشياء بعضها من بعض بتدرج قانوني، وأن حركة الأجسام دائمة مطلقة والسكون لا وجود له إلا كمصطلح في اللغة، وهو القائل «الكون هو الحركة»، وهي العرض الوحيد، وباقي الأعراض ماهي إلا أجسام شفافة، وأن الجسم يتكون من أجزاء لا نهاية في تجزئتها. بينما كان الخلاف قد توصل إلى قناعة بأن الجسم يتكون من أجزاء محدودة تنتهي إليها التجزئة. وتوصل معمر بن عباد السلمي إلى سكون الأجسام الدائم وهو القائل «الكون هو السكون». كذلك تأمل المعتزلة حالة الدولة (الإمامة) ومستقبلها، فلم يضعوها أصلاً من الأصول، أي لا شرط لوجودها على الدوام، بل يجوز أن يتولى أمر الناس نبطي، رداً على ماذهبت إليه مذاهب القائلين بأن الإمامة في قريش وحدها. وربما تنبأ المعتزلة بنهاية دور الدولة خلال التطور الاجتماعي، وإلى ذلك ذهب هشام بن عمرو الفوطي وأبو بكر الأصم بإشارتهما إلى أن الإمامة ليس بواجب، بتعليل «أن الناس لو كفوا عن المظالم لاستغنوا عن الإمام» (انظر ميعون النسفي في «تبصرة الأدلة» الكلام في الإمام)، وعلى هذا الرأي رد السلفيون، من أتباع الأشعرية، بأن الصحابة لم يستغنوا عن الدولة وهم

«أولى الناس بالاستغناء عن ذلك»، وحيث لم يستغنوا عنه دل أن ذلك ليس بشيء». وإضافة إلى براعة المعتزلة في الكلام والفلسفة ذكر الجاحظ منهم أطباء كمعمر بن عباد ومحمد بن الجهم وإبراهيم السندي، وخبراء بأنواع الحيوان وطبائع كإبراهيم النظام وبشر بن المعتز، اللذين اعتمد الجاحظ خبرتهما ووصفهما للحيوان شعراً ونثراً في تأليف كتابه «الحيوان».

ترك المعتزلة تراثاً فكرياً. لا يتحدد بما نقلته كتبهم أو ما نقله الآخرون عنهم فحسب بل يتمثل أيضاً في امتداد أفكارهم وصلاحياتها لعصور آتية، لأنهم وضعوا العقل وسيطاً بين السماء والبشر، وجعلوه في مقدمة الأصول. وعندما يُلوح بالنصوص كثوابت في تحديد علاقات الناس عند المنعطفات الحادة التي تعترض طريق الإبداع العقلي يحضر الفكر المعتزلي كشاهد تاريخي على الرفض والمقاومة من داخل المؤسسة الفقهية، فشيوخ المعتزلة كانوا من الفقهاء المتكلمين والفلاسفة، ورحم الله سفيان الثوري، الفقيه الحنفي القريب من الاعتزال، فقد قال: «إنما الفقه الرخصة مع الثقة أما التشدد فيحسنه كل أحد».

## إصدارات وردتنا

فالح عبد الجبار (محرر): *Postmarxism and the Middle East*

دار الساقي، لندن

كريم الدريسي: الأسد خلق الغزالة، خلقها ليأكلها/ مجموعة شعرية، دار الكنوز الأدبية، بيروت.

النوارس، فصلية أدبية - ثقافية، العدد الرابع، ستوكهولم (يحررها: طالب السلطاني وصبري يوسف) بمساهمات لهما ومحمود بدر، الأب يوسف سعيد، فيفيان صلبوا، صبري يوسف، عشتار، لقاسم بن سعيد، كفاح حنا.

## ملاحظات حول الصراع الطبقي

### جاك كيركوت\*

اقترح عليّ أن اقدم هنا بعض الافكار حول الصراع الطبقي، وما انتجه منذ قرن، وحول الاهمية التي نوليها اياه على الصعيد الفكري والمفاهيمي. . . . وربما يجب ابتداء التساؤل عن الموقع الذي يعطيه ماركس نفسه للصراع الطبقي. فنحن نعرف عبارة البيان الشيوعي: «ان تاريخ المجتمع كله كان حتى يومنا هذا، هو تاريخ الصراع الطبقي». ويبدو منها واضحاً بالنسبة لماركس، ان الصراع الطبقي هو محرك التاريخ. ولكن هذا التأكيد قد خالفه البعض معتبرين ان تطور القوى المنتجة هو محرك التاريخ بنظر ماركس. ويستندون في ذلك الى مقتطفات مختلفة من أعمال ماركس، ولعل اكثر هذه الاقتباسات وضوحاً في هذا الخصوص هو ما جاء في مقدمة عام ١٨٥٩ لكتاب «نقد الاقتصاد السياسي»: «عند مستوى معين من التطور، تدخل القوى المنتجة المادية للمجتمع في تناحر مع علاقات الانتاج القائمة. ( . . . ) وعندئذ يبدأ عهد الثورة الاجتماعية».

\* جاك كيركوت باحث في المركز القومي للبحوث العلمية في فرنسا، وهو باحث ماركسي ينشط من مواقع اليسار الماركسي غير الشيوعي، كان من بين المثقفين الذين اتخذوا موقف الاسناد الفاعل للاضرابات العمالية التي عمت فرنسا في كانون الاول ١٩٩٥. ان هذا المقال ترجمة بتصرف تتناول الافكار الاساسية للبحث الذي قدمه كيركوت الى مؤتمر ماركس الدولي الذي أقيم في باريس خلال الفترة ٢٧-٢٠ ايلول ١٩٩٥ بمبادرة من مجلة ماركس الراهن ACTUEL MARX بالتعاون مع المعهد الايطالي للدراسات الفلسفية.

وإذا ما كان علينا الحسم ما بين هذين التأويلين، سأقول، بقدر ما يتعلق الامر بي، ان ماركس يعتقد بان الصراع الطبقي هو الذي يصنع التاريخ. ولكن الصراع الطبقي يفعل ذلك في ظل شروط محددة تاريخياً، ويحددها بشكل خاص تطور القوى المنتجة. واعتقد ان هذا ما كان يفكر به ماركس، بل ان حتى التعبير عن هذه الفكرة بصيغة موجزة كما ورد في المقتبس من البيان الشيوعي، انما يمثل المقاربة الأكثر ملاءمة والتي يمكن ان تعيننا في استكناه التوصلات والانقطاعات في تاريخ مجتمعاتنا. وهذه المقاربة تتحاشى تلك النظرة، الخطئية كثيراً في بعض الاحيان، التي تترك بعض صياغاتها، بشأن تطور القوى المنتجة، المرء في حيرة وشك.

نحن نواجه بلا شك، نوعاً من التراجع عن التفكير بموضوعة الصراع الطبقي، وتوجد اسباب عديدة لذلك. اولها يتمثل ربما في ان الشك بإمكانية تحويل العالم وتغيير الحياة قد استتبع، بالنسبة للبعض، اقضاء الجدل حول الصراع الطبقي، لاسيما ان ماركس نفسه كان يصف اصالته واضافته لا في كونه اكتشاف الصراع الطبقي، وانما بتأكيد ان الصراع الطبقي يقود بالضرورة الى الغاء جميع الطبقات والى قيام مجتمع لا طبقي. (رسالته الى وديمير Wedemeyer في ٥ آذار ١٨٥٢).

والسبب الثاني يتأتى بدون شك من التساؤل حول وجود الطبقات الاجتماعية ذاته، وبالاخص، وجود الطبقة العاملة.

والسبب الثالث يرجع الى ان عمليات التفرد individuation العديدة في المجتمع قد غيرت تغييراً عميقاً من الاهتمام بما هو جمعي لصالح كل ما يتمحور حول الفرد، مضافاً الى ذلك الرغبة المفهومة، لدى بعض الماركسيين حالياً، في اثاره تساؤلات حول مكانة العوامل الموضوعية في التاريخ الاجتماعي.

اما السبب الرابع فمرده الشغف بجميع نظريات الوفاق consensus، ولاسيما على صعيد المنشآت حيث تتبدى الرغبة في تنمية الشعور بالانتماء، ويجري غرس ثقافة المنشأة... الخ. وقد لا يجد البعض ذلك جديداً، ولكن الاحتفاء عام ١٩٨٥ بروح المنشأة وبصلادة المنشأة وتوحيدها indivisibilité، ودعوة الفرنسيين لهجر «احكامهم المسبقة» عن المنشأة، فان كل ذلك لم يصدر عن عضو في الاتحاد الوطني لارباب العمل الفرنسيين، وانما صدر من رئيس الوزراء الاشتراكي السابق، لوران فابيوس، والذي اختتم كل ذلك بالدعوة الى تجاوز «التحفظ الصناعي». ولم يكن من الصعب الفهم بانه اذا كان المطلوب هو الظهور بدون احكام مسبقة، فمن الاجدى الآن التعامل مع عالم العمل عن



طريق الادارة والتخلي لبعض الوقت عن النضالات وعن النزاعات.  
من ناحيتي، سأحرص اذن على استرجاع ثقل الصراعات الطبقيّة على مدى قرن،  
سواء في الانعطافات الكبرى خلال القرن، ام في مجرى الحياة اليومية، وسأحاول من ثم  
التساؤل عن الموقع الدقيق الذي يحتله اليوم الصراع الطبقي في المجتمع، وتحفيز  
التفكير حول التمهصلات الممكنة لمختلف علاقات السيادة domination.

### الافكار الاساسية لهذه المقالة:

١- ان الصراع الطبقي يضع الرأسمالية في مواجهة خصومها، وفي مقدمتها الطبقة  
العاملة. ويمكن ان تتخض هذه الصراعات عن انتصارات او هزائم او عن مساومات، كما  
هو الحال في اغلب الاحيان. فالنتيجة تعتمد على تناسب القوى بين الطبقات.  
٢- ان تاريخ الصراع الطبقي ليس فقط تاريخ انتصارات الطبقة العاملة، وانما ايضاً  
تاريخ هزائمها ومساوماتها.

٣- ان ميل ماركس الى تقديم نظرة خطية للصراع الطبقي كان له نتيجتان:  
- التأكيد فقط على «المراحل الكبرى» للصراع الطبقي.  
- وفي اطار هذه المراحل الكبرى، التركيز على تلك الجوانب التي يمكن  
تحليلها كانتصارات، على حساب تحليل الهزائم والمساومات.  
٤- رغم ذلك، فانه لا يمكن فهم الاحداث الكبرى لهذا القرن دون الرجوع مباشرة  
للصراع الطبقي. وهذا ينطبق على الاحداث التالية، على سبيل المثال لا الحصر:  
- الحرب العالمية الاولى، سواء لسبب اندلاعها في آب ١٩١٤ او سبب قيام  
ثورة اكتوبر ١٩١٧.

- ازمة ١٩٢٩ الاقتصادية والطريقة التي تنظمت بها العلاقة بين العمل  
والرأسمال في بعض البلدان ولبعض الوقت.  
- الحرب العالمية الثانية، والهزائم الكبرى التي منيت بها الطبقة العاملة في  
مواجهة الفاشية، علماً بأن الفاشية ليست التعبير عن اتجاه متخلف في  
الرأسمالية وانما تمثل الوسائل التي تستحدثها الرأسمالية الناضجة في  
مواجهة ازمة اعادة انتاج الرأسمال، وذلك من اجل تغيير شروط اعادة  
الانتاج نفسها.

- ظهور حركات المقاومة والديناميكية التي تحملها هذه الحركات.

— الثورة المعادية للاستعمار، والحركات الجبرية لتحرير الشعوب من الاستعمار، والتي تؤدي الى تشابك النضال ضد الاضطهاد القومي مع النضال ضد الاستغلال الاجتماعي.

— انتصار مرشح اليسار في فرنسا عام ١٩٨١، الذي هو أيضاً احد نتائج الصراع الطبقي.

اضافة الى دور الصراع الطبقي في اللحظات التاريخية الكبرى، يمكن تلمس دوره الكبير في الشؤون اليومية للحياة الاجتماعية. فلقد ساهم الصراع الطبقي في تغيير الشروط التي يتم فيها استغلال قوة العمل، اي تحسين الشروط المادية والحقوقية للعمل الاجير والضمانات الحقوقية، إذ من المهم الاشارة الى أن العمل ليس محكوماً ببديل واحد: الانزعان والاستسلام للاستغلال او الغاء علاقات العمل الاجير، اذ هناك فسحة وفضاء ما بين هاتين الحالتين تشكل مجالاً لفعل وتأثير الصراع الطبقي بما يمكنه من تغيير العمل.

لقد تعدى تأثير الصراع الطبقي حقل الاقتصاد، بل ساهم في تشكيل معالم ووظائف الدولة الحديثة (الضمان الاجتماعي، التأمين، انتزاع بعض المسائل من ميدان العلاقة بين العامل ورب العمل و طرحها على الصعيد السياسي). فقد ظهر ميدان جديد للنضال من خلال الدور التوزيعي للدولة الكينزية ودولة الرفاه.

وينبغي الاشارة الى الميادين التي احتفظت فيها الطبقات السائدة بتفوقها، واهمها المدرسة. فلا تزال المدرسة تعيد انتاج الطبقات الاجتماعية السائدة.

### **حول موضوعة الصراع الطبقي**

#### **ونموذج التحليل الاجتماعي القائم عليها**

ربما لم يكن البيان الشيوعي صائباً في قوله ان «تاريخ المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقي». فنحن نعرف الآن تاريخ العديد من اشكال التنظيم الاجتماعي، سواء الشكل البسيط للعصبيات ام القبائل، التي تطورت، عبر علاقات معقدة وترتيبات ونزاعات ومبادئ تنظم المجتمع، تطورا لا صلة له مع الصراع الطبقي، لأن الطبقات الاجتماعية لم تكن موجودة. وهكذا جربت البشرية بنى قرابة وتحالفات انتجت ما يمكن تسميته بعائلة العلاقات بين الاجيال التي اثرت على تطور المجتمعات قبل ظهور الطبقات بوقت طويل. وكذلك العلاقات بين الرجل والمرأة والهيكلية التي تتسم بهيمنة الرجل على المرأة. وقد ظهرت هذه العلاقات كبنية اجتماعية حيوية في المجتمعات التي لا تعرف الملكية الخاصة

لوسائل الانتاج. كما ان الصراعات المسلحة والحروب، بل المذابح، التي قامت بين الجماعات البدائية، لم تنجم ايضاً عن الصراع الطبقي.

لذلك فان مجموع العلاقات التي نسجها الجنس البشري لم تتبع من الصراع الطبقي فقط، كما ان الصراع الطبقي ليس مسؤولاً عن توليد مجموع التناقضات والنزاعات ولا مجموع اشكال السيادة والهيمنة.

واضافة الى العلاقة بين الرجال وبين الجنسين، يمكن ايراد ايضاً العلاقة بين الامم والقوميات. فان مجموعات الصراع الطبقي قد ورثت العلاقات القائمة بين الجنسين، وبين الاجيال، وبين العشائر، وبين القبائل، وبين الاعراق والشعوب، كما انها ورثت علاقة مع الطبيعة التي غالباً ما تتسم بالندرة وبمصادفات الكوارث الطبيعية والصراع من اجل البقاء. فهذه التمايزات تتراكم، وتنظم وتتصلب، بالتالي تظل قائمة.

ولكن هذه العلاقات تتأثر بصورة عنيفة بظهور الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي والدول. وفي ظل هذا الصراع يعاد تشكيل هذه العلاقات وعجنها وضمها الى مجموعة معقدة من الروابط الاجتماعية الجديدة. وبهذا المعنى فان لجميع هذه العلاقات صلة ما بالصراع الطبقي. ولكن الصراع الطبقي لم يقم بلف هذه العلاقات حوله ويخضعها لمنطقه وحده، كما انه لم يخضعها الى اتساقه المنطقي الخاص، ناهيك عن اسباب ولادة جديدة عليه. فهذه العلاقات ليست نتاجاً للصراع الطبقي.

ان هذه المقاربة تُسقط الاشكالية التي تجعل الصراع الطبقي تناقضاً يكمن في جذر كل التناقضات الاخرى، اي انها تُسقط الاشكالية التي تعتبر:

١ - حل الصراع الطبقي كافياً لان يؤدي وحده الى حل جميع اشكال النزاع واشكال السيادة الاخرى.

٢ - من غير المجدي محاولة النشاط للتأثير على الاشكال الاخرى من السيادة، طالما ان هذه الاشكال لا يمكن، في المطاف الاخير، ان تشهد تطوراً جدياً إلا من خلال وعن طريق انتصار الطبقة العاملة، او بتشييد الصراع الطبقي، على الاقل.

فعلى النقطة الاولى تترتب بالضرورة فكرة ان الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج يكفي لان تختفي او تضمحل تلقائياً بقية الاشكال للسيادة والقهر. وقد كشفت التجربة مال وحصيلة هذا الاعتقاد.

اما النقطة الثانية في هذه الاشكالية فتؤدي الى اخضاع النضال ضد بقية اشكال السيادة والقهر الى الكفاح الطبقي، وبالمفهوم الاكثر اختزالاً للصراع الطبقي. وهذه

قضية قديمة رافقت الالتقاء بين الحركة العمالية والماركسية (لنتذكر العداءات الثلاث لجول غيد: العداء للعسكرة، والعداء للاستعمار والعداء للعنصرية والتي اعتبرها انحرافاً عن الصراع الاساسي المعادي للرأسمالية). وقد ادى ذلك الى طمس، او عدم تشجيع، النضال ضد اشكال السيادة الاخرى (مثلاً نضال الحركات النسوية والدفاع عن المهاجرين) لانها تهدد في المطاف الاخير وحدة الطبقة العاملة. ولا تزال اثار هذا الفهم باقية وتنعكس في النضال ضد مرض الايدز، وفي الموقف من مسألة المثليين-Homo sexuels. ويؤدي ذلك الى ان تملأ الفراغ حركات شعبية، او يمينية متطرفة كما في مسائل الهجرة.

وقد تكون هذه الموقعة الجديدة للصراع الطبقي امينة الى ماركس، اذا استخدم ماركس بعد كتابته للبيان الشيوعي، صياغات اقل قطعاً. ففي عام ١٨٦٩ كتب يقول «ان الصراعات الطبقيّة هي المحرك الرئيسي للتاريخ»، وفي السنة ذاتها، قال ايضاً في رسالة الى بيبيل «نحن نعتبر الصراع الطبقي محرك التاريخ الأكثر حسماً». «فمحرك رئيسي» و«أكثر حسماً» هي صياغات اقل قطعاً من الصياغة الواردة في البيان الشيوعي. ولكن مسألة الامانة الى الماركسية هي ليست الاشكالية الاهم التي تواجها في قضية العلاقة مع الماركسية.

### كيف تتمفصل علاقات السيادة؟

لا توجد بالضرورة حاضنة مشتركة كالاستغلال الطبقي، لجميع اشكال السيادة او القهر، وانما هناك تفاعل وتأثير متبادل فيما بينها (interaction)، دون ان يعني ذلك وضع جميع هذه العلاقات في مستوى واحد. فالعلاقات الطبقيّة تصنع التاريخ بدون شك، ولكن الامر ليس دائماً كذلك بالنسبة للاشكال الاخرى من السيادة.

ففي ظل الرأسمالية، لا بد لعلاقات السيادة ان تواجه الصراع الطبقي، ونلاحظ انه عندما تتمفصل هذه العلاقات مع الصراع الطبقي<sup>(١)</sup>، غالباً ما تأخذ سيرورتها منحى تقدم الانسانية جمعاء، في حين لو تركت وحدها فانها قد تساهم في رد الانسانية الى الوراء. لذا، فان الصراع الطبقي، وان لم يفسر جميع الاشكال الاخرى لعلاقات السيادة، فانه يبقى المتغير الأكثر ثراء والزاوية الأكثر انفتاحاً على مشاكل المجتمع.

ان الطبقة العاملة تتطور وتتحول، وان العمل يتغير، ولكن موقعه يبقى مركزياً في المجتمع وفي السيرورة التاريخية.

فالصراع الطبقي يبقى الزاوية الأكبر للفهم، والعتلة الارأس للفعل، ولكن بشرط ان لا

ينظر اليه كقيمة خالدة، وانما بالعكس، يجب النظر اليه في ضوء السياق التاريخي لفعله. ويجب الاخذ بعين الاعتبار ايضاً أن الصراع الطبقي لا يخرج سالماً من عملية العجن والتأثير في اشكال السيادة الاخرى، بل يتعرض هو ايضاً الى التغير والتحول بتأثير التناقضات التي تثيرها المتغيرات الاخرى. لذا فان المقاربة المعتمدة على «التشكيلة الاجتماعية» وما تتضمنه من تفصيل حول نمط الانتاج السائد تبدو أكثر ثراء من المقاربة المعتمدة على مفهوم نمط الانتاج<sup>(١)</sup>.

ان عمليات العولمة وحركة الراسمال قد تطلق تناقضات لا يمكن التحكم بها وبالتالي تؤدي الى تفجرات لا يمكن توقعها. لذا فان البحث عن بديل على نطاق البشرية جمعاء يتطلب حث مجموع المفهورين والمُسودين الى العمل انطلاقاً من كل علاقات السيادة.

### ملاحظات المترجم

(١) ان مفصلة الصراع القائم في اطار علاقات سيادة معينة (الحركات النسوية ضد علاقات السيادة بين الرجل والمرأة، الحركات المناهضة للتمييز ضد مجموعات اجتماعية معينة لاسباب تتعلق بالانتماء الاثني او القومي او العنصري او لنقاسها معتقدات وسلوكيات تخرج عن القواعد والمعايير الاجتماعية السائدة، حركات الدفاع عن البيئة...) مع النضال ضد علاقات السيادة والقهر في المجال الاقتصادي لا تعني الاقرار بالاهمية الحاسمة للعامل الاقتصادي والطبقي او باعتباره العامل الوحيد في نهاية المطاف، وانما تنطلق من وجود علاقات سيادة مختلفة ضمن التشكيلة الاجتماعية الواحدة، ويذهب البعض الى تعيين انماط انتاج ترتبط وتؤسس لعلاقة السيادة المعنية، كنمط الانتاج العنزلي بالنسبة لبعض منظري الحركة النسوية من الماركسيين. ولكن هناك تراتبية في تأثير هذه العلاقات على بعضها البعض تحتل فيها علاقات الاستغلال الطبقي الموقع والتأثير الاهم، لذا نجد في بعض الحركات النسوية وحركات البيئة بعداً واضحاً مناهضاً للاستغلال والقهر الاقتصادي في حين يغيب في حركات اخرى، مما يؤدي احياناً الى تبنيها مواقف سياسية واجتماعية محافظة ان لم تكن رجعية. وهناك امثلة غير قليلة يمكن ذكرها عن الحركات النسوية وحركات البيئة في فرنسا. ومن الواجب التاكيد على ان التمهيد مع الصراع الطبقي لا يعني اخضاع النضال ضد علاقات السيادة في الميدان غير الاقتصادي الى الكفاح الطبقي.

(٢) ان الموضوعتين الاساسيتين في المادية التاريخية واللتين تشكلان الاساس لفهم المادي للتاريخ تتمثلان في الميل الضروري للتوافق (correspondance)، او لعدم التناقض

ما بين مستوى تطور القوى المنتجة وبين طبيعة علاقات الانتاج من جهة، وما بين القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي الحقوقي - السياسي - الايديولوجي من جهة اخرى، وقد تستغرق العملية التاريخية التي تؤدي الى هذا التوافق فترة زمنية طويلة. وما يؤلف جوهر المادية التاريخية هو الاولوية التي تعطيها قوانين التوافق الى البنى المادية (القوى المنتجة والقاعدة الاقتصادية) على البنى غير المادية (علاقات الانتاج والبناء الفوقي). ففي حالة عدم التوافق ووجود التناقض بين هذين المستويين من البنى، تتكيف البنى غير المادية، خلال فترة زمنية تطول او تقصر وسواء بشكل اصلاحي تدرجي او ثوري عنفي، للتوافق مع البنى المادية، ولا يحدث العكس. بمعنى آخر، تحدد البنى المادية، في نهاية المطاف *in the last instance* على حد تعبير التوسير، البنى غير المادية. وتعبير نهاية المطاف يهدف الى ازالة اي فهم ميكانيكي وحيد الجانب للعلاقة بين البنى المادية وغير المادية، وتحديداً بين البناء الفوقي والقاعدة الاقتصادية، حيث يفترض، بل يشترط علاقة التأثير المتبادل بين المستويين والاستقلال النسبي للبناء الفوقي.

واكثر الانتقادات النظرية التي توجه الى المادية التاريخية تكمن في الطريقة التي «توفق» بها بين ثلاثة افكار هي: فكرة الدور المهم الذي تلعبه البنى غير المادية، اي علاقات الانتاج ومختلف مستويات البناء الفوقي ضمن التشكيلة الاجتماعية، وفكرة ان التاريخ تحكمه قوانين موضوعية تضعه على خط سير ارتقائي وان كان طرزونياً، وفكرة الدور الحاسم الذي يمكن ان يلعبه العمل السياسي.

وتبدو مقاربة التشكيلة الاجتماعية، التي يعتمد منهجها على دراسة الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية في سياق الفعل الديالكتيكي لمختلف مستويات البنائين الفوقي والتحتي للتشكيلة اكثر ثراء وفاعلية من المقاربة التي تركز على تحليل التناقضات ضمن مفهوم نمط الانتاج بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج لفهم علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الصراع الطبقي ومختلف التناقضات الاخرى التي ليس مصدرها تناقضات نمط الانتاج السائد والتي ليست مجرد انعكاس لها. فبرأي كيركوت، لاتسمح المقاربة التي تعتمد في التحليل على تناقضات نمط الانتاج، بالاحاطة وفهم التفصيل لمختلف التناقضات مع نمط انتاج سائد، ويصح ذلك بشكل خاص في ظل واقع اجتماعي اقتصادي تتكون قاعدته الاقتصادية من «وحدة» بين قوى انتاج وعلاقات انتاج متباينة في مستوى تطورها ومتشابكة لم تتبلور فيها التراتبية بصورة طاغية لمصلحة نمط الانتاج الارقي.

## العلاقات الاجتماعية - السياسية في بابل

### بين القرنين السابع والرابع ق.م.

#### (الحلقة الأخيرة)

محمد دندمايف

#### القضية الزراعية:

كانت الزراعة أهم فروع الإنتاج في بابل، والشرق القديم عموماً. وتشير نصوص (الكادسترا) إلى أن جميع الأراضي المزروعة كانت دقيقة التحديد بعد إجراء المسح عليها. وكان القسم الأكبر منها ملكاً لعائلة الملك، المعابد، كبار التجار، العسكريين وموظفي المعابد والإدارة. أما صغار الملاكين (بضمنهم الحرفيون) فيملكون قطعاً صغيرة، لاسيما قرب المدن الكبيرة، بمساحة تتراوح بين ثلث هكتار وبضعة هكتارات. ولأن ثمن الأرض كان مرتفعاً فقد انصب الاهتمام على استثمارها بالبساتين، والنخيل بالدرجة الرئيسية. أما الحبوب فكان الشعير من أهمها، إلى جانب الحنطة الرومية والقمح والكتان والحمص والسمسم، وغير ذلك. ويجري البذر بكثافة يقدر متوسطها بنحو ١٥٠ لترًا من الشعير لكل كور (حوالي ١٢٢٣٠ م<sup>٢</sup>) من الأرض. وهذا ما يعادل ٦٧,٥ كغم من الشعير في الهكتار الواحد، يتراوح محصول الشعير بين ٧٨٥,٥ و ٢٣٧٥ لتر من الهكتار الواحد. وفي المتوسط حوالي ٥٧٥ لتر من الهكتار. ويبدو أن معلومات هيرودوت وسترابون عن أن إنتاجية الشعير في بابل، والمقدرة بنحو ٢٠٠ — ٣٠٠ ضعف، مبالغ بها. الحراثة بواسطة المحراث، يبدأ موسم الحصاد في نهاية شهر نيسان ويستمر حتى نهاية حزيران. تعتبر التمور من الغذاء الرئيسي، بالإضافة إلى الشعير. يقدر معدل إنتاج النخيل بنحو ٤٩ كور تمر من كور واحد من الأرض. وكانت أشجار النخيل تعطي ثمارها

في السنة السادسة من عمرها.

بالنظر لشحة الأمطار فقد كان للري أهمية كبيرة في الزراعة. ولكثرة الطمي لم تكن هناك حاجة للتسميد. كان هناك عدد كبير من الأقنية التي تعود ملكيتها للدولة، وأحياناً للمعابد أو لبعض الأفراد. وبوسع جميع المزارعين والمستأجرين استخدام قنوات الري، مقابل مبلغ محدد.

كان ملاكو الأرض الصغار يزرعون أراضيهم بأنفسهم، والاستعانة بأفراد العائلة. أما الملوك والمعابد والملاكون الكبار فكانوا يؤجرون أراضيهم لمزارعين آخرين، أو يؤجرون الجزء الأكبر منها. وبدل الإيجار يحدد البدل مسبقاً، عند توقيع العقد، ويتوقف على نوعية الأرض. وكان البدل يقدم إما عيناً أو نقداً (sutu). أو أن مالك الأرض يحصل على ثلث المحصول والمستأجر على الثلثين الآخرين (imittu). مدة العقد سنة واحدة، وبالنسبة للأرض البكر ثلاث سنوات. وجرت العادة أن لا يدفع المستأجر عن الأرض البكر في السنة الأولى، وفي السنة الثانية لا يدفع سوى جزء من البدل الاعتيادي، ويدفع البدل الاعتيادي في السنة الثالثة. وفي الغالب كانت الأرض تؤجر للمستأجرين الكبار بمساحات شاسعة، وهؤلاء بدورهم يقسمونها إلى قطع صغيرة ويؤجرونها إلى مستأجرين ثانويين. ويحصل أحياناً أن يتفق شخصان أو أكثر على استئجار قطعة أرض واحدة. بالإضافة إلى ذلك استخدم في الزراعة وبشكل واسع عمل الأجراء، وخاصة في مواسم الحصاد وجمع المحاصيل.

شكل الموقف من الأرض الأساس الذي بموجبه تحدد طبيعة المجتمع البابلي. لكن لا يمكن القيام بذلك إلا بعد دراسة عدد كبير من الوثائق. ويمكن القول إن هذه القضية قد درست في أوروک (القرن السادس ق.م) ونيبور (القرن الخامس ق.م) بشكل أفضل مما هي عليه في المدن الأخرى.

أوضحت الباحثة Cocquerillat D. كيف أقدم الملوك الآشوريون الجدد، حسب نزواتهم وأهوائهم، على تغيير نظام الملكية للأرض. لقد صادر آشور بانيبال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية من سكان أوروک وحول ملكيتها إلى معبد إيانا. فادت تلك الإجراءات إلى تغييرات اقتصادية وزراعية كبيرة. وبالرغم من بقاء الملكية الخاصة للأرض، إلا أن الجزء الأكبر من الأراضي الزراعية في أوروک أصبح من أملاك معبد إيانا. وكانت بعض المزارع الواقعة في الأرياف القريبة من أوروک تعود ملكيتها للأشخاص يعيشون في مدن أخرى. وفي نفس الوقت كان معبد إيانا يملك عقارات ضخمة في مراد،



وسيبار، وفي المنطقة الساحلية. بينما كانت لبعض المعابد من مدن أخرى (مثل معبد ايبابارا في سيبار) أراض زراعية في أوروک. وأخيراً، كانت هناك الأراضي الزراعية التي يعود محصولها بشكل مباشر إلى الملك.

إن إقدام الملوك الآشوريين على إعادة توزيع الأراضي الزراعية ليس دليلاً على عدم وجود الملكية الخاصة للأرض في بلاد الرافدين القديمة. يبدو أن الملوك الآشوريين تصرفوا بالأرض على الأغلب وفق شريعة الفاتحين. لقد سبق لنا الإشارة إلى أن الجزم بعودة ملكية الأرض في الشرق القديم إلى الملك هو مجرد رأي لا يجد ما يدعمه. لنتوقف بشيء من التفصيل عند هذا الموضوع.

أشار بايزر Peiser F. في نهاية القرن الماضي إلى أن ملكية الأرض — من الناحية النظرية — تعود إلى الآلهة. لذلك ينبغي على الملوك أن يدفعوا الضريبة إلى المعبد الذي يكون إلهه المالك الحقيقي للأرض. وطرح مايسنر ب. B. Meissner رأياً مشابهاً، حيث كان يعتقد أنهم كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للآلهة. ويشير شوينسر Schwenzner W. إلى أن الأرض التابعة إلى المعابد كانت حتى القرن السادس ق.م. (على أقل تقدير) تعتبر هبة ملكية للمعابد، وأن الأرض كلها ملك الإله، وبالتالي فهي ملك ممثله على الأرض، أي الملك. ويؤكد ايبلينغ Ebeling E. أن الأرض ظلت منذ العصور المبكرة للتاريخ السومري وحتى العصر البابلي الحديث تعتبر من أملاك الملك الخاصة. في حين يرى البعض أن الملك خلال حكم الإخمينيين كان، من الناحية النظرية، يعتبر المالك الشرعي للأرض (Fryer R., Carscia G.).

لكن دياكونوف يؤكد على أن الملك لم يكن المالك الوحيد للأرض في بابل القديمة. ويمكن أن نعتز على رأي مشابه عند بعض العلماء الغربيين أيضاً. فقد أشار سان نيكولو San Nicolo منذ عام ١٩٣١ إلى أنه لو حكمنا وفق ما يتوفر لنا من وثائق عن بلاد الرافدين فيمكن القول إنه لا تتوفر أية معلومات لصالح الادعاء بأن الملك هو المالك الوحيد للأرض، منذ منتصف الألف الثالث ق.م. لكن ليس من المستبعد أن تكون هذه الوضعية هي التي كانت سائدة بالفعل بالنسبة للمراحل الأسبق، لكنها لم تثبت حتى الآن. أما Gelb فيؤكد على أن بلاد الرافدين، ومنذ الزمن السومري، لم تعرف أية نظرية تكرس الحق في ملكية كل الأرض للملك. لذلك ليس هناك أي أساس للجزم بأن الملك كان المالك الأعلى للأرض في بلاد الرافدين القديمة.

لقد أثبتت كرداسيا Cardascia G. أن البابليين لم يطوروا مفهوماً مجرداً عن الملكية.

وبدلاً من تعريف الملكية، الذي صاغه المشرعون الرومان (الحق بالامتلاك والاستعمال والتصرف) فقد شاع بينهم مفهوم واحد: حيازة الشيء أو الإنسان. غير أن هذا الأمر لا يغير أي شيء من حيث الجوهر. لقد كانت الأرض من الناحية النظرية والعملية ملكاً لمن يزرعها، في العهد البابلي الحديث، وفي العهد الآخميني على أقل تقدير. ويستثنى من هذا الأمر المستاجرون والمستوطنون العسكريون الذين كانوا يعملون بالأجرة، بأمر من الملك. لذلك لم تعرف هذه المرحلة شيئاً مما يسمى بنظرية الملكية العليا للأرض. لقد كانت الأرض تباع وتؤجر وتهدى بكل حرية وبدون موافقة الملك المسبقة، وهذا ما تؤكدُه مئات الوثائق المتوفرة.

لكن مع توسع المناطق المحتلة، أخذ المحتلون الفرس يستحوذون على الأراضي الزراعية (والخصبة منها على الخصوص) التي تسلب من السكان المغلوبين على أمرهم. وكان الملك المنتصر في مثل هذه الحالات يستحوذ على أملاك الملك المهزوم وأملاك المقربين منه، خاصة إن لم يستسلموا للفرس طواعية. وكان الآخمينيون يوزعون الأراضي المغتصبة على شكل ملكيات كبيرة لتصبح ملكاً متوارثاً للمالكيين الجدد: أفراد العائلة المالكة، النبلاء من الفرس، وكبار الموظفين وغيرهم. ويتحول جزء من هذه الأرض إلى ملكية العاهل الملكي. كانت هذه الضيعات معفاة من الضرائب.

في عهد الآخمينيين شاع النظام التالي لاستغلال الأرض: تنشأ مستوطنات للعسكريين في الأراضي التابعة للملك وتوزع عليهم الأرض ليقوموا بزراعتها جماعياً، وفي المقابل يدفعون الضريبة العينية أو النقدية، وتعتبر بديلاً عن الخدمة العسكرية. وكانت كل قطعة تحمل اسماً خاصاً بها مثل: قطعة الفرس وقطعة القوس، وقطعة العربية، الخ... وسميت كذلك لأن العاملين في هذه الأراضي من العسكريين يفترض بهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية، فمنهم صاحب القوس ومنهم الفارس، وقائد العربية، وهكذا.

كانت الأوضاع الاقتصادية لأصحاب هذه القطع مستقرة نسبياً في المرحلة الأولى من السيطرة الآخمينية. كانت الفتوحات العسكرية متواصلة، والملوك منهمكين في حروبهم. وعندما يتوجه أصحاب الأراضي إلى الحرب فإن الأرض تزرع من قبل عوالمهم. وعندما تكون الدولة في غنى عن خدمات هؤلاء الناس كمحاربين، فعليهم دفع الضريبة. لكن تدريجياً ومع مرور الوقت أصبحت عملية استبدال الخدمة العسكرية بالضريبة مجرد عادة. لكن الضرائب من الناحية الأخرى أثرت سلباً وبدرجة كبيرة على العسكريين البسطاء. فمن أجل دفع الضريبة كان عليهم اللجوء إلى المرابين. وفي مثل هذه الحالة

يضطرون بالطبع إلى رهن الأرض التي بحوزتهم. وقد لا يستطيع المقترض تسديد الدين واستعادة الأرض. لا يحق للدائن أن يستملك هذه الأراضي بل يحق له أن يستحوذ على المحصول فقط. وفي حالة وفاة المالك تعود الأرض إلى الورثة، أما في حالة عدم وجود الورثة فإن الأرض تعود إلى الدولة. ومع ذلك فقد أصبح الكثير من المالكين مكبلين بالديون، بحيث أصبح الدائن هو المالك الفعلي للأرض. بالإضافة إلى ذلك كان يحق للدائن تاجير الأرض إذا كان صاحبها (المدين) في الخدمة العسكرية. وقد حصل الموظفون الصغار على قطع صغيرة من الأرض وفق نظام الحصص. وكانت الأرض تنتقل بالوراثة بموجب الإدارة الملكية.

### الحرف

يتردد في الكثير من الوثائق حرف: حجار، حداد، نحاس، بناء، صائغ، خبان، صانع البيرة، غسال، حائك، الخ... كان الحرفيون يبيعون ما ينتجونه في السوق. لكنهم في الغالب كانوا يعملون بعقود موقعة مع الزبائن لصناعة شيء ما مقابل سعر محدد. ويعملون أحياناً مقابل حصولهم على الطعام فقط.

### الضرائب

لم يحظ موضوع الضرائب في بابل خلال الفترة بين القرنين السابع والرابع ق.م. بالدراسة الوافية من قبل الباحثين. لقد كانت بلاد بابل من أغنى مقاطعات الدولة الاخمينية. وبعد الإصلاحات التي قام بها داريوس الأول كان مبلغ الضرائب التي تدفع إلى الدولة سنوياً يقدر بنحو ١٠٠٠ تالانت من الفضة. وبما أن بلاد الرافدين كانت خالية من مناجم الفضة، كان على السكان الحصول عليها من بلدان أخرى مقابل منتجات زراعية وحرفية. ويبدو أن الملك كان يحصل على عشر الواردات كضريبة تدفع له. يمكن متابعة آلية جمع الضرائب التي كانت معروفة في القرن الخامس ق.م. في النصوص التي تعود إلى أرشيف دار مورشو للتجارة. كانت الضرائب تدفع إما فضة أو عينياً (شعير، طحين، ماشية، بيرة، الخ...). ويشير كرادسيا إلى الاحتمالات النظرية والعملية التالية:

١- يقوم المزارع بتسديد الضريبة بشكل مباشر، دون اللجوء إلى خدمات دار مورشو.

- ٢- يلجأ المزارع إلى دار موراشو ليقوم بتسديد الضرائب إذا كان عاجزاً عن تسديدها بشكل مباشر. يقوم دار موراشو بتسديد الضريبة عن المزارع، وفي المقابل يحصل منه على سند بمبلغ الدين الذي بذمته.
- ٣- إذا كان لدى المزارع حساب جارٍ (إذا تحدثنا بلغتنا المعاصرة) في بنك موراشو، فإنه يطلب من البنك أن يقوم بتسديد الضريبة.
- ٤- إذا أصبحت أرض المزارع تحت تصرف دار موراشو، فإن الدار تقوم بتسديد الضريبة، على أن يقوم المزارع بتسديد هذا المبلغ فيما بعد.
- ٥- إذا أجرة الأرض إلى دار موراشو فإن الدار تقوم بتسديد الضريبة، بالإضافة إلى دفع بدل إيجار الأرض.
- إذا ذهنت الأرض أو إذا أجرة إلى جهة أخرى، غير دار موراشو، فإن تسديد الضريبة يتم وفق ما ورد في الفقرتين ٤ و ٥.
- وعلى العموم كانت الضريبة على الأرض ثابتة لا تتغير مع مرور السنين. وخلافاً للرأي الذي روج له بعض الباحثين، فإن دار موراشو لم تلعب دور الجهة الملتزمة أمام الدولة بتسديد الضرائب، بل كانت تسديدها بناء على رغبة دافعي الضرائب أنفسهم. وعادة تقوم هذه الدار بتسديد الضرائب ليس إلى خزانة الدولة بشكل مباشر، بل إلى رؤساء المناطق المعنية، ويقوم هؤلاء المسؤولون فيما بعد بتحويل المبالغ إلى الخزانة. بالرغم من التغيرات الاقتصادية الكبيرة التي عرفتتها البلاد، إلا أن قيمة الضريبة التي حددت في عهد داريوس الأول لم تتغير.

### وضعية المعابد

كانت المعابد تدار من كبار ملاكي الأراضي وملاكي العبيد، وكان لها نشاطها الواسع في مجال التجارة والأعمال الربوية. يمكن التعرف على بنية إدارة المعابد من خلال تتبعنا لما كان يحدث في معبد إنا في أوروك. كان هذا المعبد، كما كشف عن ذلك سان نيكول، يدار من قبل مجلس الكهنة. كانت الإدارة العليا للمعبد تتألف من ممثل الملك في أوروك ورئيس مجلس إدارة المعبد ونائيه ومدير المعبد وأحد الكتبة. منذ سنة ٥٥٣ ق.م. (عهد نبونيد) أخذ تأثير الدولة على المعابد يزداد باطراد. وأصبح في مجلس إدارة المعبد كل من ممثل الملك والمسؤول عن خزانة الملك، الذي يلعب دور الممثل المالي الحكومي في المعبد. وترد كثيراً في النصوص التي تعود إلى عهد حكم قمبيز عبارة «كاتب الملك تم

تعيينه في إثناء، إذ كان يشرف على الحسابات في المعبد. منذ عهد نبونيد أصبحت معظم شؤون المعبد تدار من قبل ثلاثة أشخاص: رئيس مجلس إدارة المعبد، النائب، ومفوض مبعوث من الملك. وكثيراً ما ترد كلمة «المقوضون qepani». وكانت القضايا المهمة تناقش في اجتماع يضم الموظفين كاملي الحقوق في المعبد وممثلين عن المواطنين الأحرار.

يكاد الوضع في معبد إتنا يكون مشابهاً لما كان عليه الوضع في المعابد الكبيرة الأخرى، مثل معبد الإله الأعلى في بابل (إيساجيلا)، ومعبد إله الشمس شاماش في زيبار (إيبابارا)، ومعبد الإله نابو في بورسيبا (أزید) وغيرها.

تشكل الضرائب مصدراً مهماً من موارد المعابد، ومن أهمها ضريبة العُشر. كان الناس في الغالب يسددون هذه الضريبة عينياً (شعير، تمر، سمس، ماشية، صوف، أسماك، طيور، الخ...). وفي بعض الحالات تسدد فضة ومنتجات معدنية.

تشكل ضريبة العُشر ١٠٪ من دخل دافع الضريبة. نعتقد أن هذه الضريبة كانت تدفع من قبل جميع السكان، كل حسب دخله. وكان المواطن يسدد هذه الضريبة إلى المعبد القريب من أرضه أو مصدر دخله. ويخضع لهذه الضريبة أصحاب البساتين والخبازون والمزارعون والرعاة، ومختلف الموظفين. وكان الحرفيون ملزمين أيضاً بدفع الضريبة عن منتجاتهم الحرفية.

عرفت سياسة المعابد في بلاد الرافدين خلال العهد الاخميني تغيرات كبيرة. فقد كان الملوك الأكديون وأفراد عوائلهم يسددون ضريبة عشر سنوياً بالذهب، أو الفضة والماشية. أما الملوك الاخمينيون، وبالرغم من أنهم حافظوا على ضريبة العُشر والزموا المواطنين بدفعها سنوياً، إلا أنهم كفوا عن تسديدها. أضف إلى ذلك أن الملوك الكلدانيين قلما كانوا يتدخلون في شؤون المعابد. وكانت مساهمة المعبد في واردات الدولة ضئيلة جداً، لا بل إنها كانت تحصل على هبات الملوك (أراض زراعية أو عبيد وغيرها). ولكن آخر الملوك الكلدانيين، نبونيد، الذي ارتبط عهده بإصلاحات دينية كبيرة، أنشأ «خزينة الملك» الخاصة حيث كانت تحول إليها نسبة من واردات المعبد.

بعد احتلال الفرس بابل لم يبق كورش بإلغاء الإصلاحات التي قام بها نبونيد، والهادفة إلى تقليص ملكية المعابد، إنما حصل العكس. أصبح على المعابد في العهد الاخميني أن تدفع للدولة ضرائب كبيرة: ضرائب عينية من الماشية، الشعير، السمس، التمر، الخمر البيرة، التوابل والصوف وغيرها، كذلك تمويل موظفي الدولة بالمؤن

(رؤساء المناطق والكتبة وغيرهم)، وتأمين العلف للماشية التي تعود إلى الملك. بالإضافة إلى ذلك كانت المعابد ترسل العبيد التابعين لها للعمل في الممتلكات الحكومية، كفلاحين ورعاة وغير ذلك.

كان موظفو الإدارة الملكية والعملاء يسهرون على نجاح عملية جبي الضرائب وتسديدها من قبل المواطنين في موعدها المحدد. بالإضافة إلى ذلك أنيطت بهؤلاء الموظفين مهمة مراقبة ممتلكات المعابد، وكانوا يقومون بالتفتيش على هذه الممتلكات بشكل دوري. ويشرفون على عمل العبيد المبعوثين من المعابد لإنجاز أعمال معينة للدولة.

### النقود

الاساس في التجارة الداخلية في عهد الكلدانيين والاخمينيين هي سبائك الفضة وليست النقود المسكوكة. تحتوي هذه السبائك على نسبة من الشوائب. أكثر ما يتردد في النصوص هي صيغة: *Kaspu sa ina isten siqlipitqa* وتعني حرفياً الفضة الحاوية على ثمن جزء من الشوائب في الشيكل الواحد. ويرد بكثرة أيضاً ذكر «الفضة البيضاء» *Kaspu pesu*، و«الفضة النقية» *Kaspu galu*. ونادراً ما يرد ذكر الفضة الحاوية على شوائب أخرى.

كانت السبائك تختتم باختام خاصة ومرفقة بالدمغة (*ginu*) ويتم وزنها عند كل عملية بيع وشراء. وكان الذهب يعتبر سلعة، ولم يستعمل كنقود. نسبة الذهب إلى الفضة تساوي نحو واحد إلى ١٣,٢.

بدأ ضرب النقود لأول مرة في ليبيا حوالي ٦٣٠ — ٦٤٠ ق.م. وفي سنة ٥١٧ ق.م. أدخل داريوس الأول وحدة نقدية لسائر البلاد، وهي الوحدة التي شكلت أساس النظام النقدي عند الاخمينيين. وتزن قطعة الذهب ١,٤ غم. وكان الشيكل من الفضة وسيلة التبادل العادية، ويزن ٥,٦ غم. وهناك عملات أصغر، من النحاس. لكن قبل فتوحات الإسكندر المقدوني لم تستعمل النقود في البلدان الواقعة خارج آسيا الصغرى وخارج نطاق العالم الفينيقي — الفلسطيني. وكان للخواص، كما يبدو، في بلاد بابل، الحق في صب سبائك الفضة، على أن تمنع شكلاً خاصاً مميزاً. كان القصر والمعابد قد ابتكرت نظاماً محدداً لجبي الضرائب الكثيرة وجمع الهبات التي يقدمها المتبرعون. وقد اعتمدت إدارة الدولة في العهد الاخميني هذا النظام. وفي الغالب كانت الفضة التي تدفع للضرائب

من النوع الرديء، وللحصول على سبائك متجانسة كانت قطع الفضة تجمع وترسل إلى ورش خاصة تابعة للدولة أو المعبد حيث تجري تنقيتها وإعادة صبها في سبائك جديدة بنوعية ووزن قياسيين، ثم تحفظ في الخزائن.

بعد إصلاحات داريوس الأول أصبح المعدن الثمين الذي تضرب منه النقود تحت إشراف الملك مباشرة، وكان الجزء الأكبر منه غير مسكوك. وقدرت كمية الذهب في خزائن الاخمينيين، عند نهاية الدولة الفارسية، بنحو ٢٣٥٦٣٠ تالنت.

وهكذا نلاحظ أن النقود التي تجمع كضرائب وأتاوات حكومية تخزن في الخزائن عشرات السنين، أي تسحب من التداول. لذلك كانت بلاد بابل تعاني من شحة في الفضة في العمليات التجارية، والحق هذا الوضع ضرراً فاحشاً في العلاقات السلعية النقدية، لأن الناس اضطروا للجوء إلى المقايضة.

### التجارة

ظلت التجارة خلال العهد البابلي الحديث والعهد الاخميني بيد تجار محترفين بكل معنى الكلمة tamkaru. يتردد في الكثير من النصوص اسم تجار التمور وتجار الماشية، وغيرهم، مما يدل على التخصص في التجارة. وكان لبعض التجار علاقات تجارية مع دول أخرى، وعلى الخصوص مع مصر التي يستوردون منها الشب ويبيعونه في بابل. وفي الداخل ازدهرت تجارة الشعير والماشية والتمور والفاكهة والأسماك والذهب وغيرها.

أثرت التغيرات الكبيرة في الحياة الاقتصادية للبلاد على دور التاجر في المجتمع البابلي خلال الألف الأول ق.م، مقارنة بالعهد السابقة. لقد أصبح بوسع أي فرد أن يمارس التجارة، ولم تعد مقتصرة على التجار المحترفين وعملائهم. وهذا ما يميز التجارة الداخلية على الخصوص، والتي تتوفر لدينا حولها الكثير من الوثائق. انتعشت التجارة الداخلية بين مختلف مناطق ومقاطعات البلاد بشكل كبير. وكانت الأنهار واسطة النقل الرئيسية. وانتعشت المشاركة في التجارة، وكان لها أهميتها الكبيرة أيضاً. ونقصد بالمشاركة أن يشترك شخصان أو أكثر في صفقة تجارية.

ما يميز بلاد بابل في الفترة المحصورة بين القرنين السابع والخامس ق.م. هو سيطرة بيوت الأعمال العملاقة على الاقتصاد. كانت هذه البيوت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية والعشرات من العبيد، وعدداً كبيراً من الدور المنتشرة في مختلف

المدن. ومن أقدمها وأشهرها بيت إيجيبي، الذي كان قائماً قبل الغزو الفارسي للبلاد (أو لذكره أنه يرجع إلى سنة ٧١٥ ق.م. ويرد ذكره بانتظام في الوثائق التي تعود إلى الفترة ٦٩٠ - ٤٨٠ ق.م.)، وواصل نشاطه في عهد كورش، وقمبيز، وداريوس الأول. كان نشاطه يتركز على عمليات بيع وشراء واستبدال الأراضي والدور السكنية والعبيد وغير ذلك. أضف إلى ذلك أن بيت إيجيبي كان يمارس الأعمال المصرفية، كأي مصرف محترف: تقديم القروض، استلام وتسليم الحوالات المالية (الكمبيالات) تسديد الديون عن الزبائن، إنشاء وتمويل المؤسسات التجارية، وحفظ الودائع. لكن أعضاء بيت إيجيبي، كغيره من بيوت الأعمال البابلية، لم يستخدموا الودائع التي يؤمنها الزبائن للأقراض، بل يستخدمون أموالهم الخاصة. كان المودعون من رجال البلاط أو من الأشخاص الذين كانت لهم مصالح مالية وتجارية مشتركة مع بيت إيجيبي. وكان البعض من أعضاء بيت إيجيبي يعمل في خدمة البلاد في العهد الكلداني وفي العهد الأخميني.

لم يقتصر نشاط بيت إيجيبي على التجارة الداخلية، بل كان له دور فعال وهام في التجارة الخارجية أيضاً، وخاصة في عهد الأخمينيين، العهد الذي عرف هدوءاً نسبياً في جميع بلدان الشرق، بعد عشرينات القرن السادس ق.م. وعرف ازدهاراً اقتصادياً وفتح طرقاً بحرية جديدة، وتأمين طرق القوافل القديمة وفتح طرق جديدة، واتساع ظاهرة استعمال النقود في بعض البلدان، بالإضافة إلى الاحتكاك المباشر بين مختلف الشعوب والأقوام. كل ذلك ساعد على تطوير التجارة الخارجية بمقاييس لم يشهدها العالم من قبل. وكان للتباين في الظروف المناخية والطبيعية للبلدان الواقعة في حدود الدولة الأخمينية دور كبير في تطوير التجارة. وعرفت التجارة على الخصوص نشاطاً حيوياً بين بلاد بابل وكل من سورية ومصر وبلاد آسيا الصغرى، حيث كان التجار البابليون يشترون الحديد، النحاس، القصدير، الذهب، الفضة، خشب البناء، الخمر، الفاكهة، وغيرها. لقد كانت بابل (بالإضافة إلى مصر) مصدر الحبوب في الدولة الأخمينية. أضف إلى ذلك أن المدن البابلية كانت مراكز كبيرة لصناعة الملابس الصوفية التي عرفت انتشاراً واسعاً في عيلام.

أما بيت مورشو، فقد كان يمارس النشاطات التجارية وأعمال الربا في جنوب ووسط البلاد خلال القرن الخامس ق.م. (ورد ذكره في نصوص تعود إلى ثلاثة أجيال متتالية). وقد تحدثت طبيعة نشاط بيت مورشو بالتغيرات التي أحدثتها الفرس في نظام الملكية في بلاد الرافدين. قسموا الأرض إلى حصص وزعت بين وجهاء الفرس



وتعاونيات العسكريين والموظفين، الذين لم يسبق لهم أن عملوا في الزراعة، بل كانوا يؤجرون الأرض إلى مزارعين آخرين. كان بيت موراشو يستأجر هذه الحصص مقابل بدل محدد يدفعه إلى أصحابها، ويسدد عنهم الضرائب إلى خزانة الدولة. لكنه نادراً ما كان يقوم بزراعة هذه الأراضي باستخدام العبيد التابعين له، بل يقوم بتوزيعها على مستأجرين ثانويين، ويقدم لهم ما يلزم من ماشية وبذور ووسائل الإنتاج والماء للسقي. وبكلمة أخرى، يمكن القول إن بيت موراشو كان عبارة عن مؤسسة للإقراض الزراعي ومشرفاً على موارد الحصص، إذ كان يقوم بدور الوسيط بين المزارعين ومالكي الأرض. لقد بلغت واردات بيت موراشو لعام ٤٢٢ / ٤٢٢ من التمر فقط نحو ٢٠ ألف كور (ما يعادل ٣٥٠ كغ من الفضة).

كان بيت موراشو، مثل أصحاب البنوك المعاصرين، يدير نشاطه بموارد وممتلكات الآخرين. لكن هناك اختلافاً مدهشاً للغاية بين هؤلاء وأولئك: الموارد عند موراشو ليست نقوداً بل ممتلكات ثابتة. لئن كانت البنوك تقوم بجمع عند كبير من رؤوس الأموال الصغيرة لإقراض المبالغ اللازمة للمؤسسات التجارية والصناعية، فإن بيت موراشو يقوم بالعكس تماماً: يستأجر مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، ثم يقسمها إلى قطع صغيرة ليؤجرها إلى مستأجرين ثانويين. وخلافاً لبيت إيجيبي، الذي كانت له استثمارات كبيرة في التجارة، لم يكن لبيت موراشو دور يذكر في التجارة الخارجية. لكنه كان يقوم ببيع المنتجات التي ترد إليه في السوق الداخلية، ويسدد الضرائب بالفضة. وهكذا، يمكن القول إن بيت موراشو كان بنكاً ومؤجراً ومستأجراً للأرض ومؤسسة تجارية.

لقد أثر نشاط بيت موراشو تأثيراً وبيلاً على مجمل اقتصاد البلاد، لأنه كان يقود إلى إفلاس أصحاب الأرض. فلئن كان بيت موراشو في بداية الأمر يقدم السلف لأصحاب الأرض، فإنه أخذ تدريجياً، وبعد بضع عشرات من السنين يحل محلهم، مركزاً الأرض في قبضته.

## الأسعار

كانت أسعار مواد الاستهلاك في القرن السادس ق.م. على النحو التالي:  
كور واحد (١٥٠ لتر) من الشعير أو التمر يساوي شيكلاً واحداً فضة. كور سمسم — ١٠ شيكل؛ ثلاثت واحد من الملح — شيكلاً واحداً؛ من الصوف ٥٠ شيكلاً؛ الثور

— نحو ٤٠ شيكل؛ النعجة — ٢ شيكل؛ الحمار — ٣٠ شيكلاً. وبالرغم من أن المعادن مستوردة، إلا أن ائمانها رخيصة نسبياً. مثلاً: ١٠ تالنت من النحاس المستورد من قبرص بيعت بثلاثة مَن وثلاث شيكل؛ ٣٧ من الرصاص — ٥٥,٥ شيكل؛ ٣ تالنت و٥٣ من شب مصري — مَن وثلاث شيكل. لكن أسعار خشب البناء كانت مرتفعة كالسابق. وكان متوسط الإيجار السنوي للدار ١٢ شيكلاً.

ارتفعت الأسعار خلال العهد البابلي الحديث بشكل تدريجي، كما كان عليه الأمر منذ عدة قرون. لم تحدث تغيرات فجائية في الحياة الاقتصادية للبلاد بعد الاحتلال الفارسي؛ بقيت أسعار مختلف السلع في البداية ثابتة تقريباً، وعند نهاية الحكم الأخميني ارتفعت بنحو مرة ونصف. وهذا الارتفاع التدريجي للأسعار، الذي كان يميز بابل عبر تاريخها الطويل، يتناقض مع الرأي الشائع حول تدهور الاقتصاد وانخفاض المستوى المعاشي. ويجب أيضاً أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن زيادة الأسعار كانت تترافق مع زيادة في الأجور... ونعتقد أن زيادة الأسعار في العهد الأخميني ارتبطت جزئياً بنمو الجهاز الإداري.

## الجهاز الإداري

لم يزل هذا الموضوع الاهتمام المطلوب، ولم يحظ بالدراسة التفصيلية من قبل. لذلك سنتوقف باختصار شديد عند الخطوط العريضة.

عرفت المقاطعة الإدارية باسم pahatu ورئيسها (amel) bel pahatu، ونائبه mati saknu sa (amel)، ورئيس المدينة (amel) saknu temi.

كانت إدارة البلاط تعمل تحت إشراف «رئيس القصر» (amel) rab ekali وكانت تضم عدداً كبيراً من موظفي القصر والسعاة (mar sipri sarri). وكان لأفراد العائلة المالكة والأعيان الفرس من أصحاب الضياع الكبيرة أجهزة إدارية خاصة تابعة لهم.

بالرغم من أن التقاليد الإدارية لم تنقطع بعد سيطرة الفرس، إلا أن البلاد عرفت تغييرات تدريجية كبيرة في مجال الإدارة، وفي المصطلحات المستخدمة لتصنيف الموظفين. شاع على الخصوص استخدام المصطلحات والمراتب الإيرانية. كان المرزبان على صلة وثيقة بالجهاز المركزي للإدارة، ويخضع للمتابعة المستمرة من قبل الملك وموظفي البلاط، وخاصة من قبل الجهاز السري. وديوان المرزبان مشابه لديوان الملك في عاصمة الدولة الأخمينية، ويعمل فيه الكثير من الموظفين والكتبة، تحت إشراف رئيس

الديوان (bel temi). بالإضافة إلى ذلك هناك رئيس الخزينة (ganzabara) والمنادي (az-dakara) والجباة، أو جامعو الضرائب (hatanu kaspi, rab miksi)، والمحاسب (marakara)، ومحققون عدليون (frasaka)، وكتبة... ويبدو أن دوائر الدولة أخذت في استخدام اللغة الآرامية منذ العهد الكلداني.

كان الملك يدفع لموظفي الجهاز الحكومي رواتبهم فضة غير مسكوكة، والكثير منهم يقبض رواتب عينية (kurummatu) إضافية: حبوب، تمر، صوف، وغيرها. وتشير الوثائق إلى أن هذا الأسلوب كان متبعاً في مصر وبلاد فارس. ربما كان الموظفون في آسيا الوسطى يتقاضون رواتبهم فضة مسكوكة (على أقل تقدير كان الاجراء في آسيا الوسطى يتقاضون رواتبهم في القرنين الخامس والرابع ق.م. على هيئة نقود فضية، وذهبية نحاسية).

### العلاقات الأتنية

أغرقت بلاد بابل بالقبائل الآرامية منذ عهد الملوك الكلدانيين. كانت هذه القبائل تعيش جنباً إلى جنب مع سكان البلاد الأصليين. وقد سبي نحو عشرة آلاف يهودي إلى بابل، بالإضافة إلى أسرى آخرين من اقوام وشعوب أخرى. وبعد احتلال الفرس لبلاد الرافدين سنة ٥٣٩ ق.م.، أصبحت هذه البلاد الخصبية محط أنظار الكثيرين، وفتحت أبوابها أمام الهجرة. أضف إلى ذلك أنشئت في الولاية البابلية، كما حصل في الولايات الأخرى مستوطنات عسكرية من ممثلي مختلف الشعوب. لذلك استوطن هذه البلاد مختلف الاقوام والشعوب. على سبيل المثال بلغ عدد الاسماء غير البابلية الوارد ذكرها في وثائق تعود إلى بيت موراشو في نيبور ثلث الاسماء المذكورة.

كان الغريباء في حالات كثيرة يعيشون في أحياء معروفة من المدينة، ولهم جمعياتهم الخاصة بهم وإدارتهم الخاصة. فعلى سبيل المثال كان في مدينة بابل حي خاص للمصريين، وفي نيبور وضواحيها كان لكل مجموعة أتنية منطقة محددة. لكن في الغالب كان الغريباء يعيشون مع السكان الأصليين، ويتزاوجون مع بعضهم ويعقدون الصفقات المختلفة...

ترجمة د. عدنان عاكف حمودي

عن كتاب «العبودية في بابل»

## ليتسع الحوار ويتعمق / ملف

## ملاحظات حول «الموضوعات»

عزیز سباهی

تحضيراً لعقد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي العراقي طرحت اللجنة المركزية للحزب للمناقشة العامة وثيقتها الأساسية للمؤتمر، كما يبدو، بعنوان «موضوعات أساسية للمناقشة حول سياسة الحزب ومواقفه» ويتبين من قراءة «الموضوعات» المذكورة، أنها مكرّسة لسياسات الحزب المختلفة التي انتهجها في السنوات الثلاث التي أعقبت المؤتمر الوطني الخامس، وهي فترة دقيقة إتسمت بالتعقيد الكبير أمتحت فيها قدرة القيادة الجديدة التي انتخبها المؤتمر الخامس على النهوض بالمهمة الكبيرة التي طرحها وهي الخروج من حالة الأزمة التي كان يعاني منها الحزب على حد تعبير سكرتير الحزب، والتي عمقتها الانهيارات المتلاحقة لتجارب الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي السابق وأوروبا الشرقية.

أول ما يلاحظه المرء على «الموضوعات» كونها تتمحور حول القضايا الآتية الملحة، ومعنى هذا أن مناقشات المؤتمر السادس ستنصرف، في الأساس، الى هذه القضايا، وهو عين ما أخذ به تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر السابق، أي أن عدداً من القضايا العقيدية، من فكرية وغيرها، التي واجهت وتواجه الحزب ستظل تنتظر التحقيق، وستظل تنتظر تعبئة الطاقات الفكرية لدى الحزب لمعالجتها، أو على الأقل تحقيق مشاريع ضرورية في هذا السبيل، ولم تُنلِ العقبات التي حالت دون التوصل الى ذلك في الفترة التي سبقت المؤتمر السابق وما بعده. ولا أعلم سبب القصور.. هل في «أساليب العمل» أو

«بسبب العلاقات الشخصية» أم بسبب «التقصير في تعبئة الطاقات الفكرية» كما يقول السكرتير. والآن، وبعد أن استجبت ظروف دفعت إلى تأجيل انعقاد المؤتمر لفترة أخرى، فهل لنا أن نأمل لهذا القصور؟

منذ سنوات عديدة، والحزب يناضل في ظروف صعبة ومعقدة للغاية في الميادين السياسية والفكرية والتنظيمية.. ولم يكن الخلل ناجماً عن الظروف الموضوعية التي أحاطت بعمل الحزب وحدها، وهي بحد ذاتها عيب ثقيل جداً، لاسيما بعد شيوخ الاضطراب والاحباط إثر انهيار الاتحاد السوفيتي، وإنما نجم كذلك عن الاوضاع الذاتية للحزب وأليات عمله والسياسات التي حكمت توجهه، وتراكم النواقص والاعطاء، والاعتماد، أساساً، على الرصيد النضالي للحزب حتى كاد أن يستنفد هذا الرصيد في صراعات لا جدوى منها.

في ظني أن تفعيل الحزب وتطوير بنيته العامة والارتقاء بأساليب عمله وتدقيق خطابه السياسي وقدراته على متابعة المتغيرات في الواقع العراقي وتحليل عواملها واتقانه فن التنبؤ السياسي وامتلاك القدرة على التحرك السريع لمجابهة شتى الاحتمالات، واتقانه استخدام أدواته الماركسية للتحليل السياسي وقراءة الاحداث قراءة صحيحة ستظل كلها الهم الأول للحزب. وإذا كان المؤتمر الوطني الخامس قد انعقد تحت راية الديمقراطية والتجديد دون أن يقع في وهم القدرة على صنع الخوارق فإنه وضع اللبنة الاولى في طريق بعث الحيوية والتجديد... وصار من الضروري ترسم خطواته تلك والسير في ذات الاتجاه أعلى فأعلى.

ان نظرة أولية لما تم تحقيقه خلال السنوات الثلاث تؤكد ان ما تحقق في اتجاه اشاعة الديمقراطية في حياة ونشاط الحزب عامة ليس بالقليل. لقد باتت صحافة الحزب تقرأ باهتمام ورغبة لما يشيع فيها من تبادل مثمر وحر في الأفكار والآراء، ولم يعد الاجتهاد في سياسات الحزب يخيف المناضل الحزبي من أن يوصف بالمرئوق، وأمكن التخلص الى حد ليس بالقليل من التردد الذي يسود أوساط المناضلين من الجهر بأفكارهم، ولأول مرة يجد الشيوخ من أمثالي أنهم في حاجة الى مغالبة النفس لانتهاج السبيل الجديد والآخلفهم الزمن وراءه. لقد ساد خلال الاعوام الثلاثة جو انتقادي لم يخلُ أحياناً من روح الانفعال والحس العدمي. لقد كان ذلك ضرورياً لهذه القنوات التي لا تقوم على أساس متين وتصفية توكليدية القاعدة الحزبية وحالة الوصاية المفروضة من فوق، وتأصيل حياة حزبية قادرة على بعض الحيوية في كيان ترهل مع السنين!

لقد تطور النقد الآن، وحيداً لو تطور أكثر، واتخذ دائماً منهجاً ماركسياً وتخلص من شوائب القريية والعمدية... ولكن ماذا عن الانتقاد أو النقد الذاتي؟ منذ كنا صغاراً في حياتنا السياسية تعلمنا مقولة: النقد والنقد الذاتي، وصرفنا نردها بمناسبة ودون مناسبة شأن كثير من المقولات. أما ونحن نسعى، وبحزم مشروع، لإشاعة الديمقراطية في كل بنية الحزب ونشاطه، ونعمل جاهدين على تحفيز روح الاستقلال في التفكير فلا ينبغي أن يغرب عن البال أيضاً تأكيد روح التواضع الشيوعي، والصرامة في محاسبة النفس والتزام المبدئية في العمل والتفكير. إن الوثيقة المطروحة للنقاش تؤكد أن ممارسة العملية الانتخابية شهدت بعض الأخطاء والظواهر السلبية وتغليب المعايير الذاتية أحياناً؛ كما ينه سكرتير الحزب في حديثه إلى «الثقافة الجديدة» إلى أن في بنية القيادة الجديدة للحزب ووثائقه «جوانب لا ترقى إلى الطموح»، وكنت أتمنى لو لم يبدأ عبارته هذه بـ «وقد». وأحسب أن كثيراً من قيادات المنظمات الحزبية، ولا سيما في الخارج (حيث لا تتوفر الفرص الفعلية لوضع المؤهلات النضالية، على محك الواقع) تعاني من هذا الذي يشير إليه سكرتير الحزب. إن إشاعة الديمقراطية دون أن تقتصر بالالتزام المبدئي في محاسبة الذات لن تقود إلى ما يطمح إليه في خلق حزب فعال ومبادر، وإنما ستنتهي إلى ظهور بيروقراطية من لون جديد، بيروقراطية هزيلة لا تجذب أحداً وتنفّر من لا يزال يعمل في إطارها. إن الظواهر السلبية التي رافقت العملية الانتخابية داخل الحزب مؤشّر واضح على أن الحياة الداخلية للحزب لا تسير، في كثير من الحالات، وفق المثل الماركسية، وإن الروح الجهادية للمناضلين الحزبيين تخبو مع الابتعاد عن سوح النضال الفعلية (\*).

كنت أتمنى لو حظيت الجوانب الفكرية في حياة الحزب باهتمام أكبر، وإن لم أقل باهتمام جدي، وأن عوامل القصور في معالجة المشكلات التي تواجه الحزب هنا يجري السعي، حثيثاً، لإيجاد الحلول لها. فخطابنا السياسي لا يزال يفتقر إلى الملموسية، ويعوّل كثيراً على العموميات وتريد «المسلّمات»، ويقترّب أكثر فأكثر من المعالجة الصحفية اليومية. ويندر أن تنشر صحافة الحزب تقارير عن واقع حياة الفلاحين في الزراعات المختلفة أو عن أوضاع العمل والعمال في مصنع ما. وما ينشر فيها إما مقتبس من الصحف الحكومية أو ما يتردد على كل لسان، ولا يتميز عما تنشره صحف المعارضة الأخرى. والأمر أن هذا يصح حتى على ما يجري في المناطق الكردية التي لا تخضع للحكومة (\*\*). أين تكمن علة هذا القصور؟ هل يرجع إلى ضالة احتكاكنا بالجهاهير وإلى ندرة ما يتوفر لدينا من بنيات مادية، أم في ضعف التوجه، أساساً، إلى متابعة ما يستجد

في الحياة اليومية، والهبوط العام في الوعي الماركسي لدى المناضلين؟ الحزب يعلن في وثائقه، وفي ما ينشره مناضلوه، انه حزب ماركسي في الأساس، فهل يمكن الإطمئنان الى هذا التأكيد، وهل يكفي هذا وحده، وهل هناك مسعى حقيقي لتشريب الحزب عامة بالثقافة الماركسية، والعمل على استخدام هذه الأداة الفكرية الجبارة في تحديد كل ما يرسم من سياسات؟ إذا شئنا الحق، فإن معرفتنا بالماركسية هي معرفة محدودة ومسوحة. وفي ظل الهجوم الدعائي اللفظ والمتواصل، والبلبل التي تتعمد نشرها المراكز الايديولوجية المعادية للماركسية من جانب، وحالة الاحباط والارتباك التي شاعت ولا تزال في اوساط الحركة الشيوعية مع انهيار الاتحاد السوفييتي ومجموعة البلدان التي كانت تنادي بالاشتراكية في اوربوا الشرقية من جانب مقابل، هل لا يزال للماركسية بريقها السابق الذي يجذب إليها الشباب؟ وفي الظروف الراهنة في العراق، حيث يتواصل الارهاب اللفظ وينشغل الناس في هم البحث عن لقمة العيش اليومية، ويتنامى التششت القسري للعراقيين في بلاد الغربة، تتضاءل كثيراً فرص الدراسة المنتظمة للفكر الماركسي واستيعابه. فكيف يمكن، والحال هذه، الحفاظ على هوية الحزب الماركسية، ووفق أية مقاييس ومبادئ يمكن تلمس ما تفرزه الحياة من عنصر جديد له القدرة على الفاعلية والتطور؟ تلك مسألة ستزداد خطورتها مع امتداد الوقت وينبغي ان تواجه بعمل جدي وبتخطيط تجري دراسته بعناية على المديين الآني والبعيد.

على ان تعقد المشكلة لا ينتهي عند هذا الحد. ان الماركسية ذاتها، كمنظرية، تواجه الحاجة الجديدة للتطوير. ان القوانين العامة للماركسية هي ثمرة الدراسة العينية للوقائع الملموسة، لكنها لا تمتلك صفة الاطلاق والابدية، ان دراسة الوقائع العينية الجديدة استناداً الى المنهج الماركسي، المادي الجدلي، ستساعد في اكتشاف قوانين نوعية مختلفة طبقاً للأوضاع والملابسات الجديدة.. هكذا تغدو مهمة تطوير الفكر الماركسي مهمة دائمة مع دوام الحياة ذاتها وما يطرأ عليها من تغيرات جديدة، وتبعاً للأوضاع المختلفة في البلدان المختلفة. وما يميز الصحيح عن الفاسد هو الممارسة الفعلية في حركة النضال الدائبة. «ان ما مات مع موت الاتحاد السوفييتي ليس هو الماركسية، وانما صورتها الهزلية المأساوية» كما يقول روجيه جارودي. ان السعي للتحقق بالنظرية الماركسية والعمل الدائب لا يمتلك وانتهاج المنهج الماركسي يسير جنباً الى جنب مع التحقق من صحة الافكار التي يجري التوصل اليها، ولا يصح تأجيل هذه المهمة على حساب تلك والانصراف الى جانب دون الآخر.

## حول سياسة التحالفات

برغم الأهمية الخاصة والرائدة لموضوع سياسة الحزب الخاصة بالتحالفات الوطنية، إلا أن معالجتها في «الموضوعات» المطروحة للمناقشة جاءت مختصرة ولا تتناسب وأهمية المسألة. إن مبدأ العمل لإقامة أوسع التحالفات السياسية لانقاذ البلاد من دكتاتورية صدام، على أساس الاستقلال الفكري والسياسي والتنظيمي لكل طرف «بعيداً عن نزعات الإستئثار والتسلط وغمط حقوق أية قوة سياسية قادرة على أن تسهم في العمل النضالي لاسقاط الدكتاتورية» هو مبدأ سليم ويستجيب لمصلحة الشعب عامة، وقواه المختلفة. ومع ذلك، فإن مسعى الحزب في هذا الاتجاه لم يخلُ من نقاط الضعف. إن تجارب التحالفات أو مشروعات التحالفات التي أسهم الحزب فيها أو شارك في الأعداد لها، منذ المؤتمر الخامس على الأقل، أظهرت أن الحزب في حاجة إلى أن يتمسك بقوة بالأسس التي تشير إليها «الموضوعات» المطروحة. إذ لم تخلُ سياسات الحزب ونشاطه هنا من التردد والارتباك، وكفيئنا أن نستشهد بالأمثلة الثلاثة البارزة: الموقف من المشاركة في «المؤتمر الوطني العراقي الموحد»، والموقف من اجتماع دمشق التداولي للمعارضة العراقية، وأخيراً الموقف من الحكومة التي باشر (حدك) إلى تشكيلها في كردستان بعد أحداث الحادي والثلاثين من آب، نؤكد أولاً أن قدرة الحزب على التأثير في التحالفات السياسية مرهونة بقوته في التأثير على الجماهير، ومالم يعزز روابطه بها وكسب عطفها واستعدادها للأصغاء إلى شعاراته والدفاع عنه، فسيظل يجابه بروح الاستئثار والتسلط وغمط الحقوق.. الخ، ولا ينبغي أن نندهش من مسلك هذه القوة أو تلك في هذا المنحى. فايديولوجيات القوى الأخرى عامة، ومن دون استثناء، تنبع من مصالح طبقية ضيقة بهذا القدر أو ذاك، أكثر مما هي نابعة عن هشاشة في الوعي السياسي، إذ لانحسب أن أية قوة سياسية، بعد كل التجارب المرّة التي مرت بها المعارضة العراقية، لاتعي أهمية العمل السياسي المشترك والحاجة إلى تجميع أوسع القوى ناهيك عن القوى الأساسية، لمنازلة دكتاتورية صدام. هكذا كان الأمر دائماً، وستظل إيديولوجية الطبقة العاملة وحدها تقوم على الاستعداد للتسامح والائثار، وتغليب المصلحة الأعم والأبعد على الخاصة والأنية، وستظل نصائحنا هواء في شبك إذا لم تقترن بالضغط الجماهيري الكافي. ولكن إذا تعدّر على الحزب أن يؤثر في مسار الأمور بقوة وحسم، فهل لايمكك القدرة على الاختيار الأنسب؟ صحيح أن المرونة في التعامل ضرورية، لكنها تفقد قيمتها وصحتها إذا لم تقترن برؤية واضحة وتوجه مبني دقيق، وبقدر ما تكون المهارة



التاكتيكية ضرورية في إطار السعي لعقد التحالفات، والتخلص من العُقد الناشئة وتجنب المطبات المفاجئة، فان خوض الصراعات الفكرية لتوضيح خطوطنا الاستراتيجية في هذه التحالفات والأعمال المشتركة ضرورية هي الاخرى. وفي هذا الشأن لا ينبغي ان نُحشر في الزوايا او نغدو فريسة المفاجآت. ومن المؤسف أن كثيراً ما غدا الحزب ضحية الغفلة او لم يُحسن التنبؤ بمسار تطور الأحداث.

### الحزب وساحات النضال المتباينة

قليلة هي تجارب الأحزاب في النضال تحت قيادات واحدة ولأهداف واحدة ولكن في ميادين وأوضاع متباينة تمام التباين. ان الاختلاف في ظروف نضال الحزب الشيوعي، وفي عمق الوطن وفي اقليم كردستان وفي الخارج، من السعة ما يدفع الى وقفة خاصة دائماً لتأمل أليات العمل في كل واحد منها وإيجاد التوازنات الضرورية التي تسمح بالانتفاع الأقصى مما تسمح به ظروف كل منها وتجنبها الآثار السلبية التي تنشأ هنا او هناك. ان «الموضوعات» المطروحة للنقاش لا تحدث بشيء عن هذا، والارشادات التي لَمَحَ لها سكرتير الحزب «الثقافة الجديدة» (العدد ٢٥٨) لا تسمح باستنتاج الكثير. ويفهم مما يكتبه بعض الرفاق (انظر عزت العراقي، الثقافة الجديدة، العدد ٢٧١) ان هناك عديداً من المشاكل ترك البحث فيها الى المؤتمر السادس.

لا ريب أن منظمات الخارج، رغم تناثرها وتباعدها، تستطيع أن تلعب دوراً كبيراً في اسناد نضال رفاقها داخل الوطن. وفي حدود ما أعلم انها تنهض بكثير من المهمات الضرورية، وهي تستطيع أن تنهض باكثر من ذلك اذا ما أحسن تحفيز وتنظيم وتعبئة عملها. ومع ذلك (وهذا ما يشغل البال حقاً) فان للعمل في الخارج آثاره السلبية في مسيرة الحزب العامة إذ لم يجر الانتباه الى توفير المصدّات او «المرشحات» الضرورية. أنا لا ادعو الى ثلم الممارسة الديمقراطية التي وفق الحزب الى اشاعتها في العمل هنا منذ المؤتمر الخامس على الأقل.. لكنني أُنَبِّه، في ذات الوقت، الى اهمية تدقيق النشاط في «الخارج» كثيراً وتنقيته من إفرازات الركود والابتعاد عن حرارة العمل بين الجماهير والافتقار الى المحل: الجماهيري لصداقية العمل حتى تتخلص من النشاط الاستعراضي ولا تعود هدفاً سهلاً لانتهاج «التوجه اللبرالي» أو الركض وراء «الموضات» الايديولوجية باسم محاربة الايديولوجيا النخبوية. لقد كتب ماوتسي تونغ مرة عما ندعاه بـ «الانعزالية الجبلية» وكان يريد بها الممارسات المصلحية التي تظهر في نشاط حلقات الأنصار

المعزولة في بقاعها الجبلية الخاصة. ألا نجد مثل هذه الممارسات الانعزالية، النخبوية والمصلحية، في صفوف المنظمات التي تتباعد عن الرقابة الجماهيرية من تحت والرقابة الحزبية من الأعلى. لا أحسبني أنني أت بشيء جديد إذا ما أكلت من جديد أن على تعزيز بنية التنظيم الحزبي وتنقيته من الشوائب واذكاء روح الحماسة الثورية في صفوفه في شتى مواقع النضال يتقرر كل شيء مما نرسم من أهداف.

### الهوامش

(\*) لعل من النافع والطريف أن أسوق للمناضلين الحزبيين المثال التالي:

في غمرة النجاحات الكبرى التي كان يحققها الشعب السوفييتي في مجال التصنيع عام ١٩٣٧ خرج ستالين (ستالين ولا غيره) على الناس بمقالة عنوانها «النقد والنقد الذاتي» داعياً فيها، ويا للمفارقة، إلى مراقبة قيادة الحزب والدولة، وممارسة النقد تجاه ما ترتكب من أخطاء، وأذكر أنه أكد فيها على أن المجموعة التي تأخذ بقيادة الحزب والدولة، غبت، لجليل ما قدمته من منجزات منذ الثورة، بمعنى ومامن من النقد. فإذا لم تتدارك هي أخطاءها فأنها ستلحق بالبلاد أقدح الأضرار. وشدد على أن النقد حتى وإن إنطوى على ٥٪ من الحقيقة فإنه نافع ويتعين على القيادة أن تبحث عن هذه الخمسة بالمتة. حقاً أنها لنبوءة باهرة.

(\*\*) في لقاء ضممتي مع أحد رفاق المكتب السياسي قبل عامين تساءلت عما يمكن أن تزود قيادة الحزب الباحثين به من بيانات وغيرها عن واقع الحياة في الوطن، حتى ولو في حدود كردستان... وضربت مثلاً بحال الصحة في المناطق الكردية، عدد المستشفيات والأسرة فيها... الخ. فأجابني الرفيق: وهل يملك وزير الصحة الشيوعي للحكم المحلي مثل هذه البيانات!!

ورقة عمل حول آلية العلاقة بين حشع وحشك

تدقيق الممارسة وتطوير الآليات

نظراً لأن عدداً من المساهمين في مناقشة «الموضوعات» قد تناولوا العلاقة بين حشع وحشك ارتأينا نشر الوثيقة التي طرحتها قيادة الحزب للمناقشة حول هذا الموضوع.

أولاً - مقدمة:

١- تشكلت الدولة العراقية المعاصرة، بعد الحرب العالمية الأولى، من الولايات العثمانية الثلاث:

أ / البصرة (ولاية عربية)،

ب / بغداد (ولاية عربية)،

ج / الموصل وكانت تضم كردستان الجنوبية والأكثرية الساحقة من

سكنة الولاية كانوا من الكرد.

٢- ولم يقر دستور الدولة الجديدة بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي، وضمت الدولة إدارات مرتبطة بالمركز أطلق عليها تسمية الألوية، ولم تأخذ هذه التشكيلات بنظر الاعتبار الواقع القومي والمشاكل القومية في العراق الجديد.

٣- ومن الألوية التي كان يسكنها الكرد:

أ / السليمانية (لواء كردي)،

ب / أربيل (لواء كردي)،

ج / كركوك (لواء مختلط) وكان أكثرية سكنة اللواء هم من الكرد حسب

الإحصائيات الرسمية آنذاك. ويسكن اللواء التركمان والكلدان

والآشوريون.

د / الموصل باستثناء مركز اللواء — مدينة الموصل، أكثرية سكان اللواء هم من الأكراد حيث كانت جميع نواحي وأقضية بهدينان مرتبطة بمركز المدينة بالإضافة إلى أقلية آشورية تسكن بعض النواحي.

هـ / ديالى غالبية سكانه من العرب ويضم منطقة خانقين ومندلي وسكنتها من الكرد.

و / وهناك أقليات كردية تسكن بغداد والكوت . . الخ.

٤ — خلال العهود المنصرمة، ورغم ما طرأ من تغيير جزئي على حدود الالوية وإجراءات التهجير والتعريب واستحداث إدارات جديدة، إلا أن تغيراً جوهرياً لم يطرأ باتجاه تشكيل إدارة خاصة بالأكراد أو التركمان وغيرهم.

٥ — يعتبر الدستور المؤقت الصادر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ أول وثيقة رسمية تعترف بحقوق الشعب الكردي في العراق رغم عمومية معالجاتها لهذه القضية حيث جاء في المادة ٣ للدستور (يقوم الكيان العراقي على أساس من التعاون بين المواطنين كافة واحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم. ويعتبر العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن ويقر الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية).

لقد شكل هذا الاعتراف تحولاً نوعياً في موقف السلطة المركزية من القضية القومية الكردية منذ قيام الدولة العراقية. إلا أن هذا التحول الهام ظل دون إجراءات عملية ودستورية تحدد شكل ومحتوى تمتع الشعب الكردي بحقوقه القومية.

٦ — وشكل بيان آذار عام ١٩٧٠ الذي نجم عن توازن القوى آنذاك، انعطافاً جديدة على صعود اعتراف السلطة المركزية بالقومية الكردية وبحق الشعب الكردي في العراق في التمتع بالحكم الذاتي ضمن إطار الجمهورية العراقية. وتضمن الدستور المؤقت الجديد الذي صدر في تموز ١٩٧٠ بنداً يتعلق بالحقوق القومية للشعب الكردي نص على أن الشعب العراقي يتكون من قوميتين أساسيتين هما القومية العربية والكردية. وأقرت الدولة عام ١٩٧٤ مشروعاً ناقصاً للحكم الذاتي، أقرغته من محتواه الحقيقي في ممارساتها اللاحقة.

وتكون مجلس تشريعي وآخر تنفيذي بصلاحيات محدودة واستثنى المشروع عدداً من المدن والمناطق الكردية بعد أن ربطها إدارياً بمحافظات أخرى غير كردستانية.

وحددت منطقة الحكم الذاتي بمحافظة السليمانية ومحافظة أربيل وتقرر تشكيل إدارة باسم محافظة دهوك تضم أكثرية مناطق بهدينان، ومن الجدير بالملاحظة أن مناطق من كركوك ضمت إلى محافظة السليمانية، كما ضمت مناطق أخرى من كركوك إلى محافظة صلاح الدين.

ومع هذا ظلت مراكز المحافظات الكردستانية مرتبطة بمركز السلطة في الكثير من القضايا الهامة الخاصة بكردستان.

٧- وفي عام ١٩٩١ وعلى أثر انتفاضة آذار والرحيل المليونتي ثم فشل المفاوضات بين الحكومة المركزية والجبهة الكردستانية، طرأ تغير جذري على منطقة واسعة من كردستان العراق وتكونت إدارة موحدة تضم محافظات السليمانية، أربيل، دهوك ومناطق من كركوك وتحررت المنطقة من هيمنة السلطة المركزية، وتم إجراء انتخابات عامة أسفرت عن انبثاق المجلس الوطني الكردستاني (البرلمان) ومجلس الوزراء الكردستاني بالشكل المعروف.

٨- ويعيش الكيان الجديد حالة تناقض وعدم استقرار بسبب عدم حسم الأوضاع. فمن جهة هناك حكومة مستقلة في الإقليم عن السلطة المركزية في بغداد ولا علاقة بينهما غير العداء وبقايا الروابط الاقتصادية (النقد وغيرها) ومن جهة أخرى لم تطرح الأحزاب والقوى الكردستانية أبعد من شعار الفيدرالية لإقليم كردستان في إطار كيان سياسي موحد للعراق، علماً أن الحكومة المركزية والدول الإقليمية المجاورة لم تعترف لحد الآن وتعامل بتوجس وريبة مع شعار الفيدرالية والحقوق القومية للشعب الكردي، دع عنك الكيان المستقل أو شبه المستقل الحالي. كما أن الوضع الكردستاني الراهن لم يجرِ الاعتراف به دولياً.

### ثانياً - موقف الحزب من الحقوق القومية للشعب الكردي:

وقف حزبنا منذ تأسيسه موقفاً أممياً من القضية الكردية ومن نضال الشعب الكردي في سبيل حقوقه القومية.

وارتبط هذا الموقف بتنامي فهم الحزب للقضية وتطورات القضية ذاتها. فقد ساند الانتفاضات الكردية التي حدثت في الأربعينات ودعم جمهورية مهاباد ذات الحكم الذاتي في إيران.

وأقر بحق تقرير المصير للشعب الكردي استناداً إلى أسس المنهجية الماركسية

والموقف اللينيني، بما في ذلك حق الأمة الكردية في الوحدة وإقامة الدولة الوطنية الموحدة. وجسد الحزب هذا الموقف المبدئي حسب تطور المسألة الكردية ودرجة نضوجها. أخذاً بنظر الاعتبار الارتباط الموضوعي الجدلي بين قضية الديمقراطية في العراق والحقوق القومية للشعب الكردي.

وثقف رفاقه وأصدقائه، وأوساطاً واسعة في الحركة الوطنية الديمقراطية والقومية التقدمية، بأهمية بناء عراق التآخي بين القوميات على أسس الاتحاد الاختياري بين القوميتين الرئيسيتين العرب والكرد، والقوميات والأقليات المتعايشة في الوطن. ففي عام ١٩٥٦، طرح الحزب في وثائق الكونغرس الثاني شعار الحكم الذاتي لكردستان.

وفي عام ١٩٦٢ أقرت اللجنة المركزية تقريراً إضافياً عن القضية الكردية وحقوق الشعب الكردي القومية وفي مقدمتها حقه في تقرير مصيره وأكدت ضرورة الحكم الذاتي لكردستان في إطار عراق ديمقراطي.

وكان لنشاط حزبنا وإصراره على حل المسألة الكردية حلاً سلمياً ديمقراطياً وتثقيفه بشعار الحكم الذاتي لكردستان دور مرموق في التوصل إلى اتفاقية آذار ١٩٧٠ وصدر البيان الذي اعترف لأول مرة بشكل رسمي بحق الأكراد بحكم ذاتي في العراق. واستناداً إلى النظرة التاريخية للقضية الكردية وكونها ظاهرة متطورة، وارتباطاً بالتطبيق الممسوخ للحكم الذاتي الذي فرضه النظام بعد عام ١٩٧٥، وجعل كل المؤسسات المنبثقة من بيان ١١ آذار ١٩٧٠: المجلس التشريعي، والمجلس التنفيذي هياكل شكلية تنفذ سياسة النظام، بعيداً عن المصالح الحقيقية للشعب الكردي وطموحاته القومية الديمقراطية، ارتباطاً بهذا كله عدل حزبنا شعاره المركزي من الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان، إلى الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان.

وفي اجتماع لـم لعام ١٩٩١ وبعد التطورات التي مرت على القضية الكردية وارتباطاً بالتغيرات العالمية دعت قيادة الحزب في المشروع السياسي البرنامجي المطروح للمؤتمر الوطني الخامس إلى تطوير الحكم الذاتي الحقيقي وصولاً إلى الفيدرالية.

وبعد إعلان خيار الفيدرالية من قبل البرلمان الكردستاني عام ١٩٩٢ ساند حزبنا القرار المذكور ارتباطاً بتحقيق عراق ديمقراطي فيدرالي موحد بعد الإطاحة بنظام صدام حسين.

إن المعالجات التي تبنتها قيادة الحزب للمسألة الكردية في العراق مبنية على أساس

مراعاة درجة تطورها ونضجها والنظر إليها من حيث اعتبارها قضية متحركة عادلة لا يمكن وضع الحلول لها دون تحقيق المساواة والتكافؤ والطوعية في العلاقات القومية.

### ثالثاً - حول ظروفات الحزب في مجال التنظيم الحزبي:

١- في العقد الأول من تأسيسه ضم الحزب أعداداً قليلة نسبياً من المناضلين وقلما انخرط في صفوفه مناضلون كرد وتلقى ضربات متتالية في سنواته الأولى قبل أن يتوطد كيانه بعد.

وفي هذه المرحلة لم يطرح الحزب أي صيغة تنظيمية حزبية تتعلق بخصوصية المناضلين الأكراد ضمن صفوفه أو في المناطق الكردية.

٢- وبعد سنوات من إعادة البناء التي نهض بها الرفيق فهد ورفاقه الرواد الآخرون أقر المؤتمر الوطني الأول في عام ١٩٤٥ تكوين الفرع الكردي الذي أصدر جريدة مركزية باسم آزادي. وكان الحزب لا يزال يضم في صفوفه عدداً قليلاً من المناضلين الكرد وكانت تنظيماته ضعيفة في المدن الكردية، علماً أنه تكون من منظمات محلية تبعاً للإدارات (الألوية).

٣- وفي عام ١٩٤٨ عند تطور الوضع التنظيمي للحزب وتوسعه وتشكيل المنظمات المحلية في الألوية: السليمانية، أربيل، كركوك... تقرر تحول اسمه من الفرع الكردي إلى فرع كردستان. وعلى ضوء قرارات الكونغرس الثالث للحزب في كانون الأول عام ١٩٦٧ تحول الاسم إلى منظمة إقليم كردستان للحزب الشيوعي العراقي، وعقدت المنظمة مؤتمرها الأول في أيار ١٩٦٩ أقرت فيه برنامجاً وطنياً ديمقراطياً خاصاً بكردستان.

٤- وظلت لجنة إقليم كردستان تتمتع بصلاحيات أوسع في الظروف الطبيعية بالمقارنة مع لجان المناطق الأخرى.

وفي فترة ما بعد ١٩٧٨ انتقل مركز ثقل التنظيم ولجنة الإقليم إلى المناطق الأنصارية وكانت تنظيمات الحزب في المدن والمناطق الحكومية ضعيفة بسبب الضربات الموجهة إليها والإرهاب السائد.

٥- وفي الظروف الجديدة (بعد الانتفاضة) نشأت أوضاع ملائمة لصالح القضية الكردية وحقوق الشعب الكردي على الصعيد الكردستاني العراقية الإقليمية والدولية. وفي اجتماع اللجنة المركزية - آذار ١٩٩٠ كان تقرر تشكيل لجنة مركزية لمنظمة إقليم كردستان مع منح المنظمة حقها في أن يكون لها نظام داخلي إلى جانب البرنامج.

وفي أيلول ١٩٩١ أقر اجتماع ل.م. للحزب مشروع نظام داخلي وبرنامج جديدين اقترح فيهما على الحزب، بالاقتران مع الظروف الجديدة، تطوير شعار الحكم الذاتي الى الفيدرالية كما اقترح تطويراً تنظيمياً نوعياً بتكوين حزب شيوعي في كردستان العراق يتمتع بالصلاحيات الكاملة في شؤون كردستان.

٦- العلاقة كأي ظاهرة حياتية تتصف بالحركة والديناميكية والمرونة وتستجيب لمتغيرات الوضع العراقي والكردستاني. وترتبط بمدى تطور القضية الكردية على الصعيد الداخلية والإقليمية والعالمية وطبيعة العلاقة السياسية بين إقليم كردستان والمركز.

٧- ونظراً للوضع الحالي لكيان إقليم كردستان الذي يتجاوز الفيدرالية وتعقيدات الوضع وعدم حسمه، فإن العلاقة بين حشك والحزب ككل تعترضها صعوبات غير قليلة. . .

#### رابعاً - تجارب الأحزاب الشقيقة:

تختلف تجارب وأشكال عمل الأحزاب الشيوعية في البلدان المتعددة القوميات، وتتباين من حيث التنظيم والطرق المناسبة لوحدة الشيوعيين الممثلين للقوميات المكونة للمجتمع والبلد المعني، وحسب خصوصية كل بلد والظروف الحسية والتاريخية للملحوسة.

وهنا نستعرض بعض التجارب الملحوسة لأحزاب شقيقة:

أولاً - الحزب الشيوعي الاسباني: يضم ١٧ حزباً إضافة الى المحافظات.

جاء في النظام الداخلي للحزب:

«الحزب الشيوعي الاسباني منظمة فيدرالية. انبثق كنتاج لاتفاق حر وطوعي بين الأحزاب الشيوعية القائمة في كل الأقاليم وفي كل القوميات التي تتكون منها الدولة الاسبانية المستندة الى القرار السياسي للأعضاء المنتمين والذين يقيمون فيدراليتهم على أساس مبادئ التضامن والتوافق الديمقراطي في مشروع سياسي مشترك على المستوى العام للدولة.

ويقوم أعضاء الحزب بالعلاقات فيما بينهم على أساس المساواة والاحترام المتبادل ويحولون دون وجود سلوكيات وميكانيزمات ذات طبيعة عنصرية تمييزية أو فوارق جنسية، سواء على مستوى توزيع المهام أو للوصول إلى مراكز قيادية.

إن المنظمات الشيوعية لكل قومية وإقليم وبلد، تشكل الأحزاب الشيوعية المعنية بها.



والتي بمجموعها تكون الحزب الشيوعي الاسباني. ان التوجهات السياسية والنظم الداخلية الموضوعية من قبل منظمات الحزب الشيوعي المختلفة، هي ما يشكل الاطار الفيدرالي العام المعتمد والمصادق عليه على اساس مصالح الجميع المشتركة. ويشكل ذلك عاملاً أساسياً لتماسك الحزب من أجل الدفاع عن الحقوق والحريات لعموم شعوب اسبانيا.

ولهذه المنظمات نظمها الخاصة، ولكنها منسجمة اجمالاً مع النظام الاساسي للحزب الشيوعي الاسباني. وتطبق خط الحزب العام باستقلالية ذاتية في اطار منطقة عملها. اما الشكل القيادي للعمل فقد حددته المادة (١١) — (٢) تشكيل اللجنة الفيدرالية: ١/ الأعضاء المنتخبون من المؤتمر الفيدرالي. ب/ ممثلو منظمات الحزب الاتحادية ومنظمة الشبيبة.

وبصدد المؤتمر الفيدرالي تشير المادة (١٧) إلى ما يلي: يعقد المؤتمر الفيدرالي العادي مرة كل ثلاث سنوات وفي إطار المؤتمر الفيدرالي تعقد منظمات الحزب الاتحادية مؤتمراتها الموازية وعلى مرحلتين: المرحلة الاولى: من أجل مناقشة التقارير واختيار مندوبيها إلى المؤتمر الفيدرالي. المرحلة الثانية: بعد عقد المؤتمر الفيدرالي، من أجل مناقشة سياسة الحزب المقررة واختيار لجانه.

ويحدد الفصل التاسع العلاقة بين الحزب الشيوعي الاسباني والحزب الاشتراكي الكاتولوني الموحد، وجاء في المادة (٢٨) الحزب الاشتراكي، هو حزب مستقل متآخ مع الحزب الشيوعي الاسباني. أعضاء الحزب الاشتراكي يشكلون جزءاً من الحزب الشيوعي الاسباني لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. يمكن للحزب الشيوعي الاسباني المشاركة في المؤتمرات والكونفرانس التي يعقدها الحزب الاشتراكي الكاتولوني وفي اجتماعات هيئاته القيادية وذلك حسب اتفاق مشترك بين قيادتي الحزبين.

ثانياً - رابطة شيوعي يوغسلافيا  
يشير النظام الداخلي إلى أشكال التنظيم (مع ملاحظة ان الوثيقة المعتمدة صادرة قبل تقسيم يوغسلافيا).

وتتوزع الهيئات القيادية على الشكل التالي:

#### ١- التنظيم في الاقليم المستقل ذاتياً

مؤتمر الإقليم هو أعلى هيئة لرابطة الشيوعيين في الاقليم المستقل ذاتياً. وهو يحدد المواقف التي ينبغي على رابطة الشيوعيين في الإقليم أن تتبناها انسجاماً مع سياسة الهيئات والقيادات الأعلى.

#### ٢- رابطة الشيوعيين في الجمهورية الاشتراكية

يؤلف أعضاء ومنظمات رابطة شيوعيي يوغسلافيا في الجمهورية الاشتراكية رابطة الشيوعيين في الجمهورية الاشتراكية. يجتمع مؤتمر رابطة الشيوعيين في الجمهوريات الاشتراكية، كقاعدة عامة قبل مؤتمر رابطة شيوعيي يوغسلافيا.

يحدد المؤتمر سياسة ومواقف ومهام رابطة الشيوعيين في الجمهورية الاشتراكية، انسجاماً مع سياسة رابطة شيوعيي يوغسلافيا والشروط (الظروف) السائدة في الجمهورية، ويقترح دراسة المشكلات ذات الطابع الراهن على مؤتمر رابطة شيوعيي يوغسلافيا ولجنتها المركزية.

#### ٣- رابطة شيوعيي يوغسلافيا

— تمثل اللجنة المركزية رابطة شيوعيي يوغسلافيا سواء في داخل البلاد أم في العلاقات مع الأحزاب الأجنبية.

— الأمين السياسي للجنة المركزية لرابطة الشيوعيين في جمهورية اشتراكية، إذا لم يكن عضواً في اللجنة التنفيذية للجنة المركزية لرابطة شيوعيي يوغسلافيا، يحضر جلسات اللجنة الأخيرة ويساهم بكامل الحقوق في أعمالها.

ملاحظة: هذه التجربة على غرار النموذج الذي كان قائماً في الاتحاد السوفيتي. الحزب الشيوعي السوفيتي الذي يضم الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات اضافة إلى الشيوعيين الروس.

#### ثالثاً - الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي

برنامج فيدرالية الأحزاب الشيوعية في الجمهورية الفيدرالية الجيكية والسلوفاكية:

بالاستناد إلى وثيقة طرحها الحزب عام ١٩٩٠ وقدمت إلى المؤتمر ١٨ ونشرت في ١٠/٩/١٩٩٠ في صحافة الحزب. وهذه التجربة هي نموذج لمسعى حاول ترجمة الفيدرالية السياسية إلى فيدرالية داخل الحزب، حيث حاول الحزب الشيوعي

الجيكوسلوفياكي الشقيق حينها إعادة ترتيب نفسه بطريقة تتطابق مع النظام الإداري للدولة الفيدرالية، وتشكل حزبان لكل منهما لجنته المركزية الخاصة وجميع الحزبين حزب واحد هو الحزب الشيوعي الجيكوسلوفياكي الذي يتشكل على أساس مؤتمر عام وقيادة عامة لكل شيوعي جيكوسلوفياكي تشمل صلاحياتها كل ما هو مشترك في الدولة الفيدرالية وتعنى بكل الشؤون العامة المشتركة وتكون الأحزاب المحلية معنية بشؤون جمهورياتها المحلية. ومن المعروف أن الحزب لم يعد موحداً بفعل انفصال سلوفاكيا عن تشيكيا، ورغم ذلك توجد في الوثيقة قضايا مهمة جديرة بالدراسة، نقتبس منها النصوص التالية:

— أن المنظمات الأعضاء في الفيدرالية هي أحزاب حرة لأناس يفكرون بحرية ويضعون المصالح البشرية العامة فوق المصالح الطبقية والحزبية.  
وتعمل الفيدرالية عبر نضالها من أجل الدفاع عن مصالح العاملين بغض النظر عن انتمائهم القومي أو عقيدتهم الدينية، الناس الذين يخلقون القيم المادية والروحية.  
— أن الفيدرالية تنطلق وتواصل التقاليد التقدمية الإنسانية الديمقراطية في الفكر التشيكي والسلوفاكي والعالمي.

— نعتبر أن من أكثر أهداف الفيدرالية أهمية، مهمة البحث عن المواقف والمعالجات والخطوات المشتركة للقوى اليسارية في تشيكوسلوفاكيا، بهدف التوصل إلى تحقيق أوثق تقارب وتحالف لها.

التخلي التام عن الممارسة السياسية والأيديولوجية التي مارسها وتمسك بها الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي قبل ١٧ نوفمبر/ ١٩٨٩.

وتتخلى الفيدرالية عن مبدأ المركزية الديمقراطية في بناء الحزب، كما تتخلى عن كل بقايا بلشفة الحزب والتشويهات الستالينية، التي قامت في عواقبها نحو الهزيمة التاريخية للحزب الشيوعي.

كما نعتبر من المرفوض قبول أساليب وأشكال العمل بصورة لا نقدية والاعتماد أو الخضوع للقوى السياسية الأخرى المحلية والأجنبية.

— أن حل التناقضات والخلافات السياسية والاجتماعية أمر لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التنافس الصريح والمفتوح والديمقراطي للأفكار والآراء.

— ينبغي اتخاذ جميع القرارات الأساسية على أساس المناقشات الحرة ومواقف الأعضاء والهيئات والمنظمات.

وينبغي أن لا تكون الفيدرالية منظمة لذاتها، فأنها لا تستطيع تحقيق أهدافها الا حين تستطيع كسب الرأي العام.

— ترى الفيدرالية أن اتخاذ القرار النهائي بشأن جميع القضايا الهامة على صعيد الدولة او الجمهوريات او على الصعيد المحلي، ينبغي أن يتم عبر الاستفتاءات الشعبية العامة.

#### رابعاً - الاحزاب الشيوعية في جمهورية روسيا الاتحادية:

تضم جمهورية روسيا الاتحادية أكثر من ثلاثين قومية وشعب وأمة وجماعة سلافية وعرقية، متوزعة في ١٧ جمهورية و٥ مناطق (مقاطعات) و ١٠ دوائر جميعها تتمتع بالحكم الذاتي في اطار الجمهورية الاتحادية. وهذا التقسيم الى جمهوريات ومناطق ودوائر مرتبط بالواقع القومي — الجغرافي والاداري والتنوع العرقي لشعوب الجمهورية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك الحزب الشيوعي وتشرذم تنظيماته في الجمهوريات السوفيتية المختلفة، تعرضت الحركة الشيوعية في روسيا الى حالة من التشتت والتمزق. ويعمل الآن الى جانب الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية، والذي يمكن اعتباره الحزب الشيوعي الرئيسي في البلاد، ثلاثة احزاب شيوعية أخرى هي:

١ — حزب العمال الشيوعي الروسي

٢ — حزب البلاشفة الشيوعي لعموم الاتحاد السوفيتي

٣ — الحزب الشيوعي الروسي

وهذا الانقسام في الحركة الشيوعية الروسية يعود اساساً الى الخلافات الفكرية والسياسية الناشئة بين هذه الاحزاب فيما يتعلق بموقفها من تقييم التجربة السوفيتية السابقة والأسباب التي أدت الى انهيار الاتحاد السوفيتي والنظرة الى المستقبل وغيرها. ولا علاقة لهذا الانقسام بالتعددية القومية والأثنية لسكان روسيا. وتسعى هذه الاحزاب جميعها لتعزيز نفوذها وبناء تنظيماتها بين سكان روسيا الاتحادية على اختلاف انتماءاتهم القومية والأثنية والمذهبية.

ونستعين هنا بمقتطفات من وثيقتين صدرتا عن الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية (ح.ش.ر.ا.) (تقرير لجنة إعداد برنامج ح.ش.ر.ا. في ٢٢ / ١٠ / ١٩٩٤ وبرنامج ح.ش.ر.ا. في ٢٢ - ٢١ / ١ / ١٩٩٥) لتوضيح موقف الحزب ونظرته الى إعادة قيام اتحاد

جديد للشعوب السوفيتية، وإلى وحدة الحركة أو الأحزاب الشيوعية في روسيا الاتحادية، والموقف من اتحاد الأحزاب الشيوعية في أراضي الاتحاد السوفيتي السابق: «ورد في الوثيقة البرنامجية أن ح.ش.ر. يعمل من أجل: «المحافظة على وحدة الدولة الروسية، وإقامة اتحاد مجدد للشعوب السوفيتية، وتأمين الوحدة القومية للشعب الروسي».

— إلغاء اتفاقات بيلوفيجسك (الاتفاقات التي تم بموجبها تمزيق الاتحاد السوفيتي السابق) وإعادة تشكيل الدولة الاتحادية الواحدة بالتدرج وعلى أساس طوعي». وعلى الصعيد التنظيمي والعلاقة بين الأحزاب الشيوعية القائمة في روسيا تقول الوثيقة البرنامجية: «الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية هو منظمة سياسية مستقلة، وهو يعترف باستقلال كل الأحزاب الشيوعية الأخرى، ويقيم علاقاته معها على مبادئ وحدة المصالح الطبقية والأهداف السياسية والاجتماعية والرفاقية والمساعدة المتبادلة وأخلاق الجماعة وهو يقف إلى جانب القضاء على التمزق في الحركة الشيوعية في روسيا، وتلاحمها على الأساس الفكري والأخلاقي والسياسي الواحد الذي وضّعه أجيال الشيوعيين الروس والسوفيت. ويعد ح.ش.ر. عضواً كاملاً للحقوق في اتحاد الأحزاب الشيوعية، ويعتبر أن توطيد هذا الاتحاد هو شرط سياسي هام لاستعادة قيام الدولة السوفيتية الاتحادية والحزب الشيوعي الواحد على أساس طوعي».

ويضيف تقرير لجنة عمل إعداد برنامج ح.ش.ر. بهذا الخصوص:

«أما ما يتعلق باتحاد الأحزاب الشيوعية في أراضي الاتحاد السوفيتي فإن موقفنا هذا قد أعلنه عنه في كونفرنس عموم روسيا الذي انعقد في نيسان ١٩٩٤ إذ ورد أن التاريخ في مسار حركته نحو إعادة بناء الدولة السوفيتية الاتحادية يتطلب تشكيل حزب شيوعي موحد إلا أنه لا يجوز تسريع هذا التشكيل دون بناء المقدمات الضرورية».

خامساً - تجربة الحزب الشيوعي البلجيكي:

تحولت بلجيكا إلى مملكة فيدرالية وتم تشكيل حكومة محلية فلامانكية في القسم الشمالي وحكومة فرانكفونية في القسم الجنوبي في حين رفض سكان بروكسل العاصمة الدخول في هذه العملية وشكلت فيها حكومة ثالثة إلى جانب الحكومة المركزية الفيدرالية.

وقد انقسم الحزب الشيوعي إلى حزبين منفصلين ومستقلين عن بعضهما ولا

تربطهما في الوقت الحاضر سوى لجنة مشتركة تلتقي بشكل دوري للتباحث في كيفية التعامل مع الأرشيف السابق للحزب وتوزيع ميراثه.

ومن بين الـ ١٧ بلد التي تعتمد الفيدرالية والـ ١٨ بلداً التي تستند إلى بعض مبادئها توجد تجربتان، حسب اطلاعنا، وهما كالتالي:

١- أحزاب ماركسية مستقلة توجهت عبر العلاقة الفدرالية للتقارب والاتحاد (إسبانيا).

٢- حزب ماركسي واحد توجه عبر العلاقة الفيدرالية لتكوين أكثر من حزب ارتباطاً بنشوء دولتين مستقلتين سلوفاكيا، جيكليا.

### الخلاصة:

١ / تجارب الأحزاب الشيوعية دلت أن قيامها منذ البداية يستند إلى المبدأ الأممي. أي أن الحزب الشيوعي يضم في صفوفه العمال والفلاحين والمثقفين والكانحين عموماً بصرف النظر عن الانتماء القومي. ولم نلاحظ وجود حزب شيوعي على أساس قومي بما فيه الحزب الاشتراكي في كاتولونيا.

٢ / شكل وطبيعة ومستوى تمثيل الشيوعيين من مختلف القوميات يختلف من بلد إلى آخر على صعيد الأحزاب الشيوعية، بعض البلدان الفيدرالية حزب واحد موحد لا يعطي أي خصوصية متميزة للمسألة القومية وبعض البلدان الفيدرالية تقوم الأحزاب الشيوعية فيها على أساس الجمع بين الأممية والقومية، بين الاتحاد واللامركزية، ومثال ذلك إسبانيا. إلا أن كل التجارب تقوم على بناء حزب واحد.

٣ / خصوصية المسألة القومية على صعيد البلدان تجد انعكاساتها بالضرورة على صعيد الأحزاب، مما يتطلب البحث عن الشكل المناسب لبناء الحزب وفق الظروف الملموسة، أخذين بنظر الاعتبار التجارب السابقة والأوضاع الراهنة والمستقبل المنظور على الصعيدين الوطني والعالمي، الداخلي والخارجي.

## التيار الديمقراطي لابد أن يؤكد وجوده

### عزت العراقي

بمساهمتي في مناقشة «الموضوعات» لم اتناول ظاهرة «التيار الديمقراطي» على أهميته، فأطرح هنا ملاحظاتي حوله.

منذ فترة، ليست بالقصيرة، نسمع ونقرأ في صحف المعارضة العراقية أخباراً عن نشاطات وفعاليات يقوم بها التيار الديمقراطي العراقي في أرجاء مختلفة من العالم. وقد توزعت هذه النشاطات على موضوعات مختلفة صبّت في مجملها في التعريف بمعاناة شعبنا الذي يئن تحت وطأة النظام الديكتاتوري وممارساته، التي تنتهك بفظاظة أبسط حقوق الانسان، فضلاً عن الظروف المعاشية القاسية الناتجة عن الحصار الاقتصادي الذي لم يلحق الأذى بالنظام قدر ما لحقه بشعبنا، وهي نشاطات للحصول على أوسع تضامن مع شعبنا، وللمطالبة قوياً بشعبنا واحزابه الوطنية ورص صفوفها ونبذ الخلافات الثأنوية وجعل مصلحة الوطن فوق كل اعتبار، مستتكرة حالة الاقتتال الجارية في كردستان التي تصب موضوعياً في صالح النظام على حساب مصلحة شعبنا العراقي بعربيه وأقلياته القومية.

وكان أبرز عناوين هذه الفعاليات رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب وتشديده على النظام، المطالبة بتطبيق القرار ٩٨٦ بصيغة «النقط مقابل الغذاء» كخطوة ضرورية في الوقت الحاضر على طريق الرفع الشامل، وقطع الطريق أمام أي تسويق في تنفيذه من قبل النظام أو الجهات الأخرى، والمطالبة بتطبيق القرار ٦٨٨ الخاص بحقوق الانسان

العراقي والسعي لجعل هذا القرار ملزماً كما هي حال القرارات الأخرى التي صدرت عن الأمم المتحدة، هذا فضلاً عن النشاطات والفعاليات ذات الطابع الاستكثاري للاقتتال في كردستان.

وعلى صعيد ترتيب أوضاع التيار الديمقراطي الداخلية، تمت خطوات جيدة ذات مغزى هام تؤثر، من حيث الجوهر، الامكانات الكبيرة الكامنة التي ينطوي عليها هذا التيار. فقد تشكلت عدة لجان تنسيق في بلدان مختلفة منها بريطانيا، والسويد وبلغاريا، هذا بالإضافة لأشكال التنسيق الجارية داخل البلاد. وأصدرت بعض لجان التنسيق نشرة بإسمها معرفة بنفسها وما قامت به من نشاطات وفعاليات. ويبدو أن المحاولات جارية في بلدان أخرى لتشكيل لجان تنسيق لقوى التيار الديمقراطي. ليس هذا وحسب بل يلاحظ أن هناك شكلاً من أشكال التنسيق بين لجان التنسيق نفسها يأخذ طريقه للتبلور والظهور، مما يبشر ببوادر عمل منسق كبير الأهمية قد ينهض به التيار الديمقراطي خلال الفترة القادمة (انظر نشرة ل/ت التيار الديمقراطي، بريطانيا، العدد/٢).

إن الاهتمام بالتيار الديمقراطي ونشاطاته وتطور عمله ينبع من الحاجة الفعلية الماسة لهذا التيار في ساحة النضال الوطني الذي يهدف إلى القضاء على النظام الديكتاتوري وإقامة نظام وطني ديمقراطي قدرالي موحد، تعددي وتداولي، وبناء دولة القانون والمؤسسات الدستورية. فالتيار الديمقراطي يضم قوى واحزاباً وشخصيات لها تاريخ عريق مفعم بالنضال الجسور والتضحيات الجسام، وتمتلك تجارب وخبرات نضالية كبيرة وقيمة اكتسبتها من خلال معاركها العشرية ضد أعداء الوطن والشعب وفي سبيل بناء مستقبله السعيد ودفاعاً عن كرامته وحرية. والتيار الديمقراطي فضلاً عن ذلك يمتلك طاقات علمية متخصصة موزعة على جميع فروع العلم والمعرفة، من مفكرين وعلماء ومختصين وكوادر قادرة على التعامل مع أحدث المعطيات للعلم والتقنية الحديثة، تلك الطاقات التي لا يمكن الاستغناء عنها في عملية إعادة بناء الوطن، وهي ضمانة لتطوره اللاحق.. ناهيك عن العدد الهائل من رجال الثقافة والأدب والفن والمشتغلين في شتى ضروب الإبداع الانساني، إلى جانب الاساتذة والمربين المفعمين بالروح الوطنية والتقدمية والمثل الانسانية النبيلة. هذه الطاقات البناءة الجبارة متحمسة لتطبيق معارفها داخل الوطن إذا ما توفرت لها أجواء الحرية والديمقراطية الحقيقية، الضمانة الوحيدة لازدهار العطاء والابداع.



ويتميز التيار الديمقراطي احزاباً واشخاصاً، بقدرته على مراجعة نفسه وتقويم نشاطه وانتقاده أخطائه التي وقع فيها والبحث عن الضمانات التي تحول دون تكرارها.. وقدرته على التجديد والالتزام الصارم بمثل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. حقاً لم يرتفع كل شيء نحو مستوى الطموح وبالقدر الذي نتحدث عنه الوثائق الصادرة عن الأطراف المشكلة في التيار الديمقراطي، وكما تدل المتابعة المتأنية للممارسة الفعلية على الأرض لكن تغييراً كبيراً قد حدث فعلاً، وتحولاً في طريقة التفكير والنظر الى الأمور قد توطّد. ومن الصعب بل المستحيل التراجع عن ما تم تحقيقه. إن هذا التقدم لم يتحقق، على ما يبدو، إستجابة لرغبة شخص يمتاز بنفاذ البصيرة، او عدد من القادة العقلاء، بل إستدعاه تطور الحياة ذاتها وفرضه منطقها الخاص. ومن يريد مجاراتها لا بد له أن يتعامل مع معطياتها ووقائعها ويوظفها لخدمة الاهداف النبيلة التي يناضل من أجلها.

إن المعطيات الملموسة تؤكد ان هذا التيار قادر على استخلاص العبرة من الاخطاء التي وقع فيها مثل غيره من القوى الوطنية العراقية، منظمات واحزاباً، ومن أهمها اهمال قضية الديمقراطية السياسية، وضرورة التعامل مع الرأي الآخر بإحترام وحرص، واحترام حقوق الانسان وحياته وكرامته ووضعها فوق اي اعتبار، وقيام دولة القانون والمؤسسات الدستورية. ان وعي أهمية ما تقدم لاناظره فقط في ادبيات اطراف هذا التيار، بل يتجسد أيضاً ويحدود معقولة في الممارسة الفعلية، وبالدربة الاساسية في الحياة الداخلية للاحزاب والتشكيلات السياسية ولسلوك الشخصيات التي تنتمي لهذا التيار، او تلك التي تحسب على ملاكه. كما نلاحظه متجسداً في الوثائق الداخلية التي صدرت عن هذا التيار. جاء في لائحة حركة تنسيق التيار الديمقراطي العراقي /بريطانيا على سبيل المثال: ان حركة التيار الديمقراطي في بريطانيا هي حركة سياسية تضم احزاباً وقوى ومنظمات وشخصيات مستقلة تلتزم بالديمقراطية فكراً وممارسة. وتسعى الحركة الى تنسيق جهودها بهدف نشر الوعي السياسي الديمقراطي من أجل تحقيق الديمقراطية القائمة على سيادة القانون والبرلمانية والتعددية السياسية والفكرية واحترام حقوق الانسان وضمان الحريات العامة والخاصة وتحقيق العدالة الاجتماعية. وعن اساليب عملها تقول لنا الوثيقة: «تستند الحركة في عملها الى الاساليب الديمقراطية واحترام حرية الرأي والفكر والتعبير سواء في علاقاتها الداخلية او الخارجية». اما الانتساب الى الحركة «فهو مفتوح لكل من يعمل على تحقيق اهدافها وبرامجها من

«أحزاب وقوى ومنظمات وشخصيات مستقلة». كما تجيز لغير المنتسبين لها أو لعضويتها من الأحزاب والقوى والشخصيات ويتفقون مع أهدافها حضور اجتماعاتها ومؤتمراتها.

وبالإضافة الى ما تقدم فإن التيار الديمقراطي يعلن بوضوح شديد إيمانه العميق بإمكانية شعبنا العراقي وقدرته على تخليص نفسه من ليل الديكتاتورية إذا ما تضافرت جهود ابنائه وتوحدت طاقاتهم، ولا يجد في الاعتماد على العامل الخارجي والتعويل عليه سوى الجري وراء الأوهام رغم اعترافه بتأثير هذا العامل على مجريات الأمور في بلادنا بسبب السياسة الرعناء للطغمة الحاكمة وما ترتب عليها من نتائج معروفة. لكن تأثير هذا العامل يتحدد بمدى انسجامه مع مصالح الأطراف الدولية والاقليمية التي تضع مصالحها أولاً وقبل كل شيء..

وهكذا فإن التيار الديمقراطي تشكيل سياسي للقوى الوطنية العراقية واسع وعريض يعبر من خلال نشاطاته الفكرية والسياسية وفعالياته وتوجيهاته عن طموحات الشعب العراقي بكل تلالينه الاجتماعية ويسعى لترسيخ قواعد الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الانسان. وهو بعد ذلك لا يعتبر نفسه بديلاً للقوى والأحزاب والمنظمات، ولا يسعى الى إلغاء أحد قدر ما يطمح الى توظيف كل جهد خير في خدمة الوطن ومستقبله الديمقراطي.. لذلك فهو مرشح لان يلعب دوراً فاعلاً في إطفاء شعلة العداء والاحترا ب وسوء الظن والريبة السائدة في ساحة المعارضة العراقية، (التي ما انفك النظام واعداء شعبنا العراقي يذكونها باستمرار) واقتلاع جذوتها الى الأبد.

رغم ذلك فإن هذا التشكيل الجديد المتميز عن التشكيلات التي عرفناها سابقاً على الساحة السياسية العراقية لا يزال في بداية الطريق ولا بد أن يحث الخطى ويعمل بوتيرة أسرع تتناسب مع وتيرة تطورات الاحداث الجارية في بلادنا والتحديات التي تتعرض لها، ومع وتيرة الترددي المتواصل للحياة المعاشية والصحية والاخلاقية التي تزداد تدهوراً كل يوم بل كل لحظة.

وأن يعلن التيار الديمقراطي انه حركة سياسية ديمقراطية الا اننا لم نلاحظ، حتى الساعة، وجود أي برنامج سياسي لهذه الحركة يعين بوضوح مفهومه للديمقراطية، كيفية انتقال البلاد من ليل الديكتاتورية واستهتارها بحقوق الانسان العراقي الى مجتمع الديمقراطية والعدالة الاجتماعية التي يتحدث عنها التيار، وما الذي ينبغي عمله للوصول الى هذا الهدف، وما هي السبل والأساليب التي يرى هذا التيار اعتمادها، ماهو منظوره

لاشارك الانسان العراقي المعني بهذه التحولات، في هذه العملية، كيفية مواجهة القيم والتقاليد والاعتبارات التي غرسها النظام في اذهان الناس طيلة فترة حكمه البغيض وبدد من أجل ذلك أموالاً طائلة، قيم القوة والعنف والقمع والقسر واحتقار الانسان والتكرار لحقوقه، واستبدالها بالمثل التقدمية والديمقراطية.. الخ؟ ولكي يحظى التيار الديمقراطي بالدعم والتأييد من قبل القوى الديمقراطية والشعب العراقي عامة لابد أن يكون واضحاً ومفهوماً، لا رقماً آخر يضاف لقائمة المعارضة المعروفة..

إن تصوراً واضحاً لمفردات هذا البرنامج لم يتشكل بعد حتى في إطار القوى المكونة للتيار الديمقراطي، على ما أعتقد. ففي «موضوعات» المؤتمر الخامس والنقاش الدائر حولها، طرحت آراء مختلفة بدرجة أو أخرى حول الانتماء للتيار الديمقراطي، وهل إن هذا التيار عام شامل لكل الديمقراطيين أم أنه تيار لليسار العراقي فقط، ناهيك عن المستوى المتفاوت من الحماس، بغية الارتقاء بصيغ عمل التيار واساليبه ودفعه خطوات أخرى إلى الأمام. كما إن هذا التيار يعاني ويحدود معينة من امراض المعارضة العراقية، واقتصد موضوع الزعامة والنسب وما إلى ذلك. وعلى هذا الصعيد أعتقد أن من المناسب أن تكون اللائحة الداخلية، إذا جازت التسمية، واضحة وضوحاً كافياً لالغاء أي إشكال وبما يضمن توظيف كل الجهود نحو تحقيق الاهداف التي يسعى التيار لتحقيقها.

ويلاحظ أيضاً أن وتيرة التحرك والاتصالات بالقوى والأطراف والشخصيات الديمقراطية غير المنتمية للتيار الديمقراطي والتنسيق معها محدودة وبطيئة للغاية. أما فعالياته ونشاطاته فغالباً ما تأخذ طابعاً مناسباتياً، إذا جاز التعبير.

ومع ذلك فالتيار الديمقراطي حافل بالامكانات والطاقات الوطنية الخيرة، ويمتلك كل أسباب النجاح إذا ما تضافرت جهود أطرافه وجهود كل الديمقراطيين من أبناء وطننا الحبيب، من أجل تقريب ساعة النصر على الديكتاتورية ونظامها البغيض وبناء غد بلادنا الحر الديمقراطي المزدهر.

١٩٩٦/١١/١٣

## لتبقى السياسة الوطنية ثابتة

عبد الهادي حسين

كان الحزب الشيوعي العراقي منذ تأسيسه حزباً للوحدة الوطنية لانه التنظيم السياسي الوحيد الذي ضمّ ويضمّ بين صفوفه كل مكونات الشعب العراقي (عرباً — كرداً — تركماناً — ارمن — مسلمين ومسيحيين، صابئة — يهود — يزيديين) انه حزب كل العراقيين. وبالرغم من هوية الحزب وايدولوجيته الطبقية، كان لبرنامج السياسي الوطني، الذي يلبي طموحات واماني غالبية الشعب، دوراً في سعة وانتشار افكاره بين شرائح متنوعة من مجتمعنا. كتب بهجة العطية عام ١٩٤٩، بصفتها رئيساً للشرطة السياسية يقول: «انتشرت الشيوعية انتشاراً واسعاً في المدن الكبرى الى درجة ان الحزب اجتذب اليه في ايامه الاخيرة مايقرب من ٥٠٪ من شباب الطبقات كافة» وهذا يدل على عمق تغلغل افكار الحزب بين صفوف العراقيين آنذاك. ولقد اكدت تجارب الواقع وبرامج الحزب السياسية ان التغيير المنشود لمجتمعنا ليس على يد طبقة دون غيرها وانما يتطلب تحالفاً عريضاً بين كل الشرائح الاجتماعية التي لها مصلحة في التغيير التقدمي الديمقراطي.

لذلك كان انتشار او انحسار شعبية الحزب تحددهما دائماً برامجه السياسية وطرق واشكال النضال من أجل تطبيقها. فكلما كان برنامج حزينا سياسيا وطنياً يضع مصالح شعبنا ومستقبله كهدف لسياسته كلما ازداد قوة واتسعت قواعده واجتذبت ثقافاً شعبياً واسعاً حوله، وكلما جانب الواقعية باتجاه مصالح وسياسات مرحلية كتحالفاته مع

النظام الحالي سابقاً وتجاربه التحالفية الحالية مع فصائل المعارضة العراقية، انعكست سلباً على سمعة الحزب السياسية وسببت أرباكاً وانكساراً سياسياً في منظومة افكاره وبين صفوف اعضائه ومناصريه.

ولأننا على مشارف مؤتمرنا السادس، وإزاء الوضع السياسي المتدهور والغامض الذي دشنه النظام بدخوله غير المفاجئ الى كردستان، وإمام التهديدات والتدخلات الاقليمية، وضربات الامريكان المستمرة لعراقنا العزيز، وإزاء الجوع العراقي المستمر والمخاوف الوطنية المشروعة على وحدة العراق وسيادته، لابد أن يكون لحزبنا الشيوعي برنامج وخط سياسي واقعي يمحس كل هذه المآسي السياسية ويستشرف تفاعلاتها في المستقبل القريب والبعيد.

يرى البعض ان هناك تناقضاً بين شعارى اسقاط النظام ورفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا اللذين أقرهما المؤتمر الخامس للحزب، بل هنالك من يعتقد أن شعار رفع الحصار ماهو الا غزل مع النظام الشوفيني بحجة ان حزبنا ونظام بغداد يطالبان برفع الحصار الاقتصادي، بمعنى آخر، يعتقد هؤلاء ان رفع الحصار يعني تقوية النظام وادواته القمعية، لان طاغية العراق سيسثمر معظم الدخل لدعم مؤسسات الامنية وتزويد جيشه الجمهوري بكل انواع أسلحة الدمار. ويتناسى هؤلاء ان الحصار الاقتصادي مفروض اساساً على الشعب فقط وان النظام لم يتأثر به قطعاً وعلى العكس تماماً فقد ظل النظام ممسكاً بخناق شعبنا بالرغم من انتفاضة شعبنا في آذار ١٩٩١ وبالرغم من جميع الصراعات والتصدعات التي حدثت في مؤسسات النظام وداخل الاسرة الحاكمة، وظل متمكناً من دكتاتوريته وتعسفه واضطهاده لعموم شعبنا، واستطاع، بفعل عامل الحصار، ايصال شعبنا الى مدارك قلما وصلها شعب آخر. وهذه المأساة مستمرة امام الصمت المطبق من شعوب العالم وانظمتها وبموافقة كل انظمة الغرب وخاصة امريكا تحت لافتات شرعية الامم المتحدة وقوانينها..

وحسب بيان منظمة اليونيسيف المعلن في تشرين الثاني ١٩٩٦، أدى الحصار ويؤدي الى موت أكثر من ٤٥٠٠ طفل شهرياً بسبب سوء التغذية ونقص الدواء. ونتيجة لدمار البنية التحتية بفعل قصف الحلفاء تعطلت المعامل والمصانع وشبكة الخدمات. فاصبح الفقر والجوع ظاهرة مَست غالبة شعبنا. فظهرت في مجتمعنا ظواهر التشرد، وانتشار الجريمة، وتفسخ الاخلاق، واندثار القيم النبيلة. وهذا يمكن النظام من استمرار سيطرته وقوته على حساب مصالح الوطن والشعب. لقد ادت الضائقة الى تشوهات

خطيرة في طبيعة المجتمع العراقي. ان استمرار الحصار بهذا الشكل الكارثي لا يعني الا استمرار النظام واستفحال الكارثة. فحريّ بهؤلاء الواقفين في صف استمرار الحصار ان يضعوا نصب أعينهم كل هذه الكوارث ومشاعر أهلنا ومأساتهم قبل ان يطالبوا باستمرار الحصار. وليس صدفة ان يطالب هؤلاء ايضاً باحترام الشرعية الدولية وعدم التقاطع مع قراراتها او انتقاد الغرب. وهذا لا يمكن تفسيره بغير مراهنتهم على العامل الخارجي والدور الامريكي بالذات من أجل تغيير النظام، وهم غير مباليين بتقديم تنازلات سياسية تمس سمعة العراق وسيادته الوطنية.

ان شعار المؤتمر الخامس «رفع الحصار الاقتصادي وتشديد الخناق على الدكتاتورية» يبقى صحيحاً ولا يمكن تفسيره الا لصالح شعبنا العراقي. لقد طالب حزبنا، وهذا مسطر في وثائقه، برفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا دون أية شروط، اما تشديد الخناق على النظام، كما طرح ويناضل الشيوعيون من أجل تطبيقه، فهو مسؤولية وطنية تتحملها كل احزاب المعارضة العراقية التي تعمل من أجل اسقاط النظام وارساء البديل الديمقراطي. ويتم ذلك عبر محاصرة ومقاطعة النظام الفاشي سياسياً ودبلوماسياً، عربياً ودولياً، ومطالبة الامم المتحدة ودول الغرب برفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا تحت اشراف دولي لمنع النظام من الاستفادة من العوائد النفطية في تقوية جيشه ومؤسساته القمعية.

المعروف ان لدول الغرب وامريكا بالذات مصالحاً استراتيجية في المنطقة العربية لا يمكن المساومة عليها، وان جوهر النظام الرأسمالي الجديد يؤدي الى استمرار حالة عدم الاستقرار في المنطقة وبناء أنظمة سياسية تابعة وغير معارضة لهذه المصالح. إن دكتاتورية صدام أو أية دكتاتورية أخرى، مع بعض التعديلات الشكلية، هي الاطار الاسلم لتمرير سياسة الامريكان والغرب في منطقتنا ومناطق العالم الثالث الاخرى. وهذا يتطابق مع الرؤية السياسية التي جاءت بها «الموضوعات»... «تحضيراً للمؤتمر السادس لحزبنا حيث نصت ان الامريكان وبعض دول الجوار «يريدون تغييراً فورياً محسوباً بدقة ومسيطر عليه لمنع أية تداعيات غير متوقعة يمكن ان تنشأ عن تدخل جماهير شعبنا وقواها السياسية في عملية التغيير المنشود واعطائها طابعاً ديمقراطياً عميقاً». وهذا هو السبب الرئيسي وراء رفض امريكا والغرب التعامل مع المعارضة الوطنية أو اعطاءها صفة شرعية في تمثيل الشعب العراقي أو دعمها من أجل اسقاط النظام الفاشي. لأن بعض اطراف المعارضة، وحزبنا العراقي طرف رئيسي فيها، تناهض

مبدئياً وعملياً أية وصاية دولية على مصالح شعبنا العراقي. ان امريكا قد اعلنت وعلى لسان اكثر من مسؤول حكومي بان ضربها المستمر للقواعد العسكرية العراقية هدفه المحافظة على مصالحها النفطية في المنطقة. وليس لديها نية لاضعاف النظام أو تقويضه لصالح مجيء نظام وطني وديمقراطي بديل. لكنها وبنفس الوقت تعمل وتراهن وبالتعاون مع حلفائها في المنطقة على خلق وتفريخ نظام استبدادي آخر يتفق مع مقاساتهم وشروطهم السياسية. ودون توافر الشروط هذه لن يرضى الغرب، وامريكا بالذات، ببديل لصدام افضل منه.

لذا على حزبنا، واطراف المعارضة الوطنية الاخرى، أن تدرك صعوبة تحقيق البديل الديمقراطي في ظل الشروط الدولية القائمة. وهذا لا يعني استحالة تحقيق هذا البديل. فنضال الشعوب ووصولها لانظمة وطنية ديمقراطية في مناطق مختلفة من العالم خير دليل على ذلك. وهنا تكمن مهمة حزبنا واطراف المعارضة العراقية الاخرى للعمل من أجل بناء تحالف وطني ديمقراطي يرفض التعويل على العامل الخارجي الأمريكي بالذات، من أجل اسقاط النظام وبناء نظام ديمقراطي تعددي. وهذا لا يعني مقاطعة القرارات الدولية بل الصحيح هو استثمار كل القرارات والامكانيات الاممية والدولية التي تخدم قضية شعبنا ومستقبله والتحرك بشكل جدي على المحور الاوربي ومؤسساته السياسية لصالح قضيتنا. وعلى حزبنا بشكل خاص الابتعاد كلياً عن سياسة تحالفات الحد الأدنى والتحالفات العريضة والتي ساعدت في سياق صيرورتها وتعاقبها ومنذ ربع قرن على دوام هذا النظام واستفحال افحش فاشية عرفها العالم حديثاً. فهناك تيارات واحزاب غير منسجمة وضعيفة داخل خيمة المعارضة عاجزة عن اسقاط الطاغية ونظامه. ان التحالف السياسي التاريخي المطلوب لن يكون تحالفاً الا لمستقبل استقرار العراق السياسي في بناء نظام وطني ديمقراطي يطوي صفحات العنف والجور ويحقق مصالح شعبنا في الامان والسلام. وعلى حزبنا ان يناهض بل ويفضح كل التحالفات التي تختبئ تحت شعار وهدف اسقاط النظام فقط. فهدف اسقاط النظام وبالرغم من اهميته الكبرى لا معنى له دون ربطه بهدف اسمى وهو استقرار العراق سياسياً. ان جوهر التحالفات السياسية يجب ان يكون مرتكزاً على مستقبل العراق وسقوط النظام جزء من افق هذا المستقبل وليس العكس، فرصاصة طلثشة ومتردة من جندي مجهول أو تمرد ثكنة عسكرية أو حتى جرعة ماء قد تؤدي هذه المهمة. ولكن السؤال يبقئ: هل يستقر العراق؟ وهل يستفيد النظام الجديد من دروس السياسة في العراق ام انه سيسستجد

بالشعب كعادة من سبقوه ويعدمهم بوفرة الدواء والغذاء والعيش الرغيد ثم ينقلب ضد وعوده ويمارس دكتاتوريته التي لا تختلف عن سابقتها الا في الشكل؟

الكلام عن التحالفات يجرنا للحديث عن ضعف وتششت المعارضات العراقية. إن أهم أسباب تششت المعارضة العراقية هو عدم اتفاقها على هدفين مركزيين يهمان مصلحة الشعب العراقي ومستقبله، وهما وسائل اسقاط النظام وشكل النظام السياسي القادم. فبالضد من سياسة حزبنا وبعض الأطراف الوطنية الاخرى والذي يشكل التيار الديمقراطي محوراً الذي يراهن ويعمل على استنهاض قوى شعبنا في الداخل والخارج من أجل الاطاحة بالنظام، هنالك أطراف من المعارضة تعمل على العامل الخارجي، وأمريكا بالذات، وأخرى على قوى اقليمية كوسائل اساسية لاسقاط النظام، بل ان بعض الاحزاب القومية بمعية بعض القوى الاسلامية تدعو الى تحالف غايته النهائية اسقاط النظام فقط على ان يترك للشعب العراقي حرية اختيار شكل نظامه السياسي القادم. ان هذا الطرح الغامض ينطوي على نيات وحسابات بعيدة عن مصالح شعبنا الوطنية. فعلى الرغم من التزامنا بحرية الشعب العراقي في اختيار نظامه السياسي وهي عين الديمقراطية الوطنية، الا اني لا اساطر هؤلاء هذا الموقف لانهم يضمرون غير ما يعلنون، مما يؤدي الى «افغنة» العراق عبر شعار دع الشعب يختار نوعية وشكل نظامه السياسي القادم، فالشعب العراقي الذي عركته المآسي والويلات الطويلة لن يختار غير طريق الديمقراطية والسلام ومن يراهن على غير ذلك ومهما كانت شعاراته يعمل على استبدال نظام الحكم الحالي بنظام اسوأ من نظام صدام. فبعض هذه الاحزاب وبدعم من قوى اقليمية مجاورة تسعى لفرض سياستها ومفاهيمها على قوى المعارضة العراقية وعلى الشعب العراقي قبل سقوط النظام الفاشي فماذا يفعلون بعد سقوط النظام؟ وكيف يختار الشعب شكل نظامه القادم وفي اي مناخ؟ فبعض هذه القوى تعتبر العنف من الوسائل المقدسة وتؤطر اتباعها على اسس طائفية ضيقة تتنكر لحقوق الكرد وتناقض حقوق الاقليات وتعتبر مفهوم سيادة الشعب تعدياً على حكم الله ومفردات الديمقراطية والحرية والسلام مفاهيم ماسونية وغربية يجب الجهاد ضدها.

لذلك، على الحزب الشيوعي العراقي ان يرسم سياسته التحالفية على أساس مستقبل استقرار العراق السياسي، والشرط الديمقراطي يحدد الحلفاء الحقيقيين لحزبنا ومصلحة شعبنا ومستقبله. ونظراً لتنوع الخارطة السياسية العراقية ولمدى قرب أو بعد هذه المعارضات من موضوع الديمقراطية يمكن أن يتشكل أكثر من تحالف سياسي.



ولاضرير من تكوين لجنة وطنية للتنسيق بين هذه التحالفات وتقريب وجهات النظر في سبيل اسقاط النظام وتأسيس نظام وطني ديمقراطي، على ان يترجم ذلك على ارض الواقع عبر انشاء قيادة ميدانية داخل العراق تحضر لانتفاضة شعبية جديدة مستفيدة من اخطاء تجربة انتفاضة آذار ٩١ المجيدة وتوكل اليها مهمة استنهاض وتنظيم قوى شعبنا في الداخل بكل مكوناته للإطاحة بالنظام، وان تلعب اللجنة الوطنية دوراً أساسياً وجاداً بارساء علاقات عمل وتضامن مع شعوب واحزاب وانظمة دول الجوار، وتعمل لتقوية علاقاتها مع منظمة الامم المتحدة ودول الاتحاد الاوروبي لصالح قضية شعبنا العادلة. وعلى حزبنا ان يستفيد من اخطاء التجربة الانصارية في كردستان ويبدأ كفاحه المسلح في عموم العراق، على ان يتزامن هذا الكفاح مع النضال السياسي السلمي عبر المطالبة المستمرة بتطبيق قرار رقم ٦٨٨ والتوصيات الدولية الاخرى الخاصة بحقوق الانسان في العراق، والعمل على فرض انتخابات ديمقراطية تحت اشراف الامم المتحدة ودول الاتحاد الاوروبي في ظروف وشروط تتيح للشعب العراقي التعبير عن رأيه في جو من الطمأنينة وتجربة جنوب افريقيا مثال ساطع لهذا المنحى العنفي — السلمي للتضال.

وعلى حزبنا واطراف المعارضة العراقية ان تستغل ظروف الصراع السياسي — الاقتصادي الدائر بين امريكا ودول الاتحاد الاوروبي ورغبة الاخيرة في ان تلعب دوراً سياسياً تنافس به الدور الامريكى في المنطقة. كما صرح بذلك ديك سبرنج وزير الخارجية الايرلندي في ١٠/١٠/٩٦، بصفته رئيساً للاتحاد الاوروبي، وكما اكد الرئيس الفرنسي شيراك في زيارته للمنطقة العربية مؤخراً. وعلينا ان نقوم بحملة دولية مكثفة عبر نشاطات اعلامية وفعاليات سياسية خاصة بالغاء الحصار الاقتصادي وتقديم صدام وزمرته لمحكمة دولية ومن أجل نظام ديمقراطي للعراق. وتبقى مهمة حزبنا الملحة والوطنية، وبالتعاون مع المنظمات والاحزاب العراقية والشخصيات الوطنية المستقلة، تقوية التيار الديمقراطي العراقي وتوسيعه وتحديد مفاهيمه السياسية على ان يتضمن برنامجا سياسيا برنامجا اقتصاديا يتفق مع الاعلان العالمي لحقوق الانسان. وبذلك يمكن ربط الديمقراطية السياسية بالعدالة الاجتماعية، لان التفاوت الكبير بين الدخل وتوزيع الثروة يهدد الديمقراطية ذاتها.

مما لاشك فيه أن حالة كردستان العراق أدخلت اطراف المعارضة العراقية في اوهام سياسية قاتلة وحزبنا الشيوعي واحد من هذه الاطراف التي راهنت على حالة كردستان

وتجربتها «الديمقراطية» وعلى مستقبل الحركة الكردستانية وآفاق تطورها. ومن هنا جاء الخطأ الفادح باعتبار كردستان قاعدة أساسية ووحيدة لانطلاق المعارضة العراقية، وحركة الانصار خاصة، وبالتالي ترك ساحة العراق بتنوعه وشعبنا في الداخل دون سند نضالي، دون أخذ الظروف الاقليمية والدولية وحساسة القضية الكردية في منطقة الشرق الاوسط بعين الاعتبار. لقد زاد في الطين بله الاحتراب الداخلي بين (حدك) و (أوك) وتداعيات ذلك الاحتراب الذي توج بدخول قوات صدام الى أرض كردستان بطلب من (حدك) وتدخلات ايرانية وتركية مستمرة بطلب من هذا الطرف أو ذاك. فصارت كردستان ساحة حرب مملوءة بالالام والتشرد وموقعاً للتدخلات الخارجية والداخلية ومرتبعةً للمخابرات الاقليمية والدولية. فتحوّلت كردستان الى وضع لا يخدم مصلحة الشعب العراقي، والشعب الكردي بالذات. لذلك يجب على حزبنا ان يضع النقاط التالية كركائز أساسية في سياسته المستقبلية الخاصة بكردستان:

(١) ان ما يُسمّى كذباً بالملاذ الآمن هو حالة مؤقتة لا يمكن ان تستمر في الظروف الاقليمية والدولية السائدة، لذا يجب الاستفادة من حالة كردستان الحالية لحماية الشعب الكردي وقواعد المعارضة العراقية أولاً واعتبارها ثانياً إحدى المنطلقات الممكنة لاسقاط النظام الحالي.

(٢) ان تعمل جبهة الاحزاب الكردستانية، وبدعم من قوى المعارضة العراقية وبالتعاون مع المنظمات الدولية المختصة بحقوق الانسان ومجموعة دول الاتحاد الاوروبي، من أجل اكتساب شرعية دولية لادارتها الذاتية للمنطقة الكردية وذلك عبر انتخاب برلمان وحكومة كردية تعكس الخارطة السياسية في كردستان العراق.

(٣) ان مستقبل كردستان مرحلياً ومستقبلاً مرتبط بمستقبل الديمقراطية في العراق. فالنضال من أجل اسقاط النظام الفاشي واقامة بديل ديمقراطي هي مسؤولية كل العراقيين بكل مكوناتهم، ومسؤولية الاحزاب الكردستانية مسؤولية مزدوجة وطنية وقومية. لذا على احزابنا الكردستانية استشارة واشراك اطراف المعارضة العراقية بكل المفاوضات الاقليمية والدولية التي تهم قضية كردستان لانها جزء من قضيتنا الوطنية في العراق.

لندن، ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٦

## حول مقالة هادي العلوي

### «التنظيم المشاعي للمجتمع»

عبد الإله الياسري

١ - «إنَّ مرورَ جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنيَّ الى ملكوت الله».

انجيل متى ١٩

٢ - «والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشروهم بعذاب أليم، يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون».

سورة التوبة - آية ٣٤-٣٥

٣ - رأس المال «سرقة متصلة وافتئات على العمل».

رأس المال - ماركس

قدّم المفكر الوطني هادي العلوي (في الثقافة الجديدة - العدد ٢٧١ لشهري آب وأيلول ١٩٩٦) مخططاً للحزب الشيوعي العراقي تحت عنوان: «التنظيم المشاعي للمجتمع» ليطالب به «بعد سقوط نظام صدام حسين حيث ستنتفتح الساحة للحضور الشيوعي...». والمخطط جدير بالاهتمام الوطني للتوصل الى المعرفة الحقيقية المطابقة لواقع العراق، والعمل بها بمعزل عن التأثير بأيّ ضغط خارجي أو داخلي.

وقبل أن أحدد موقعي منه، أحاول وصف بنائه العام، ثم تفكيك مكوناته الأساسية التي تكون منها لتقريبه ومعرفته أكثر. يتلخص بناء المخطط العام بالافكار الآتية:

- أسس التنظيم المشاعي للمجتمع وتقييم المذاهب المشاعية وتجاربها في الشرق.
- الترابط الشبكي بين المشاعية المحلية والايديولوجيا الماركسية.
- الصيغة التطبيقية للتنظيم المشاعي وضمان نجاحه واستمراره في ظل سلطة شيوعية.
- علاقته بالديمقراطية والتعددية.
- وهو يتركب من قسمين رئيسين: تشريعي وتنفيذي.

### أ- القسم التشريعي:

- ويتكوّن من عنصرين مندمجين في وحدة فكرية مؤسسة على الالتزام الشيوعي.
- وهذان العنصران المندمجان هما: المشاعية المحلية والايديولوجيا الماركسية.

### ـ المشاعية المحلية:

- وهي النسخة الاصلية القديمة للشيوعية في الشرق. وتظهر في نموذجين: نموذج تنظيري ونموذج تطبيقي. والنموذج التنظيري هو ما تعكسه مذاهب الحكماء الشرقيين. ومن أكثرهم وضوحاً وعمقاً حكماء الصين: «المنتمون الى المدارس الثلاث الكبرى: التاوية والموهية والكونفوشية الجديدة» وحكماء الاسلام: «المنتمون الى سلك التصوف الاجتماعي». والتياران يلتقيان في تكوين «المجتمع العظيم (...)» الذي تكون فيه الدولة ومؤسساتها في خدمة الشعب وليس العكس». والنموذج التطبيقي هو ماورد على سبيل المثال في تجربتين مشاعيتين هما: تجربة المسيح وحوارييه زمن الامبراطورية الرومانية وتجربة القرامطة في العراق زمن الدولة العباسية.

### ـ الايديولوجيا الماركسية:

- وهي النسخة الشيوعية الحديثة المتطورة الى «موقف اممي» والمتداخلة مع الشيوعية المحلية في الموقف الاجتماعي الطبقي المشترك، والتمتيزية عليها باكتشاف قوانين الجدل المادي لاستخدامه لتغيير الواقع. ولكنّ كلتيهما لاتعملان الا مندمجتين كشفرتي المقص: «ان الحكمة الشرقية لاتكفي وحدها والماركسية لاتكفي وحدها فلا بد من الشفع بينهما لانشاء شيوعية فاعلة». وضرورة اندماجهما معلّلة بمسألتين: — عجز الماركسية وحدها في التجارب الشيوعية الحديثة.

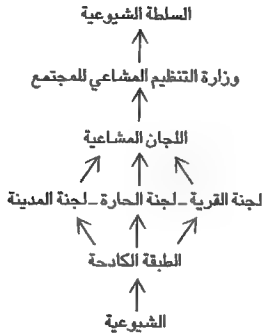
— عجز المشاعية المحلية وحدها في التجارب الشرقية القديمة.  
ومن اندماجهما تتولد «الشيوعية الفاعلة» التي لا تخرج من فضاء الفكر الى ميدان الواقع لتطبيقها عليه إلا بواسطة: وهي السلطة الشيوعية الجديدة المتجاوزة سلبيات السلطات الشيوعية.

#### **— الالتزام الشيوعي:**

وهو المفسر بـ «الموقف الشيوعي من الشعب كمنحى التزام اجتماعي طبقي لا كمنحى التزام ايدولوجي»، ولأنه «اجتماعي طبقي» يكون محصوراً بالجماعة المعوزة، ومنحازاً لمصلحتها. وبنفى «الايدولوجي» المحض منه يكون اساس البناء في المخطط قد اقتصر على الالتزام الفعلي فقط. إن نجاح الشيوعية الفاعلة في القسم التشريعي من المخطط يتوقف على المداخلة بين المشاعية المحلية والماركسية من جهة، وعلى الالتزام الشيوعي الفعلي والسلطة الشيوعية من جهة أخرى. ومن هذا تتكون المعادلة الأتية:  
(المشاعية المحلية+الماركسية) + الالتزام الشيوعي = السلطة الشيوعية = نجاح الشيوعية.

#### **ب - القسم التنفيذي:**

يكون تنفيذ المخطط بعد سقوط صندم حسين بمبادرة من الدولة التي يفترض ان تكون للحزب الشيوعي العراقي فيها سلطة لاستحداث وزارة جديدة باسم «وزارة التنظيم المشاعي للمجتمع» يديرها الشيوعيون الفاعلون الذين ينطبق عليهم الالتزام الشيوعي المفسر في المخطط. «وتقوم الوزارة بتشكيل لجان «مشاعية» تعمل في القرية والحارة والمدينة، لتؤدي وظائف غذائية وصحية وسكنية واجتماعية وامنية للطبقة العراقية الكادحة (٨ وظائف). وغاية الوزارة هي تطبيق مفهوم التنظيم المشاعي للمجتمع الذي يعني «البدء بالشيوعية من القاعدة وايصالها الى القمة بدل الوضع المعكوس الذي طبقت به الشيوعية في الاتحاد السوفييتي (السابق) بعد البلاشفة». لضمان استمرارها المرهون بوجود سلطة شيوعية جديدة من جهة وظهور طليعة مشاعية واعية متجاوزة ظاهرة المثقفين «الحاكمة الآن في الوسط الثقافي العربي» واتخاذ اجراءات وقائية لانجاح المخطط من جهة ثانية. ويوضح التخطيط التالي صيغة العمل:



ويهذين القسمين: التشريعي والتنفيذي يكتمل بناء «التنظيم المشاعي للمجتمع» موضوعاً للمقارنة مع ابنىة الغير من حيث الديمقراطية والتعددية:

ان افكار المخطط ليست ديمقراطية لانها منحازة، وليست قمعية بنفس الوقت لان الخيرات المادية للمجتمع المستولى عليها بالانتصار في الصراع الطبقي، توزع بالعدل على الكادحين وغير الكادحين. وهذا التوزيع العادل يُسمى في المخطط بالديمقراطية الاجتماعية التي تعاكسها الديمقراطية السياسية المتعارضة مع الانحياز الطبقي، والمطروحة من قبل المعنفين ذوي الهموم الضيقة.

ويُختتم المخطط باقتراح الثورة المسلحة لحل ازمة العراق أملاً بأن يتقدمها الشيوعيون و«ان تقوم التجربة الشيوعية القادمة على الديمقراطية والتعددية داخل معسكرها الخاص، وان لا تكون دموية في التعامل مع الخصوم الطبقيين بعد أن تنتزع منهم السلطة» وان ينفذ المشروع المشاعي في ظل السلطة الشيوعية الجديدة التي سيدعمها المشاعيون على مقدار التزامها الشيوعي.

الموقف من المخطط:

بعد عرض الصورة المركبة للمخطط، وتفكيكها الى اجزائها كما هي، ينطرح سؤال: ما الموقف من هذا المشروع المشاعي؟ وبالتحديد ما موقف الشيوعيين العراقيين منه؟

ان اهميته تكمن عندي في شيئين:

١- انه يشكل رؤيا جديدة للواقع ٢- انه يقدم طريقة اخرى للعمل.

وفي هذين الشئتين تتجلى الحداثة، بمعناها المعرفي لا الزماني، التي لا يمكن اغفال ضرورتها لانها تخترق جمود الفكر وسياج التقليد. والماركسية ليست فكراً لا مونتياً مغلقاً في وجه هذه الحداثة التي تشكل دافعاً قوياً لاعادة النظر في مستوى الفهم لجوهر الفلسفة الماركسية كاداة معرفية يمكن بواسطتها تحليل الواقع العراقي تحليلاً غير منفصل عن خصوصيته المحلية وعن ظروفه الزمانية والمكانية من خلال ربط اجزائه الموضوعية مع بعضها ربطاً جدلياً ماركسياً لفهمه وتغييره.

ان الماركسية، كما وصلت الى المجتمع العراقي، تبدو منفصلة عن الموروث الفكري للشرق، بل وفهمت لدى الكثير انها في حالة ضدية معه. وانعكاساً لهذا الفهم ارتفعت شعارات ودارت مناقشات لتسفيه تلك الموروث تسفيهاً لم يستند الى اساس من التحليل النقدي للفكر. ولو مورس مثل هذا التحليل النقدي لتم اكتشاف القاعدة الفكرية المشتركة بين مشاعية ماركس ومشاعية حكماء الشرق. لقد اقتصر معظم التنظير الشيوعي العراقي على المقولات الماركسية - اللينينية الجاهزة دون اي ربط بالفكر المشاعي الموروث في الشرق وخلفيته الاجتماعية. وهذا الاقتصار كان تشويهاً لقوانين الجدل الماركسي نفسها لانه منفصل عن الإمكانية الماركسية وعن الخصوصية المحلية للمجتمع العراقي وما فيها من اختلافات عن خصوصيات المجتمعات التي طبقت فيها الشيوعية الحديثة في الاتحاد السوفييتي السابق ودول أوروبا الشرقية. وقد نتج عن هذا الانفصال صراع بين طائفتين: طائفة شيوعية وطائفة سلفية أدّى الى تصادم عنيف استغلته الامبريالية الغربية واعوانها المحليون لعرقلة تقدم الحركة الشيوعية في العراق، وقد أدّى ايضاً الى مجازاة السياسة السوفيتية الخارجية الضاغطة على ارادة الحزب الشيوعي العراقي آنذاك لتحقيق مصالحها الخاصة. ان ما يطرحه المخطط المشاعي من فكر حديث يعيد الثقة الكاملة بفاعلية الشيوعية لكي يصنع الشيوعيون العراقيون تاريخ مجتمعهم الخاص وتطوره دون انقطاع عن تراثهم الحضاري، ودون تأثر بالضغوطات الخارجية الجديدة. وهذا الطرح مغاير لما يطرحه معظم المثقفين اليوم. انهم يظهرون الشيوعية وكأنها منفصلة عن الواقع الموضوعي وهم يقصدون من ذلك التجديد لتكون اكثر ملاءمة له، واكثر استجابة للوضع العالمي الجديد. لقد اهتز أكثرهم من صدمة الانهيارات الاشتراكية ابتعاداً عن الاصول الماركسية بدلاً من التعلم من الدرس الجديد

وتشخيص الاسباب الحقيقية التي أدت الى الارتداد عن الشيوعية. ان هذا الاهتزاز هو تعبير عن حالة الاحباط الفكرية التي احدثت فوضى سياسية ذات صخب ديمقراطي مبهم وفارغ من كل محتوى ابداعي ناتج عن ظروفنا الخاصة.

ان الطفرة النوعية من التغني بديكتاتورية البروليتاريا الى التغني بالديمقراطية السياسية هي رد فعل سلبي لصدمة الانهيارات الاشتراكية لا يعبر عن تحمل مسؤولية الواقع، وهي محاولة هروبية منه، موازية في وسائلها الى العقل الديني وتصوراته الميتافيزيقية التقديسية.

ان أي خطاب صريح أو موح بان الديمقراطية السياسية حقيقة في عدم الانحياز الفكري هو ضرب من الوهم وطريقة لتمويه الواقع وتغطيته سواء أكان ذلك في الغرب أم في الشرق. ان طرح الديمقراطية السياسية بصيغها المنقولة والمترجمة لاتبدو مفهومة، وهي تهدم ولا تؤسس. وان القبول بها في صورتها المطروحة يعني مخادعة الشعب العراقي، واخضاعه مباشرة للارادة الامبريالية واحتواء نضاله الوطني من أجل السيطرة على الساحة السياسية التي يتنافس فيها المتنافسون.

ان فكرتي الموازية لافكار المخطط المشاعي تتلخص في امرين:

١ - تأييد نظرية دمج الماركسية بالفكر المشاعي الشرقي وتطبيقها على المجتمع العراقي بصيغتها المبينة بعد سقوط نظام صدام حسين.

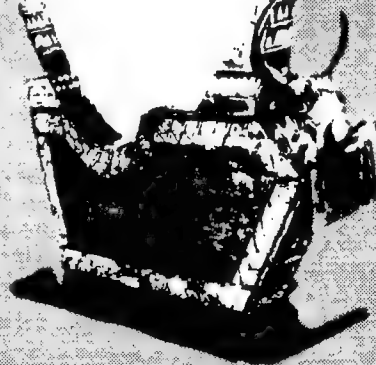
٢ - الاستعداد للعمل في هذا المشروع المشاعي تطوعاً في المستقبل.

وفكرتي هذه ناتجة عن فهمي للفلسفة الماركسية الكونية الشاملة وعن فهمي للالتزام الفعلي المبني على رأي ماركس الذي اخرج الفلسفة من حيز التأمل النظري الى ميدان العمل التطبيقي وعلى رأي لينين في النضال: «يجب ان يرتبط بالممارسة الفعلية للحركة الطبقية». وكان مفهوم الالتزام عند مؤسس الح. ش. ع عهد مبنيًا على هذا المعنى، ومتجليًا في موقفه من الالتزام الايديولوجي المحض من خلال قوله الساخرة: «شيوعيو المقاهي».

انا اذن صوت يرتفع من بين الأصوات المضمخة بعرق الكادحين ونزيف الجياح في العراق لاعلن ان البذرة الشيوعية التي اودعها اجدادنا العراقيون بقيادة حمدان القرمطي في ارض الكوفة قبل ان يولد ماركس وقبل أن تتأسس الاحزاب الشيوعية، ستينع حتماً على يد الأحفاد المشاعيين في ساحة الصراع الطبقي من أجل غد عراقي مشرق، يكون فيه الناس أحراراً. و«من لا يملك شيئاً لا يملكه شيء».



# أدب وفن



## نموذجان من الشعر السومري\*

### علي الشوك

ستقتصر اسهاماتي في هذه الامسية على قراءات من الشعر السومري. حسبما يسمح الوقت. لكنني أرى ان أبدا بكلمة موجزة عن الأدب القديم في وادي الرافدين. وقبل ذلك أيضاً أود ان أشير الى أن الأدب العربي مدين للغة السومرية بأكثر من مصطلح ادبي، من بينها كلمة «الشعر». فالبابليون كانوا يطلقون على الشعر كلمة «شيرو»، ولعل هذه ترجع الى (سير) أو (شر) SIR السومرية التي ظهرت في نظام الكتابة المسمارية منذ أول ظهور الكتابة، وكانت تعني باللغة السومرية: الغناء والانشاد والترنيم. ويبدو ان هذه الكلمة مشتركة في اللغات السامية جميعها او معظمها. ففي العربية هناك (الشعر)، وكذلك (السورة)، كما نعتقد؛ وفي الاوغاريتية (ش ي ر): يغني؛ وفي العبرية (شير): يغني، ومنها «شير مشريم»، اي نشيد الانشاد؛ وفي الآرامية (شور)، وحتى في السنسكريتية نرى ان Shur تعني: يغني.

فاذا كان اصل هذه الكلمات سامياً، فلعلها ترجع الى كلمة (شورو) التي تطلق على الثور، وذلك ان الاقدمين، لاسيما في وادي الرافدين كانوا يعتقدون ان الثور مصدر الموسيقى، لان الاوتار التي تصنع عنها الموسيقى كانت تصنع من مصارين الثيران. وانا اميل الى الاعتقاد بأن كلمة «الأدب» العربية مأخوذة من كلمة e-dubba

\* القيت الاسهامة في «ديوان الكوفة» بلندن ضمن ندوة عن الابداع الفني السومري شارك فيها د. محمد مكية، وادارها د. صلاح نيازي.

السومرية التي تعني (بيت الألواح)، أي (المدرسة). ومما زادني قناعة بذلك أنني لم أجد في اللغات السامية لفظة تفيد مثل هذا المعنى.

### الأدب السومري

إننا نعرف اليوم أكثر من ١٥٠ نصاً أدبياً سومرياً، من بينها حكايات أسطورية كتبت شعراً، وقصائد ملحمية، ومزامير، وأغاني حب عن طقوس الزواج المقدس بين ملك مقدس وكاهنة، ومناحات جنائزية، وتطلعات من الكوارث، وتراثيل تمجد الملوك. وهناك العديد من النصوص التعليمية: تعاليم أخلاقية، توصيات أخلاقية، محاورات، حكايات خرافية، نوادر، أمثال، أقوال شعبية.

والى جانب ملحمة گلگامش وملحمة الخليقة (الأكدية) وملحمة الطوفان، يمكن القول أن التراثيل هي زينة الأدب السومري. وكانت التراثيل تتلى بصوت عال من قبل كاهن فرد أو جوقة. كانت تتلى عن ظاهر قلب، لأن الكهنة كانوا أميين كقاعدة.

والمناحات نصوص ذات طابع ديني أيضاً. لكن أقدم نموذج نعرفه منها لا صلة له بالعبادات: أنه مناحة على دمار لكش على يد الملك لوغال زاغيزي. أما المناحات الأخرى التي وصلتنا، كالمناحات حول سقوط سومر وأكّد، وخراب اور، ونيبور، واريور، وأوروك، فجميعها لها أبعاد طقوسية. ومثل هذه الآثار الأدبية كانت تؤلف عادة عند إعادة بناء المدن المدمرة أو في مناسبة تهديم معبد قبل بناء آخر جديد مكانه.

من بين النصوص الأدبية الدينية نجد السلسلة الرائعة من القصائد (أو الأناشيد الدينية) التي تبدأ بـ «نزول أنانا إلى العالم الأسفل» وتنتهي بـ «موت تموز». ومعظم التراثيل تنتمي إلى أسلوب مدرسة نيبور.

وتشمل نصوص نيبور أيضاً على تسع أساطير شعرية حول مآثر الإبطال، الذين ينتمون، استناداً إلى قائمة الملوك السومرية، إلى سلالة أوروك الأولى شبه الأسطورية: اينمركار، ولوكالباندا، وگلجامش. وحتى أساطير أوروك كانت تعتبر ضمن التحداير النيبوري، لأن نيبور كانت مركزاً ثقافياً.

وأكثر الآداب السومرية شيوعاً ما يدعى بالأساطير الإيتولوجية (التفسيرية). كما أن تنظيم الحياة على الأرض — فرض النظام وتحقيق الرفاهية — كان أكثر المواضيع المفضلة في الشعر السومري. ومثل هذه القصص تتضمن قصصاً عن خلق الآلهة التي

كانت مهماتها الاشراف على تطبيق النظام على الارض، وتعيين الواجبات المقدسة، وتأسيس النظام الكهنوتي، واسكان الارض بالكائنات البشرية، وحتى خلق مختلف الادوات الزراعية.

اما الاساطير التعليمية فهي مؤلفة بصيغة حوار بين ممثلي مختلف فروع الاقتصاد وحتى مختلف الاشياء في الحياة اليومية، يحاول كل منهم أو منها البرهنة على تفوقه على الآخر. وقد لعبت الـ e-dubba (المدارس) السومرية دوراً كبيراً في انتاج هذا النوع من الأدب.

ومعظم المؤلفات التي ورد ذكرها اعلاه وصلت الينا في صيغة نصوص دونها مدرسون أو تلاميذ في المدرسة. لكن هناك ايضاً نصوصاً أدبية كانت تدعى «نصوصاً مدرسية»، وهي موجهة للطلاب بصورة عامة، وغالباً ما تتخذ شكل حوار شعري، وبعضها نصوص من الحكمة الشعبية، والحكم، والامثال، والنوادر، والخرافات، والاقوال.

لقد حافظت هذه المادة المتنوعة جداً على الكثير من اسلوب الادب الشفهي. وكانت معظم هذه النصوص تعتمد على طريقة التكرار (قد يبلغ أحياناً تسع مرات)، ربما لمساعدة الذاكرة. وهذا يؤكد انحدار الادب السومري بأشكاله كافة من الادب الشفهي. وكثير من هذه النماذج يبدو لنا مفككاً وركيكاً فجاً، مع ان القدماء لم يكونوا يعتبرونه كذلك.

ومع ذلك، ماهي ضرورة اعادة الجملة ذاتها تسع مرات، مع ان الكتابة على اللوح الطيني تقتضي الايجاز كثيراً؟

لكن من الخطأ التصور ان الادب السومري يفتقر الى القيم الجمالية. ان طريقة التفكير المجازية بحد ذاتها اورثت نوعاً من الخطاب التخيلي، وهذا آل الى استعمال اسلوب التوازي، الظاهرة النموذجية للشعر الشرقي القديم. والقصائد السومرية في واقع الحال كلام موقع. لكنها لا تلتزم باوزان شعرية صارمة؛ وقد فشلت محاولات العثور على تفعيلية أو وقفات، أو مقاطع مشددة في الشعر السومري. ان اهم الوسائل الشعرية التي استعملت للتأكيد على الإيقاع، هي التكرار، والتعدد الإيقاعي للالفاظ المقدسة، وتكرار الكلمات الاولى من السطر في عدة سطور، وهكذا. وهذه كلها من خصائص الشعر الشفوي.

## مناحة على خراب سومر واور

لقد اظلم النهار ، ولم يعد ثمة قانون او نظام  
واكتسحت العاصفة كل شيء كالطوفان  
وتعطلت قيم المجتمع في سومر  
وزال الحكم المرضي عنه ،  
ودمرت المدن ، ودمرت البيوت ،  
ودمرت الحظائر ، وزالت زرائب الغنم من الوجود ،  
ولم تعد ثيران سومر تقف في حظائرها ،  
ولم يعد غنمها يسرح في زراعتها ،  
وبانت انهيارها تجري بمياه مرة ،  
وصارت حقولها الغنية تنبت اعشاباً ضارة ،  
وسهوبها تُغل زروعاً فائحة ،  
ونسأوها لا يحدبن على اطفالهن ،  
ولم يعد الزوج يقول «أه يازوجتي» ،  
والزوجة لم تعد تهناً بمداعباته ،  
ولم يعد الطفل الصغير ينشأ على رُكبهما ،  
ولم تعد الحاضنة تغني تنويمه الاطفال ،  
ولقد تغير حال الحكومة ،  
واضطهدت العبادة ،  
وازيلت الحكومة عن البلاد ،  
وجاء حكم يشخص الى قرية معادية ،  
ولم يعد ابناء اور يقيمون في منازلهم ، لقد اصبحت ارضاً غريبة .  
وذبل النبت على ضفاف دجلة والفرات ،  
ولم يعد احد يسلك الطرقات والدروب ،  
وال مصير المدن والقرى العامرة الى خراب ،

وصار ابنائها ذور الرؤوس السود يقتلون بالهراوة ،  
ولم تعد حقولها تمزق ، او تبذر البذور في تربتها ،  
ولا تتردد صرخاتها واغانيها في البراري ،  
ولا تنتج حفاثرها السمن والجبن ، ولم تعد التربة تسمد بالروث ،  
ولم يعد الراعي يلوح بالعصا القصبية في الحظيرة المقدسة ،  
ولم يعد صوت تحريك ممغضة اللبن يترجع في الحظيرة ،  
لقد تشتت شمل القطعان ، كبيرها وصغيرها ، في السهب ،  
وحل الغناء بالكائنات الحية ...  
وفي الاهوار صار القصب يذبل ، ويتعفن  
وذوت اشجار البساتين ، ولم تنم ،  
في الارض حلت مصيبة لم يألّفها البشر ،  
شيء لم ير مثله من قبل ، وتمعز الكلمات عن وصفه ، ويتعذر تحمله .  
على البلاد المرعوبة ، جميعها ، حطت يد فاتكة  
وصار الناس يتنفسون بمشقة ،  
لقد مزقت العاصفة شملهم ، واحالت نهارهم ليلاً .  
كان يوماً غرقت فيه الافواه والرؤوس بالدم ،  
يوماً نزلت فيه المسحاة من فوق  
لتحتر المدينة عاليها سافلها  
في ذلك اليوم تصدعت السماء ، وتمزقت الارض ،  
وأعمت العاصفة البشر ،  
اظلمت السماء ، وحجبتها سحجف ، واستحالت الى عالم اسفل .  
من كان لديه بساتين وارض هجر حقوله وارضيه ،  
وقال «واه على حقولي وبساتيني» ،  
من كان لديه بيت حسن البناء هجر بيته ،  
وقال «أه يامنزلي» .  
لقد دهم الطوفان الارض ، واكتسح كل شيء ،  
هدر كعاصفة هوجاء على الارض ، من يستطيع الافلات منه !  
جاء ليدمر المدن كلها ، ويدمر المنازل كلها ،

وَيُسَيِّدُ الكاذب على الصادق .  
 في ذلك اليوم ، الكلمة - من يعرف معناها؟ -  
 هجمت كالعاصفة ،  
 كلمة انليل (إله العاصفة) التي تتجه نحو اليمين  
 صارت تتجه نحو اليسار  
 في اور لم يتول أحد امر العناية بالطعام ،  
 ولم يتول أحد امر العناية بالماء ،  
 من كان يتولى امر العناية بالماء ، تنحى عن الماء  
 لم يُلْقَ بالأل له .  
 تحت ، أصبح العيلاميون اصحاب الحل والربط ،  
 تطلنخت ايديهم بالدماء  
 وفوق ، تحكّم شعب هالما «ابناء الجبال» بأرواحنا ،  
 وكان ابناء القدنوما يشنون الهراوات على خواصرهم ،  
 وتحت يلوح العيلاميون بسلاحهم كالطاعون  
 واور ، مثل ثور بري كان جم الثقة بنفسه ، يخرّ على ركبتيه راكعاً .  
 اور لاحول لها مثل قصبة وحيلة تحني رأسها ،  
 ابناؤها مثل سمكة أمسكت باليد ، فقدوا حياتهم  
 فقراؤها ونبلاؤها ملقون في الطرقات ، لا احد منهم يقوى على النهوض ،  
 في اهراء نانا لم يبق حيوب ،  
 لقد الغيت وجبات عشاء الآلهة  
 وفي صالات طعامهم الكبيرة لم يبق خمر وعسل ،  
 وفي فرنها الفاخر لم تعد الثيران والخرفان تشوى  
 رصيف نانا «اللازوردي» جرد من الماء ،  
 الماء عند قيدوم الزورق لا يرجع صدى  
 الزوارق والمراكب كفت عن التوجه الى الرصيف اللازوردي ،  
 على نهرك الذي يصلح للمراكب ، ولم تعد ثمة مراكب .

اور ، كمدينة هشمتها فأس ، أصبحت في عداد الخرائب  
اور ، حتى كلابها لم تعد تشمشم عند قاعدة جدرانها  
عند اسوارها تترجع المناحات  
... وينكمش الناس رعباً أمام السلاح  
في اور ، توقع القووس الكبيرة الدمار ، والرعب بين الناس ،  
الرمح ، «سيد السلاح» يسد إلى صدور الناس  
السهم ، وعصي الرمي ، والمقاليع تصيب مقتلاً في كل مكان ،  
رؤوس السهام تملأ اجسادهم كالمطر ،  
الجلاميد الكبيرة تهرس عظامهم . .

ومن نجا من السلاح قضت عليه المجاعة  
لقد حلت المجاعة بالمدينة كالطوفان ، ولم يكن ثمة خلاص منها  
المجاعة احنت ظهورهم ، وشلت اعصابهم ،  
لقد القى شعبها السلاح على الارض مرغمين  
ورفعوا ايديهم الى رقابهم ينوحون  
وراحوا يتشاورون فيما بينهم ، ويلقون الخطب البليغة :  
«ويل لنا ، ماذا بوسعنا ان نقول ، ماذا بوسعنا ان نضيف!  
حتى متى نظل نغنى في قم الدمار!  
اور ، في داخلها موت ، وفي خارجها موت ،  
في داخلها نموت من المجاعة ،  
وخارجها نقتل بسلاح العيلاميين ،  
لقد اكتسح العدو اور ، فلنصمد بوجه الموت...»  
هكذا كانوا يرددون بلسان واحد



### مرثاة

هذا النص الذي وصلنا كاملاً تقريباً (وهي حالة نادرة) عبارة عن نشيد جنائزي لحبيب فتاة. ومع أنه يبدو واضحاً جداً في كلماته إلا أن فحواه وغرضه يصعب إدراكهما. ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى المقصود بكلمة "GIR" التي تترجم بمعنى «رسول، أو ساج». فما هو موقع هذا الرسول عند الفتاة التي ترثيه، وما هي علاقته بها؟

«إن رسولك يقترب ، أعدّي نفسك ،  
 أيتها الفتاة ، رسولك يقترب ، أعدّي نفسك ،  
 رسولك العزيز يقترب ، أعدّي نفسك .  
 أه ، الرسول ! أه ، الرسول !  
 رسولك ، هو القادم من بعيد ،  
 رسولك القادم من الحقول النائية ، من المسالك الغريبة ،  
 سنونوك الذي لن يأتي من الأيام البعيدة ،  
 يعسوبك الطافي على المياه المرتفعة للنهر الهادر ،  
 ضبابك الضارب فوق سلاسل الجبال ،  
 عشبك الطافي فوق النهر ،  
 وعُلك الهائم بين الجبال .  
 رسولك ، ذو الطالع السيء ،  
 رسولك ، ذو العينين الدامعتين ،  
 رسولك ، ذو القلب الحزين ،  
 رسولك ، الذي ألتهم الفيضان عظامه ،  
 رسولك ، الذي تقاذف الفيضان رأسه ،  
 رسولك ، الذي تلقى ضربة على صدره العريض .

«بعد أن يأتي رسولي ، سأقدم له كل شيء :  
 سأقدم له كعكاً و... ،  
 سأقدم له ثمر الحقول ،

سأقدم له شعيراً محمصاً وتمراً ،  
 سأقدم له البيرة ذات المذاق الحلو - المر ،  
 سأقدم له عنب الكروم ،  
 سأقدم له تفاح الارض الواسعة ،  
 سأقدم له تين الارض الواسعة ،  
 سأقدم له السم من شجرة التين ،  
 سأقدم له تمراً من عذوق النخل ،  
 سأقدم له عسل ونبذ البستان .  
 بعد ان يأتي رسولي ، سأقدم له كل شيء :  
 سأقدم له ماء ساخناً وبارداً ،  
 سأقدم له العنان والسوط ،  
 سأقدم له رداء نظيفاً وزيتاً فاخراً ،  
 سأقدم له كرسيّاً ومسنداً للقدمين ،  
 سأقدم له سريراً أخضر ،  
 سأقدم له قشلة وحليماً من الحظيرة .

«رسولي ، جاء ، لكنه لايمشي ، جاء ، لكنه لايمشي ،  
 لديه عينان ، لكنه لايراني ،  
 لديه فم ، لكنه لايستطيع محادثتي ،  
 رسولي جاء ، تقدم! لقد جاء بالفعل ، تقدم!  
 لقد احضرت خبزاً ، ومسحته به ،  
 ومن كأس لم تتلوث  
 ومن صحن لم ينجس ،  
 سكبت ماء فشربته الأرض التي سكب عليها  
 وبزيتي الفاخر مسحت الجدار من اجله ، وببذيتي الجديدة لفقت الكرسي .  
 لقد دخلت الروح ، لقد رحلت الروح ،  
 لقد تلقى رسولي ضربة في الجبل ، في قلب الجبل ،  
 وهاهو الآن ملقى على الأرض ميتاً .

## المسرح الكردي بعد الانتفاضة

صباح هرمز\*

يبدو من الصعب على المهتمين بدراسة وتوثيق المسرح الكردي وأرشفته تحديد تاريخ نشأته، بسبب وجهات نظرهم المتباينة بشأن تاريخ أول عرض. إلا أنهم لا يختلفون في كون ملحمة «مه مي ثا لان» لمؤلفها عبد الرحيم هه كاري أول نص مسرحي كردي، ولعل هذا حفز البعض منهم لربط بدايات نشوئه بهذا النص، والبعض الآخر بمسرحية ملحمة «مه م وزين» لأحمد خاني المنشورة عام ١٩١٩ في مجلة «يانكي كردستان». لكن هذه المسرحية، كما يقول الفنان فهمي سلمان، نُشرت في جريدة «رين» الاستانبولية عام ١٩٢٨<sup>(١)</sup>. ويشير الفنان والارشيفي كاوة أحمد ميرزا إلى عرضها في السليمانية عام ١٩٣٥<sup>(٢)</sup>.

شخصياً أميل إلى الاعتقاد أن المسرح الكردي نشأ حوالي عام ١٩٢٦ بعرض النص العربي «لولا المحامي»<sup>(٣)</sup> الذي ترجمه فؤاد رشيد بكر إلى الكردية تحت عنوان «علم وجهل» لعدم وجود ما يؤكد عراقتة، وإرتباط نشوئه بنشوء المسرح العراقي، واستيحائه من قبل الدارسين أو المعلمين بلغات أجنبية أو العربية عن طريق الترجمة.

استدلالات من تراث ماضيهم القديم والحديث وفولكلورهم القريب والبعيد، أفتقر الأكراد إلى النزعة التمثيلية السائدة مثلاً لدى سكان وسط وجنوب العراق في التمثيل الديني لمأساة الحسين، وليس عندهم ملاءة ليلية تقدم الوانا تمثيلية تسمى «الخابري».

\* ناقد مسرحي وصحفي، أربيل - عنكوا

كما لم يعرفوا مسرح خيال الظل والقراقوز مثلما عرفته شعوب معظم الدول العربية. وإذا كان أدبهم الملحمي زاخراً بالأداء الدرامي كملحمة «لاس وخه زال» و «محمد سيوي» و «مه م وزين» و «مه مي ثا لان» و «خه ج وسيامند» فإن مضامين كل هذه الملاحم متشابهة إلا بمقدار تعيين موقعها الجغرافي ورسم شخصياتها.

إن المسرح لم يصل الى الدول العربية إلا عن طريق الترجمة والاستيحاء. فتاريخ أول مسرحية في العراق يعود الى عام ١٨٩٣ حين كتب نعوم فتح الله سحار مسرحية «لطيف وخوشابا» معربة عن الفرنسية، وأستوحى مارون النقاش المسرحية العربية الاولى «البخيل» من موليير. ونشأ المسرح في مصر على يد فرقتين فرنسية وإيطالية زارتا مصر عام ١٨٧٠. فباستثناء المسرح الجزائري أرتبط نشوء المسرح العربي بترجمة المسرحيات العالمية أو تعريبها. ونشأ المسرح الكردي أغلب الظن عبر هاتين القناتين. وما يعزز هذا الظن زيارة الفنان الراحل حقي الشبلي لمدينة السليمانية عام ١٩٢٠ لتقديم مسرحيات بالعربية. ثم ترجم فؤاد رشيد بكر، وهو من الطلبة الاكراد ببغداد المسرحية العربية «لولو المحامي» عام ١٩٢٦.

إن تحديد نشأة المسرح الكردي، منوط بالقائمين بتوثيقه. واهتمامي به ناشىء من كوني ناقدًا مسرحيا، ساهمت بجزء متواضع في دفع عجلة هذا الفن الى أمام. ليس غريبا أن تتسم العروض المسرحية التي قدمت ابتداءً من منتصف العقد الثاني الى العقد السابع بالسطحية وبمستوى فني متدن وبأساليب اخراجية سهلة وفضفاضة، نظراً لندرة المصادر الثقافية الخاصة بالمسرح، واجتهاد القائمين عليه وفق أمزجتهم وفهمهم لطبيعة التعامل مع مفرداته الفنية، بالإضافة الى عدم وجود كادر متخصص به وخلق كردستان من فرقة فنية لاحتضان التنتاجات المقدمة، ماعدا «جمعية الفنون الجميلة»<sup>(٤)</sup> المؤسسة عام ١٩٥٧ التي كما يشير كاوة احمد ميرزا، لم تتمكن أن تلعب دورا ايجابياً في مجمل الحركة المسرحية الكردية واصبحت مشلولة بين ١٩٥٨-١٩٦٣. أقول كل هذه العوامل حالت دون نمو المسرح الكردي وتقدمه الا بعد بيان ١١ آذار ١٩٧٠. فانبثقت ثلاث فرق فنية في اربيل هي فرقة فنون اربيل، جمعية الفنون والاداب الكردية، وفرقة الفنون الكردية الحديثة، وكذا فرق في مدينة السليمانية، وإن كانت فرقة السليمانية للتمثيل قد تأسست في عام ١٩٦٩، أي قبل تأسيس جمعية الفنون الجميلة الكردية بعام، وفرقة المسرح الكردي الطليعي عام ١٩٧٣. فشهدت أوائل السبعينات نمو المسرح الكردي وبناء صرحه الحقيقي. ففي عام ١٩٧٠ عرضت في

السليمانية مسرحيات<sup>(٥)</sup> «حفار القبور»، «ظلال الشوك»، «في مستشفى المجانين»، «دهاء النساء»، و«الاضطراب» لفرقة السليمانية للممثل. و«البرغوث»، «السائق»، «خمسة اشخاص»، في «فندق ستوارت ردي»، و«الأبله» لجمعية الفنون. وفي أربيل قدمت فرقة فنون أربيل بين ١٩٧٠-١٩٧٤ سبعة عروض، وجمعية الفنون والاداب الكردية أربعة. إلا أن الخط البياني لنشاطات هاتين الفرقتين سرعان ما يتنازل بين أعوام ١٩٧٤-١٩٧٨، إذ لم تقدم فرقة فنون أربيل بعد عام ١٩٧٤ سوى عمل مسرحي، وكذا بالنسبة لجمعية الفنون، حيث هبطت من أربعة عروض الى عرضين. بينما لم توفق فرقة الفنون الكردية الحديثة في تقديم باكورة نتاجها إلا في نهاية عام ١٩٧٣، وأعقبته بعمل آخر ثم جمد نشاطها في عام ١٩٧٨. ثم يتصاعد الخط البياني بحلول عام ١٩٧٩ لنشاطات الفرقتين الباقيتين فتقدمان ستة عروض هي: البيت الجديد، السؤال، الميزان، مقامات أبي الورد، المعرض، والغراب والصعلوك. وارتفع عدد العروض في السليمانية بين أعوام ١٩٧٠-١٩٨٠ الى أربعين عرضاً.

وفي بداية السبعينات ظهرت أسماء كردية بنصوصها المحلية أمثال: عمر علي أمين، أحمد ده نك كه ورة، محمد صديق محمود، فتاح كريم، أمين ميرزا كريم، كمال دلشاد، طلعت سامان، نجم الدين ملا، حمه كريم هه ورامى، شيركو بيكس، وكاوس زنگنه. وظهرت في الاخراج الاسماء التالية: أحمد سالار، صباح عبد الرحمن، سعدون يونس، برهان معرف، طلعت سامان، أحمد ده نك كه ورة، نوزاد مجيد، فرهاد شريف، سمو عزيز، غازي باموني، وطه خليل.

لعل عدم دراسة مسرحي أربيل، وعدم توحيد وجهة نظرهم في بداية السبعينات في ملتقى أو تجمع فني يهدف الوصول الى قرارات وصيغ ترسم الخطوط العريضة لتأسيس حركة مسرحية ولورة الاسس التي تعتمد عليها قد أدت الى تشتيت وبعثرة جهودهم في عروض تتسم بالعفوية في تناول النص المحلي الذي يفترق الى العناصر الدرامية والبناء الفني المحكم، ويعتمد لغة اخراجية — تقليدية وقصفاضة لمخاطبة العقول الساذجة وذلك لأعتبارين: ينطوي الاول على اتخاذ النص المحلي منحى لتوجيهها. والثاني هو ان المسرح في هذه المرحلة بحاجة الى استقطاب اكبر عدد ممكن من المشاهدين عبر الامكانيات المتوفرة وقدرة المخرج في توظيف المفردات الاخراجية وتجسيدها على خشبة المسرح لخلق تذوق فني لديهم.

لقد أثبتت السنوات المنصرمة عدم صواب هذا التوجه، ذلك ان أصحابه لعقدين من

الزمن لم يتطور نتاجهم، ولم يتحقق هدفهم في اجتذاب الجمهور الاعتيادي بدليل أن أفضل عمل مسرحي لا يستمر عرضه أكثر من أربعة أو خمسة أيام، دون أن يخلقوا لدى الجمهور تذوقاً فنياً باتجاه تحرره مما غذته السينما التجارية من مفاهيم خاطئة عن الفن بأفلامها الهابطة. لستُ ضد النص المحلي والجمهور الاعتيادي، لكن تجربة المسرح الكردي على مدى ما يربو على عقدين في السليمانية أثبتت صحة التوجه إلى النص العالمي والجمهور المسرحي.

قبل أكثر من ١٧ سنة كتبت بجريدة «العراق» حول هذه المسألة: «تكشف ظاهرة الاقبال على النص العالمي قدرة كادر الفرق الفنية وامكانياته أداءً وإخراجاً، غير أن هذا لا يعني عدم توظيف نفس القدرات والامكانيات لخدمة النص المحلي. فالنص المحلي هو الذي يمنح المسرح الكردي محليته وخصوصيته القومية...». ومازلتُ أقول إننا بحاجة إلى نص محلي أكثر من حاجتنا إلى نص عالمي، ولكن شريطة أن تتوفر فيه مستلزمات نجاح العرض المسرحي. وعندما يغيب هذا الشرط يأتي النص العالمي كحالة ضرورية. وتجربة السليمانية شاهد على التقدم في اجتذاب الجمهور. ولم يتوان فنانونا في تقديم النص المحلي عندما وجدوا أنه يحقق هدفهم الأنفي الذكر، ليمنحوا مسرحهم خصوصيته وملامحه. وتمثل هذه التجربة في محاولات الفنان أحمد سالار في: نالي حلم أرجواني، الصقر يحلق عالياً، والجزيري، والفنان شمال عمر في: انتظار سيامند. بينما ظل فنانون أربيل لعقدين من الزمن يخوضون تجربة النص المحلي عبر عشرات العروض دون أن يمنحوا هذه السمة لمسرحهم. إن مشروع المسرح الكردي السبعيني تحقق على أيدي فناني السليمانية فاضل الجاف، أحمد سالار، جليل زنگنه، عثمان چيوار. ولا أغالي إذا قلت أن السليمانية كنظيرتها بغداد غدت أنموذجاً للمسرح الكردي. وهذا ما ستؤكدّه أكثر مرحلة الثمانينات.

من الملفت للنظر خلال الحرب الإيرانية العراقية ١٩٨٠-١٩٨٨ تحول مسار المسرح العراقي الجاد إلى مسرح تجاري بينما كان المسرح الكردي يسير بخطوات حثيثة نحو الابداع والتفرد والأصالة، مُحدثاً ثورة حقيقية على المسرح التقليدي الذي فشل خلال أكثر من نصف قرن في تطوير أساليب إخراجية تُغني المسرح الكردي بتركييب فنية ذات دلالات ورموز موحية. فبرز في هذه الفترة إلى جانب أحمد سالار من السليمانية شمال عمر، كامران رؤوف، بكر رشيد، كه زينة عمر، ميديا رؤوف، نيگار حسيب قره داغي، احسان فؤاد، ومن أربيل كريم عثمان وفؤاد جلال. فتبلورت الأساليب

الاخراجية على أيديهم، متأثرين بالأساليب الحديثة السائدة في العالم، والتي وصلت اليهم عن طريق مشاهداتهم للأعمال المعروضة في بغداد، سواء للاستاذة المشرفين على تدريسهم أو لسواهم من المسرحيين المعروفين الذين اكتسبوا هذه الأساليب بدراساتهم خارج القطر، أو عن طريق متابعتهم الجادة للمصادر الخاصة بالمسرح. فتأثر شمال عمر في أسلوبه الاخراجي بمسرح الثورة المستمدة من أسلوب استاذاه الدكتور صلاح القصب والذي استمد بدوره من المخرجة الرومانية ساندوا مانو والذي يقوم على شبكة من التكوينات والاشكال والانسجة المركبة الغامضة كما في عروضه الغوريلا، في انتظار غودو، وماراصاد، وأحمد سالار تأثر بتجربة الفنان قاسم محمد المستفاد أصلاً من تجربة الطيب الصديقي التي تقوم على أساس نصوص حوارية المظهر، درامية الاحداث، وبشكل مسرحي جديد كما في نالي وحلم ارجواني، الصقر يحلق عاليا والجزيري. وميديا ونيكار في (انتظار سيامند) وبكر رشيد في (الفجر) وفؤاد جلال في (سالييري وموزارت) وگه نيزه عمر في (شجرة التوت) بأسلوب أنتونان آرتو القائم على تجسيد العناصر الدرامية الخالصة التي تؤدي الى القضاء على شاعرية الحدث. وكريم عثمان في (سالييري وموزارت) بنفس أسلوب آرتو ولكن من المنظور الرفض لشاعرية المكان وإشاعة الفوضى لما يسميه آرتو بمسرح «القسوة». ومارس منهج ستانيسلافسكي الالائي تأثيراً كبيراً على أعمال كامران رؤوف في أغنية التّم، رحلة حسن، والملك لير، وأسلوب مايرهولد البيوماتيكي (آلية الحركة) على احسان فؤاد في (الناس والحجارة) وتمخض هذا التبلور عن ظواهر ومعطيات جديدة من حيث مكان العرض، وتوظيف العناصر الدرامية الخالصة (شاعرية المكان) وكسر طوق خشبة المسرح وتجاوزها الى الفضاء المسرحي، وتوزيع تكوينات الكتل في ايقاع هارموني، والتزاوج بين العناصر الفنية وشعرية المفردة أو مجموعة المفردات، وأداء الممثل، والتأليف، والاعداد. ان المسرح الكردي بين ١٩٧٠-١٩٩٠ لم يشهد للأسف نكوصاً مثل الذي شهده بعد الانتفاضة بسبب إفساح المجال للمنظمات الجماهيرية والشعبية والديمقراطية المنضوية تحت لواء الاحزاب الكردستانية لأن تقدم عروضاً متدنية المستوى عبر من لا صلة لهم بالفن عموماً والمسرح خاصة، وكذلك لعزوف معظم المسرحيين الذين كان لهم شأن في بلورة هذه الأساليب عن الاخراج في المسرح الكردي:

— أحمد سالار: حالياً عضو في البرلمان الكردستاني. وتفرغ لفترة للعمل في وزارة الثقافة وكيلا للوزارة.

— شمال عمر: غادر الوطن مع زوجته نيكار حسيب.  
— ميديا رؤوف: (ابنة القاص الكردي رؤوف بيگه رد) غادرت الوطن مع زوجها المسرحي هادي المهدي.  
— كة زیزة عمر: بعد زواجها من الفنان التشكيلي المعروف اسماعيل الخياط، تفرغت لتدبير شؤون المنزل.  
— كريم عثمان: يعمل مذياعاً في التلفزيون.  
— قواد جلال: غادر الوطن.  
— كامران رؤوف: تفرغ لفترة للعمل في الدراما التلفزيونية.

وينطبق الشيء نفسه على الاسماء العاملة والمعروفة في المسرح الكردي من السبعينات أمثال فاضل الجاف، كاوة أحمد ميرزا، نوزاد مجيد، طه خليل، عمر علي امين، صباح عيد الرحمن، سمكو عزيز، صفوت الجراح، سعدون يونس، طلعت سامان، فرهاد شريف، دانا رؤوف، هوشنك الوزيري، جليل زنگنه، عثمان چيوار، فتاح خطاب، ومهدي ثوميد.

بعد الانتفاضة شاعت مفاهيم خاطئة عن المسرح ادت الى افساد ذوق الجمهور وتمييع القيم الجمالية من خلال عروض طغت عليها الشعارات البراقة والمضامين الأنية حول قضايا الساعة باسم البيشمركة والنضال والانتفاضة والحرية والديمقراطية والشعب الكردي، وبأساليب اخراجية على يد الذين يجهلون الف باء المسرح فيما تهافت المسرحيون الحقيقيون للعمل في استديوهات التلفزيونات التابعة للحزب وغادر آخرون الى الخارج.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه بالحاح: ترى هل برزت بعد الانتفاضة أسماء شابة استطاعت أن تكون بديلاً للاسماء السابقة وتأسيس اسلوبها الاخراجي المميز.  
كانت ثمة آمال على الهرجان المسرحي الاول في السليمانية لاجراخ المسرح الكردي من أزمته على يد مجموعة من الشباب أمثال دانا علي سعيد، رزگار امين، محمد صديق، هورين غريب، موفق عارف، وبراھيم چيوار. إلا أن لا اعمال هؤلاء ولا أعمال غيرهم من الفنانين المعروفين بمن فيهم عرض كامران رؤوف من «رأس المملوك جابر» استطاعوا ان يخرجوا المسرح الكردي من ازمته. وبالرغم من ان مسرحية «ال دراويش يبحثون عن الحقيقة» اخراج حسين ميسري قد فازت بالجائزة الاولى الا انها لم ترتق بمستواها الى مستوى العروض المقدمة في المهرجانات السابقة، كمسرحية الغجر مثلاً ورحلة حسن



وفي انتظار سيامند وشجرة التوت وغيرها..

ان غياب الذين بذروا الخير في المسرح الكردي سيتترك فراغاً يحتاج ملؤه وقتاً طويلاً، بسبب عدم تفاعل خبرة الرواد مع تجربة الشباب المحصورة في حدود وامكانيات ضيقة لا تتعدى المنطقة، وهي بأمس الحاجة الى الجديد سواء داخل كردستان على ايدي المسرحيين الحقيقيين او خارج هذا الاطار...

ولاعطاء صورة أوضح عن المسرح الكردي بعد الانتفاضة أورد هنا ملاحظات سريعة عن بعض العروض في المهرجان المسرحي الثالث الذي اقامته وزارة الثقافة بين ٢٠-١١/١٩٩٥ بمشاركة ٨ فرق، هي:

— فرقة السليمانية للتمثيل: بمسرحية «قصة حب معاصرة» تأليف فلاح شاكر. اخراج حسين ميسري.

— فرقة الطليعة للمسرح الكردي: «ئه حه ئ كرئو» اعداد واخراج الفنان عثمان چيوار.

— فرقة مسرح كردستان: «سه نكه رى مه وگه» تأليف سلافو مورچيك. اخراج سوران عثمان.

— فرقة مسرح كركوك: «رغبة تحت شجرة الدردار» اعداد جليل زنكنة. اخراج جهاد دلباك.

— جمعية الفنون الجميلة الكردية / المركز العام: «شروباش كوله شروبو» تأليف جان كوكتو. اخراج الآن رؤوف.

— فرقة مسرح ٧ آذار: «من هناك» تأليف وليام سارويان اخراج درويش عمر.

— فرقة آريان للفن: «صبر أيوب» تأليف محمد مسكين. اخراج ارسلان درويش

— مديرية الثقافة في السليمانية: «الخادمات» تأليف جان جينيه. اخراج دلير محمد.

ومن الجدير بالذكر ان مديرية الثقافة في السليمانية سارت على نفس النهج المتبع في المهرجانات السابقة من حيث إنعقاد الجلسات النقدية في صباح اليوم التالي للعرض وتشكيل لجنة لتقييم العروض وتوزيع الجوائز على أفضل ممثل وممثلة وأفضل عرض وأفضل ديكور. من بين النصوص التي كنت أحلم بمشاهدتها مسرحية «رغبة تحت شجرة الدردار» ليوجين أونيل الذي قام بإعداده الفنان جليل زنكنة واخرجه جهاد دلباك، وأدى دور (كابوت) فيه. أما دور (ايبين) فقد مثله علي كريم بينما قامت فيان بأداء دور (آبي). ان معرفة هوية الكاتب من خلال جملة أو شخصية أو حتى حدث ما، ليست مسألة

جديدة كما هو الحال بالنسبة لهذه المسرحية التي حدثها الاساس هو انجاب زوجة الاب من ابن زوجها وخنقها لطفلها بتحريض من عشيقها. لذا فان عدم تنسب المعد والمخرج هذه المسرحية الى كاتبها أونيل لا يقلل من شأن عملها الفني، اللهم عدم تجسيد تبعه الفيلسفي الذي مؤداه: «ان الانسان خاطيء لا محالة ولكنه يملك ان يسمو بالندم عن الخطيئة».

يقول البروفسور الادارييس نيكول: ان المسرحية تنقصها تلك الخصائص الميتافيزيقية التي هي قادرة وحدها على خلق التراجيديا الحققة. ان المجرم الحقيقي في هذه المسرحية هو كابوت الاب العجوز وليس أبي زوجته وايبين ابنه، فقد امتص الرحيق من حياة ولديه بيتروسيمون شأنهما شأن ايبين، ويحذفهما المخرج من العرض، مع ان حواراتهما تعد استهلالا للتعرف على الحدث الاساس وصراعاتهما مع والدهما، لينتقل مباشرة، بعد اضافة مشهدين استهلاليين في تكوينات صورية، الى العلاقة التي تجمع بين ايبين وأبي. كما انه لم يعمد الى تجسيد مناجزته لايبين ومقاتلته له، لييقه في مكانه الدليل أبداً، وأستغنى عن ذلك بامرأة تجر عربية، ربما هي اشارة الى والدة ايبين ورمزاً لسحب كل شخصيات المسرحية نحو الطهارة والنقاوة، بدليل ان ايبين المتكبر على الصليب الذي يوحى بنفس المفهوم ينساق وراء والدته ويتفاح بعباءتها البيضاء، لكن ضمن السياق العام للعرض يتغير هذا المفهوم ليصبح ايبين وأبي المجرمين الحقيقيين والاب العجوز ضحية طيشهما ونزوتهما العابرة. وذلك من خلال مشاهد الدم والفزع والعواطف الفوارة التي جسدها المخرج في دواخل هاتين الشخصيتين وفجرها عبر ردود أفعالهما. فبدا انهما أقرب الى شخصيات شكسبير منها الى شخصيات أونيل. ان هذه المسرحية كما يقول نيكول: ليست مسرحية مأساة الا ان بناءها المحكم وحوارها الذي يرتفع أحيانا الى مرتبة الشعر وعواطفها الجياشة الدافقة والصراع الحاد الذي يدور بين شخصياتها بعضهم مع بعض وبينهم وبين البيئة غير المواتية التي يعيشون فيها. كل هذه العوامل تجعل رغبة تحت شجرة الدردار مسرحية قوية حقاً ولكنها لا ترتفع قط الى مرتبة المأساة.

قبل ان أشاهد مسرحية (ثه حه ي كرنو) اعداد واخراج الفنان عثمان چيوار همس اكثر من فنان بأنها تقع ضمن المسرحيات التجارية، ولكنني لم المس فيها ما يوحى بذلك. ففي هذا المهرجان شاهدت عرضاً واحداً فقط من المسرح التجاري وهو عرض مسرحية «صبر أيوب» اخراج ارسلان درويش، مما دفعني الى أن اتساءل مع نفسي عن السر

الكامن وراء محاولة الاساءة لمسرحية كه حه ي كرنو التي استمر عرضها اكثر من اربعين يوماً. فهي من المسرحيات الشعبية «فن الحكواتي» الذي هو الصورة الشعبية المتأخرة زمنياً لرواة كانوا سابقاً يتنقلون في الاسواق ودور الندوة وحيثما يتجمع الناس لكي يرووا حكاياتهم وينقلوا مشاهداتهم وماسمعه او راوه من غرائب وبطولات، كما هو حال حاكينا هذا الملقب «كه حه ي كرنو» وهو يعود بنا الى عام ١٩١٥ حيث كان ممثلاً قديراً يجسد مآثره ويقلد مآثر غيره من الناس الذين عاشوا في زمانه. ويعتبر المقهى بالنسبة لفن الحكواتي أنسب مكان للعرض. فاعده المخرج اعدادا يشبه الطقس التمثيلي فجعل الحاكي في موضع مرتفع ليكون على مرأى ومسمع من الجميع وجعله جزءاً من الجلسة، ومنحه فرصة تغيير أدواره من شخصية الى اخرى ومن مشهد الى آخر ومن زمان الى زمان تتصاحب في الحضور شخصيته الحقيقية والشخصيات التي يتطلبها. ولم يبدأ العرض بانقطاع زمني وتقسيم مكاني كما في بداية أي عرض تقليدي، وتم التواصل والتلاحم بين الممثلين والمتفرجين بالانتماء المشترك الى التراث واقترب الاداء من الطابع المرتجل الذي يبدو في ظاهره عفويًا وتلقائيًا على الرغم من تبعيته لنص مكتوب.

يبدو ان عدم ارتياح الوسط الفني في السليمانية لهذا العرض كان نتيجة المشاهد الكوميديا التي احتوتها، علما ان الحكواتي يلجأ الى استخدام هذه الوسيلة في بعض الاحيان كنوع من التهذبة الضاحكة من التوتر الذي تخلقه حكاويهم عندما تسبي اذهان المستمعين وتأسر قلوبهم. ومن المفيد أن اذكر هنا بأن عروض فرق مسرح الحكواتي المنتشرة في الدول العربية لا تخلو من الفكاهة والكوميديا، اعتقادا بانها الوسيلة الايسر نفاذا الى نفوس المتفرجين. فتراها تغلف المرارة بالضحكة والسخرية الهادفة. والممثل في هذه الفرق متكامل المؤملات والصفات قادر على ان يرسم بالحركة ويعزف بالصوت ويكتب بالصمت. وهو مسرح جاد ويحتل مكانة بارزة وما تزال الجهود حثيثة من أجل تطوير هذا المسرح في الدول العربية بما فيها العراق. لتدعم هذه التجربة الفنية الوليدة عندنا شأن حرصنا على التيارات والاتجاهات الاخرى بهدف تأصيل المسرح الكردي.

مايرسمه المخرج في ذهنه ويطمح الى تحقيقه في العرض المسرحي لا يستطيع ان يوصله الى ذهن المتلقي وفق اجتهاداته وتفسيراته ما لم يأخذ بنظر الاعتبار مدى استعداد المتلقي لفهمه وتفسيره، كما كان الحال مع عرض الفنان سوران عثمان في

اخراجها لمسرحية «سه نكه ري مه ركه» وهو يلجأ الى استخدام اطارات السيارات كدلالة على توقف الزمن وعزلة شخصياته عن العالم الخارجي، إلا اذا كان يسعى الى تقديم حالة تغريبية ولا اقول عرضاً بريشتياً، من منطلق الخروج على المألوف في الفعل المسرحي الى اللامألوف، إلا أن هذا الاحتمال لا ينطبق على هذا العرض لما أتسم به من اخراج بأساليب المسرح الارسطي. صحيح أن الدائرة ترمز الى الانغلاق والعزلة، غير أن هذا الرضى في حالة حركة دائبه، فثمة متنفس واسع لنجاة شخصياته والخروج من مأزقهم وليس كما صورته المخرج باتجاه قتل احد الجنود الثلاثة انقاذاً لحياة الآخرين.

لقد استخدم كامران رؤوف هو الآخر في عرض مسرحيته «الخراب» الدوائر للترميز الى نفس المفهوم، ولكنه لم يوظفها كدلالة قابلة للاجتهادات والتفسيرات التي تتسم بالمرونة والمطاطية، وعندما أراد أن يفك أسار شخصيته منها، لم تنفك بفعل لامبرر له، وإنما بأسلوبه الاخراجي المتمثل بأسلوب فاختمانكوف في الواقعية الخيالية إقترانا بفانتازية الواقعية السحرية لماركيز في رواية «مائة عام من العزلة» تحديداً بشخصية (ريميديس) وهي تسبح في الفضاء أثناء نشر الغسيل، فاستطاع تقديم الحل المقنع لمعضلته في استخدام الدوائر.

فالأسلوب الارسطي المتبع في عرض الفنان سوران، أو هذا الأسلوب بحد ذاته لتحديد سماته الزمكانية بالإضافة الى الفعل المسرحي لا يمكن أن يتجاوز الإطار الذي يغلفه. وإذا كان المخرج يظن بأنه قد أقنع المتلقي بأن دالته قد أدت الغرض المنشود منها لكونها مفردة نصف دائرة وليست دائرة كاملة، كما عرفنا منه في الجلسة النقدية المكروسة لمناقشة عرضه، فإن مثل هذا القول لا يضيف شيئاً الى ما تم تجسيده امام المتلقي في كومة من اطارات السيارات الدائرية.

أما في مسرحية «قصة حب معاصرة» تأليف فلاح شاكر، فقد اختار المخرج حسين يسري نصاً يتناول موضوع الساعة، تسير أحداثه وتتحد ضمن إطار الهجرة الى خارج البلد في الصراع الدائر بين الزوج المتمسك لمغادرة الوطن والزوجة المتمشبة بالاحلام التي عاشتها فيها، والنص كما يبدو ولخلوه من الاحداث المتشعبة واقتصاره على شخصيتين ولما يشع من أجواء تتسم بالترلاكيوميديا بدا قريباً الى روحية تشيخوف وفودفيلاته القصيرة، بغياب سمة المأساة من العرض والاكتفاء بالتعرف على نتائجها وحضور الكوميديا الخفيفة عن طريق التداعي والعودة الى الغابر.

إن المفردات الموظفة في هذا العرض بلغت من البساطة جداً جعلها تعبر بنفسها عن

ثيمة المسرحية. فاذا كانت الحقائق المتكدسة في يمين المسرح دلالة على اصرار الزوج على مغادرة الوطن، فإن مواد الزينة الموضوعة في يسار المسرح الخاصة بالزوجة دلالة على تشبثها بالوطن. ولعل تقسيم المسرح الى هذين النصفين ينطوي على دلالات في فهم موقف الزوجين وهناك أكثر من دلالة أخرى تشير الى ان موضوع المسرحية هو موضوع الهجرة، كالقميص النازل من أعلى سقف المسرح والمثلث الكبير في الوسط الذي تعلوه علامة استفهام موحيا بالهجرة كمفردة مستخدمة لتعليق الملابس ومدلول يطرح السؤال عن اسباب هذه الهجرة.

ان الفوضى المتعمدة التي بثها المخرج في عرضه من خلال تكديس مجموعة كبيرة من الحقائق اشارة واضحة الى الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية غير المستقرة التي يعاني منها الشعب العراقي عموماً، هذه الحالة تحفز الفرد لان ينتهز أية فرصة ليحزم حقايبه لمغادرة الوطن، كما حدث في الضربة الاخيرة للعرض عندما توقظ الاصوات الزوج النائم استعداداً لذلك، وتصيح الزوجة بذعر: «لا... دعوه ينام...» ثم ينتهي العرض.

أدى دور الزوج الفنان الكبير كامران رؤوف ودور الزوجة الشابة كويستان محمد التي أراها لأول مرة على خشبة المسرح. وقد أفرحني المخرج حين أسند هذا الدور لفتاة استطاعت فيه أن تبز أداء كامران وأحياناً تطغى عليه. وما أفرحني أكثر هو ان الفراغ الذي تركته ميديا ونيكار ستحتله غيرهما بجدارة وتفوق.

وفي مسرحية «شه وباش كوله شه وبو» تأليف جان كوكتو، اخراج الآن رؤوف ذات الشخصية الواحدة (المونودراما) جاء اختيار المخرج لممثلته مخيباً للامال لافتقارها الى المرونة الجسمانية الواجب توفرها في مثل هذا النوع من المسرحيات، ومما زاد من هبوط العرض اعطاء الممثلة رقعة واسعة من المسرح للتحرك عليها والتعامل مع مجموعة كبيرة من المفردات المسرحية ابتداء من السريرين ومروراً بالهاتف وانتهاءً بالنافذة والمنضدة والباب الخارجي. ذلك ان قضية المسرح لدى جان كوكتو لاتكمن في الديكور بقدر ماتكمن في الاخراج بالمعنى الحقيقي للكلمة. باب يفتح ويدخل الشقاء، شباك يغلق وتبقى السعادة. انه ثورة تفتح الباب على مصراعيه امام مستكشفيه في مجال المسرحية الخيالية. الرقص والاكروبات والتمثيل الصامت والهجاء والعزف الاوركستراي والكلمة، كل هذا يظهر في مسرحه بشكل لم يعرف من قبل. انه فارس تجريبي وان كان تعبيراً تشكيميا عن الشعر. لهذا فان استخدام الديكور الواقعي في

عروض كوكتو يتنافى مع فهمنا لمسرح هذا الكاتب وبالذات مسرحيته هذه الكثيرة الشبه في موضوعها بموضوع مسرحية «في انتظار غودو» لبيكيت من خلال انتظار الزوجة لزوجها الذي لا يأتي ...

### المصادر

- (١) - في الملتقى المسرحي الاول المنعقد بمدينة السلیمانیة للفترة من ٢٥-٢٨/٦/١٩٨٨.
- (٢) مجلة كاروان، العدد ١٨.
- (٣) نفس المصدر.
- (٤) نفس المصدر.
- (٥) نفس المصدر فيما يتعلق بعروض السلیمانیة، عام ١٩٧٠.
- (٦) في ندوة تلفزيونية عن مسرحية الخرابة تناولتها بنفس الاتجاه.

### ملاحظة

عُرضت المسرحيتان الفائزتان بالجائزة الاولى بعد انتهاء المهرجان في اربيل وهما «قصة حب معاصرة» اخراج حسين ميسري و «الخادما» اخراج وليد محمد.

قراءة نقدية في:

## رواية جنان حلاوي «ياكوكتي»

---

(١ من ٢)

د. حسين كركوش

«وإنها لكوابيس حالكة السواد، كثة اللحى والشوارب، مدججة بالسلاح، تحرس دخولنا وخروجنا عند هذه البوابات، تتفحص هوياتنا وتتفرس في ملامح وجوهنا البريئة، نحن العليلين الراعشين - الشغيلة والصعاليك والشحانين وصباغي الأحذية والمقامرين والمومسات والسماصرة واللصوص والباعة المتجولين - قدمنا من البوادي والحقول والمقابر والأكوخ والسجون والمحاجر والسرديات والغرف الواطئة والمدارس الرطبة والحارات الضيقة والشناشيل وعباءات الأمهات وأخمرة الجدات وثياب العشيقات وأفرشة العائلة المشتركة. من كل ثقب، من كل جحر ومكان، قادمون، خارجون، أبرياء، أشقياء، سعداء...»

محمد خضير، بصريًا، ص ٢٦.

### أهمية العنوان والجملة الاستهلالية في ياكوكتي

لعنوان رواية ياكوكتي والجملة الاستهلالية فيها أهمية استثنائية هي بمثابة المفتاح الرئيسي الذي ندخل بفضلها إلى عالم هذه الرواية ورؤية مؤلفها للكون والتاريخ والحياة. فالعنوان يتطابق بشكل مدهش وبكثير من الأصالة والتفرد مع محتوى النص الروائي؛ أو على الأقل يتطابق مع الفكرة الرئيسية في الرواية، عنيت بها الغربة الإنسانية، بمعنيها الروحي والجغرافي. وإذا كانت بعض شخصيات الرواية لم تعلن

صراحة كيف تعذبها هذه الغربية وتدمي روحها، فإن بعضها الآخر يعلن ذلك بمرارة، مثلما يتطوع أحياناً الراوي — المؤلف نفسه بالاعلان أيضاً، فيقول الوحدة هي كائن بشع بانزع محرشفة، قاتلة ينمو (داخل الانسان) يحول الصور إلى رماد والرماد إلى هباء<sup>(١)</sup>. وإذا كان هذا ما يقوله الراوي، فإن الشابة غصون تعلن بمرارة: «الوحدة تقتلني. لا تتركني، الوحدة تقتلني، خلصني من نفسي. خلّص نفسي من وحدتي» ص ١٩٥. أما الشيخ ايبارا فيحدثنا الراوي بهذه الطريقة عن الوحدة التي تدمر حياته: «ضائع بين الحكم التي رسختها العزلة، والعذاب الذي أملتته العزلة ذاتها عليه. أين الناس؟ ماتوا، وأينهم؟ ولدوا وقتلوا ورحلوا...» ص ٢٢٢.

وإذ نبداً الرواية فإننا نرى أن جمعتها الاستهلاكية تأتي لا لتسند ما يرمز اليه عنوان الرواية فقط، وإنما لتبذر منذ السطور الأولى معظم المواضيع الأساسية التي سيعالجها المؤلف: الغربية، القهر، الاستلاب والعبودية؛ سنجد في الجملة الاستهلاكية أيضاً الايقاع السريع اللاهث والذبرة الحادة اللتين ستطبعان صفحات الرواية. وسنجد أيضاً تطابق غير مفتعل بين الجملة الاستهلاكية ونهاية الرواية، وهو تطابق يدل على تماسك هيكل الحكاية في الرواية. ومابين السطور الأولى والأخيرة في الرواية، فإننا سنجد ان ماورد في الجملة الاستهلاكية سيتكرر بهذه الصيغة أو تلك، بل إننا سنجد بعض المفردات وهي تكرر نفسها، ناهيك عن الافكار، أو عنوان الرواية ذاته.

تبداً الجملة الاستهلاكية بكلمة «الليل» ولا تنتهي إلا بكلمة «خطر» هكذا: «الليل ذلك الاختفاء الغامض في الزوايا والأركان والغرف، ذلك الذوبان في الظلام والتستر خلف النوايا الشريرة، والأمانى العاطلة، والدوافع الماكرة، أو المخلصة الخيرة التي لا ترى أو تبين لذلك المتعجل الذاهب الذي تطويه العتمة، أو للنائم على الرصيف مثل مسألة سومرية دمرها غزاة عابثون، أو للأغراب القادمين من مدن أخرى، للأجانب الباحثين عن لحظة لذّة، للبحارة المسكونين بالمغامرة والكبت الجنسي، للشرطة وحراس الشط وهم يحلقون بحيوانية فائقة في أرداف راقصات ملهى (ليالي البصرة)، إذ يعبرن الشارع إلى غرفهن في بيت على الشط...»

كل الأشياء الساكنة، الرابضة منذ زمان غابر، تضمّر الان، نية مييته، تخبى سرّاً، تبعته ليلاً، فيختلج به الهواء والسكون وتضطرب له النفوس... إنه عالم مسجون من الرغبات يعج ببصمات أناس ماتوا، وأنفاس نساء قتلن الحب أو العهر، وأقدام عراة، وحفيف ثوب موشى بالذئبيل وملمس شرابش طربوش، ورنين زر نحاسي يسقط على



بلاط الشرفة، وتكتكات رقاص ساعة من خشب الأبنوس وشقشقات طيور (الفاخته) تترنم فجراً (ياكوكتي): (وين بتي، بالحلة، وشناكلين، باكلا)، وحوار خافت لشيوخ يحدث نفسه، يراجع ذاكرته، وخطوات خادمة زنجية تظل على الشارع تطلق أصواتاً مبهمه ثم تذوب داخل زخرف شرفة قصر، منيف. كل الأشياء الجامدة، الآن، تحكي، تتكلم، تمارس حياتها، ونواياها خلف حجاب أسود، وضباب سحري يقللها بالحزن والريبة، والشر يدب مثل أخطبوط استيقظ توأ ناقثاً حبره السام باثاً عيونه الراصدات بثقة وتلوّ مرن. ص ٢٥-٢٦.

إن رواية ياكوكتي ستخرج كلها من هذه الجملة الاستهلالية، مثلما خرجت جميع روايات أراغون من الجمل الأولى في رواياته، كما يؤكد هو<sup>(٢)</sup>.

لنبدأ الآن بعنوان الرواية. في هامش ١ ص ٢٦ يعطي جنان حلاوي هذا الايضاح: «الكوكتي هديل طيور الفاخته الحزين الذي يوقظ الأطفال كل صباح فيترنمون به، وينادون الطيور (ياكوكتي). هذا الايضاح مفيد للقارئ الذي لا يعرف جيداً الفولكلور العراقي أو الأساطير والخرافات العراقية. وهو ايضاح قد يحتاج إلى تكملة لم تتم على يد الروائي لأنه ربما افترض — وهو على حق إذا كان ما نقوله صحيحاً — بأنه ليس مجبراً أن يشرح للقراء والنقاد كل مايكتبه في روايته.

الكوكتي هو هديل طيور الفاخته الذي يتسم بالحزن والفجيعة. وهذه الفجيعة ترتبط بغربة ووحدة وقلق ومعاناة جميع الذين وجدوا أنفسهم في «مصيصة بشرية... الضالين... الأفاقين والمشردين» ص ١٣٩. هؤلاء يرددون في غربتهم، مثلما الفاخته: ياكوكتي، وين بتي، بالحلة، وشناكلين، باكلا وشتشربين ماي الله.

ماي الله وسماء الله وأرض الله هي التي تحتضن الغريب في غربته. وفي أرض الله الواسعة هذه يبحث الغريب، أعزل ومخذولاً، عن موقع قدم يقف عليه، لا يظلمه سند اجتماعي أو عقائدي دوكمي أو اقتصادي أو عرقي. لا تظلم الغريب غير سماء الله، ولا يغسل هموم غربته ويقيه حياً، روحياً وجسدياً، غير ماء الله. ألم يخلق الله من الماء كل شيء حياً. وليس صدفة أن يكون الماء — سنرى فيما بعد، الظلام أيضاً — هو الحاضر الأكبر من بين عناصر الطبيعة في رواية حلاوي. الماء هو الذي لا يموت، موته حياة. عندما يتحول الماء إلى بخار فانه يعود ماءً ثانية. الماء هو الوحيد من عناصر الطبيعة الذي لا يمكن أن يتلوث للأبد، لأنه متحرك ولأنه يملك بذاته قدرة على غسل أوساخ البشر وأدران الطبيعة وأحيائها. الماء في رواية ياكوكتي ملاذ وصديق والأصل

والرحم الذي خرج منه البشر والمعيار الأكبر الذي يوحد جميع الأجناس البشرية ويؤكد أمميتها أيضاً. فعندما كان الزنجي سلمان يتأهب لسرقة البحارة الهنود، شعر بالأطمئنان وهو وسط الشط: «الشط زنجي أكبر فهو أبوه، أو أحد أجداده، أحشاء الشط هي أحشاء أجداده، من عصارة دمهم، أصلهم ماء، وأصله ماء» ص ٥٧. وعندما كان جد سليمان يتأهب، هو الآخر، للمسرق، لاذ بالشط وبمائه لأن: «النهر صديقه يدغدغه بأعشابه، ويصاحكه. النهر حاميه لأنه أبوه، غرف منه، غسل وجهه». ص ٨٢. ومثلما يخلق الماء الحضارات البشرية بقوانينها العادلة والظالمة، فإنه يمحقها أيضاً، وعند هذا الموت — الطوفان يتساوى الجميع أمام حضرة الماء، عندما «تتوالى الانهيارات، تستمر، تندفع إلى المياه، إلى قدرها الأبدي الذي لاتحيد عنه» ص ٢٥٤.

الماء، ماء الله، هو الذي يجعل الحضارات تحيا، ويجعل الغريب حياً، مثلما في أنشودة الفاخنة. هذه الشظية من الفولكلور العراقي، أعني ترنيمة الفاخنة، التقطها جنان حلاوي موظفاً آياها عنواناً لرواية عراقية، تعالج مومماً عراقية، ولكنها تطمح أن تعالج أيضاً موموم البشرية كلها، بعد أن ارتكب جدّها الأكبر آدم خطيئته الكبرى فهامت بعده ذريته في التيه والعراء. وربما لهذا الهدف جمع جنان حلاوي في روايته أجناساً بشرية متنوعة، تعاني كلها من الغربة، بعضها يعرف جيداً أنه منبوذ فيركن لقدره، ويغالب آخرون.

ولو عدنا إلى الجملة الاستهلاكية لوجدنا فيها مايرشدنا إلى هذه «الثيمة»، أي الغربة الانسانية، سواء تعبيرات واضحة محددة أو صور واستعارات أو شخصيات بعينها. نجد مثلاً: الليل. الاختفاء الغامض. الذوبان في الظلام. الأمانى العاطلة. نجد أيضاً: المتعجل الذاهب. النائم على الرصيف. غزاة عابثون. أغراب. أجناب. راقصات ملهى ليالي البصرة. عالم مسجون بالرغبات. نساء قتلهن الحب. حوار خافت لشيوخ يحدث نفسه. هذا الشيخ (إيبارا؟) وهؤلاء الغرباء ومعهم — سنجد بعد ذلك — شخصيات كثيرة في الرواية، لا يقتزن وجودهم بالصخب والانوار والبهرجة، حيث القوة والأطمئنان واليقين رسوخ القدم والثقة بالنفس وادعاء الوضوح والمعرفة، إنما يقتزن وجودهم بالعمية (لاننسى أن الرواية تبدأ بكلمة ليل) حيث الاستلاب والقهر والحيرة والتردد والانكفاء نحو الذات وتدميرها. وعكس هؤلاء، فإن الشخصيات القوية المتمرّة في رواية ياكوكتي يرتبط وجودها بالاضواء والبهرجة.

يقول جان جينيه في كتابه «مذكرات سارق» وهو سيرته الذاتية التي يتحدث فيها

عن أولئك البؤساء الذين قادتهم تعاستهم الى السجون، حيث العنف والاحباطات الجنسية والعاطفية «إن لهؤلاء الناس لغة تخاطبهم الخاصة بهم، وهي لغة لا تُكتب، إنما تسمعها الأذان بوشوشة تلفظها أصوات متعبة ليلاً. وعندما يحل الصباح ينسى الجميع ما قالوا<sup>(٣)</sup>. لأنهم سيكونون في النهار أمام زعيق الحياة وقسوتها الصاخبة. وهكذا هي شخصيات حلاوي، تطمئن في الليل وتقوم بأفعالها في العتمة. والواقع، أنها ليست أفعالاً بقدر ما هي تأملات يخلقها ويقودها الاحباط، وللاحباط تعود. ولأن الليل مغارة السكون» ص ١٢٥. فإن هذا السكون وهذه الطمأنينة المؤقتة تحول «الليل صديق» ص ١٤١. وتجعل منه «صندوقاً لجنون الرغبات» ص ١٤١، رغبات الغرياء المهجورين الذين لا يجدون مأوى للروح والجسد في واقع الحياة اليومي، الضاج بالقهـر والممنوعات والقوة. وحتى إذا تجرأ هؤلاء الغرياء للظفر بحريتهم وتبديد غريبتهم فإنهم يلجأون إلى الليل. هذا هو علي الأعرج، وهو أشجع شجعان الرواية، يستمد قوته بوجه مطاردة الشرطة له، من الليل: «أنا قوي بليل كهذا» ص ١٤٣. أما أولئك الغرياء، الوحيدون الذين لا يجدون شجاعة علي الأعرج، وهم كثيرون في رواية ياكوكتي، فإنهم يغفرون من ذواتهم لذواتهم في الظلام، لأن «في الظلام لا يمكن للموحد إلا أن يرى الحقيقة الكلية الشاملة، والأسرار الدفينة للذين يبدون صريجين واضحين صباحاً. . . تفوؤ. . . على النهار» ص ١٨٢. هذه الـ (تفوؤ) التي يوصفها الراوي — المؤلف، ليست على النهار حقاً، إنما على أولئك الذين تتجمع بأيديهم كل مفاتيح القوة بأنواعها: سياسية، اقتصادية، اجتماعية، عرقية. . . الخ. هؤلاء يستنون قوانينهم ويطبّقونها نهاراً. فـ «الباشوات لا يخافون ولا يعاقبهم أحد» ص ٨١. لذلك يقومون بأفعالهم وسط النهار ووسط البهجة والأضواء. ففي الوقت الذي «يطمئن به داوود الزنجي لسائر الظلام» ص ٨٠. فإن الباشوات يعيشون في أنوار الشر وبهرجته، «متوهجاً بالأنوار كان الجسر: أنوار المصابيح والشموع، والمشاعل، جسر من نار، وضياء، حتى بدت المياه تحته مطلية بذهب وهّاج، أو لربما أشعلوا الماء، ونوروا قاع النهر بالأضواء السحرية. . . كل شيء كان مشعاً: أعمدة بيوت الباشوات أسطوانات تبرق بوميضات ذابلات الشموع والفوانيس ومظلات السقوف العالية، تشرع شرابها النورانية». ص ٨٢. ومثل الباشوات، فإن الانكليز الذين احتلوا العراق وكان أحدهم مثل (إله) ص ١٧٧. ينجزون أعمالهم في وضع النهار، يستمدون ثقتهم من القوة التي يهتفون لها: «تحيا الملكة. يحيا الملك. المجد لرجال الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، رجال بريطانيا العظمى»

ص ١٧٨. وإذا كان الباشوات والانكليز صريحين فيقومون بأفعالهم نهاراً، فإن أستاذ محمد — وهو نذل الرواية بحق — الشيوعي السابق والنادم فيما بعد، الذي «يبدو صريحاً وواضحاً، هو الآخر ينجز أعماله عندما «سطح البيت مشمس، والجو صحو» ص ١١٥.

أستاذ محمد والباشوات والانكليز هم الذين «يتسترون خلف النوايا الشريرة» والرواية تضع قطيعة شاملة بين هؤلاء وغيرهم من «أصحاب الاماني العاطلة». و (أصحاب الاماني العاطلة) كثيرون في رواية ياكوكتي: الزنجي سلمان العبد، الزنجيات الخادومات، الراقصة الفيليبينية، الهنود النائمون على سطح مركب (البوم)، سالم نو، محمود الطباقي، غصون، حلوب، وحتى الشيخ ايبارا وعلي الأعرج. فهم في نهاية المطاف، من أصحاب الاماني العاطلة.

الزنجي سلمان العبد والراقصة الفيليبينية والبحارة الهنود هم اول من يظهر في الرواية. بعدهم يظهر سالم نو، غصون والشيخ ايبارا وعلي الأعرج. المجموعة الاولى تعاني من غربة جغرافية وروحية. أما الثانية فتعاني من غربة روحية. هم غرباء داخل مجتمعهم. ومن بين المجموعة الاولى، فإن الراقصة الفيليبينية هي اول من يظهر، كالتالي: «اشتعل ضوء إحدى غرف الراقصات الفيليبينيات ثم انطفأ: قد تكون إحداهن تبحث عن قرص منوم، أو ربما أرقها السكون... أصابع الدبق تتلمس أبطها. خيط عرق يدغدغ صدرها مثل سرب نمل نعسان، يتعثّر في مفرق نهديهما الخافقين ببكاء صامت. تتمتم: مالذي أتى بي إلى البصرة / إلهي.. مالذي أتى بي إلى البصرة؟» ص ٢٨-٢٩.

عندما «تغفو الراقصة الفيليبينية في الحمام تحت ماء الدوش»، يقفز أحد الهنود النائمين على سطح مركب (البوم) ينزع (وزرته)، فيمسح صدره بها ثم يستلقي شابكاً يديه خلف رأسه. أرق مفاجئ. يتطلع إلى بيت الراقصات، يقول لنفسه: حرارة... أظنها قادمة من بلدي، أف. حرارة خانقة... البصرة، متى تغادر هذه المدينة الملتهية» ص ٣٢-٣٣.

ليست حرارة الطقس هي التي تؤرق هذا الغريب، فهو قادم من مدن لاتقل حرارة عن طقس البصرة. ما يؤرقه هو حنينه إلى الجذور التي تركها وراءه. ولتلك الجذور، فإنه يغني الان، مغالباً أرقه: «هنالك في البنجاب / بحثت عن الحب، تحت أشجار الجوز / تحت السماء الزرقاء... / هناك في البنجاب قررت الرحيل / باحثاً عنها... في البحر بعيداً» ص ٣٣.

بعدهما، يظهر سلمان العبد الذي، إستناداً إلى نشأته ولغته وذكرياته، من اهل البصرة، فيها ولد وآبؤه وأجداده الأقربون. لكن سلمان من الناحية التاريخية، جلب وقبله أجداده الأبعدون من أفريقيا. وظل سلمان غريباً في مجتمع البصرة. لونه الأسود علامة فارقة تشعره بغربته دوماً: «أولاد الزنى البيض يضحكون عليه (...) فهو أضعف منهم. فهم قادرون على ضربه أو زجه خلف قضبان السجن، وربما قتله» الصفحات ٣٩-٤٥. وحتى إذا تجاوز سلمان العبد عقبة لونه، ولو مؤقتاً، فإن «أسر وعوائل الزنوج الباقية الآن تزويها الأكوخ القصيبة» ص ١٤٠. ستشعره دوماً بدونيته وهامشيته وغربته. ولهذا فإن كل شيء يُذكر سلمان بغربته: «الشط زنجي أكبر فهو أبوه. القمر زر لماع في ستره الليل، الشهب نبوءات الأنبياء السود، والأشجار شواهد قبور الزنوج والأسماك أطفال السود القادمين من أفريقيا... والنهار كذبة الليل، وكل أذان هو صوت بلال الحبشي، والحجر الأسود، حجر الله» ص ٥٧.

ومثلاً على خشبة المسرح، يقدم المؤلف غرباءه واحداً بعد الآخر. لا يقدمهم لكي نتعرف على همومهم اليومية الحياتية التفصيلية؛ فهذه ليست مهمة لهم ولا حتى للمؤلف. ولا يقدمهم لنتعرف على مسراتهم وإفراحهم، فهم لا يملكون منها شيئاً. جنان يقدم غرباءه ليؤكد على محنتهم الأعظم، أي على غربتهم وأستلابهم. وهكذا، عندما ينتهي من المجموعة الأولى، يعمد الآن لتقديم المجموعة الثانية، مفتتحاً أياها بشخصية سالم نو. انه ابن البصرة، لكنه ليس ابنها. إنه «ملاك» — هكذا يصف سالم نفسه — وسط شياطين. ولكي يتغلب هذا الملاك على غربته ولو مؤقتاً، ولو بالحلم، ولو بالوهم ولو بالخيال ولو بالأمانى العاطلة، فإنه يعاقر الخمره. سالم نو الذي نراه ثملاً أمامنا يردد مثل نبي دون دعاة أو متنبئ لا يجد من يصغي إليه: «سياتي الشط إلى هنا، وتفرق البصرة، لتغرق، ماشائي، سأسبح، يموتون أفضل. كلما رحلت الشياطين أرتاحت الملائكة» ص ٦٢. هذه هلوسة، وهذا كابوس تغلفه لذة انتصار وهمي، هو الهزيمة بعينها. وسط هذا الكابوس يعلن سالم نو، نادياً ونائحاً، عن غربته، مردداً أغنية قديمة لصديقه الملاية: «يا الله يمجري الماي ذيني عليهم / من أيديهم.. من أيديهم رحنه / من أيديهم.. ماتتفج الحشرات» ص ٦٢.

نعرف، أو على الأقل نفترض أن غربة سلمان هي بسبب غياب الصلح الروحي مع المجتمع الذي يحيا فيه. ولكن الحنين لمن؟ أيدي من تلك التي ضاع منها سلمان؟ لأي ماضٍ يحن؟ هذا ما لا يقوله سالم نو ولا تقوله الرواية.

فنياً، لم تقدم لنا الرواية، سواء الراوي أو سلمان ذاته، أي تلميحات عن حياة سالم نو وماضيه. لانعرف لسالم أهلاً يحن لهم أو علاقة عاطفية مع حبيبة هجرته أو زملاء عمل أو رفاق درب أفقدهم أو مرتع صبا عاش فيه طفولته ويحن إليه الآن. الرواية تقدم سالم نو مثل غصن قطع من شجرة الحياة.

فلأي ماضٍ يحن هذا (الغريب)؟ نفترض — وصفحات الرواية القادمة تشجعنا على هذا الافتراض — أن سالم نو يحن لأيدي جده آدم قبل أن يرتكب هذا الأخير الاثم الأكبر، أي قبل «نزول آدم من حضرة الحُضن المقدس في الجنة» ص ١٤٥. آنذاك لم تكن هناك غربة إنسانية تسببها فوارق عرقية واقتصادية وسياسية واجتماعية؛ آنذاك مامن مكان لأي تابو أو ممنوع؛ آنذاك «ماكان آدم يعرف القلق ولا كانت حواء تعرف غشاء البكارة لذلك عاشا سعيدين» ص ١٤٦. سالم يحن لتلك السعادة المفقودة، يحن «لبكارة الماضي» ص ١٤٦.

وقبل أن يوعز المؤلف لسالم نو ليفادر خشبة المسرح، فإنه يعمد، هذه المرة، لتأكيد الجانب الفاجع التراجمي، وإذا جارينا مفردات ياكوكتي، فنقول (الجانب الخرائطي) لغربة الانسان: «تقياً (سالم نو) داخله سال بوله بين فخذه. صارت بطنه خفيفة — ضوط... خيول البول تنمل ساقيه... بوله مخاضة يخوضها، كومة القيء جزيرة مخربشة على بلل الاسفلت» ص ٦٣. وسط هذه المخاضة البائسة التي أسمها الحياة لا يستطيع سالم نو أن يعوم، أن ينقذ نفسه. لا يستطيع أن يردد حتى ولو وهماً، مثلما ردد بعده علي الأعرج والشرطة تطارده «أنا مارد في مخاضة لاتصل أطراف ردائي» ص ١٤٣. كل ما يستطيع أن يفعله هو تحذير الآخرين، خاصة أبناء موطنه، من مصيره الفاجع. صرخ سالم بالبيوت: «آخر أنذار، عليكم بالقوارب ومن يتقن العوم فليحطني، يا أهل البصرة، أيها النيام إن لم تستيقظوا ستشبعون نوماً إلى الأبد» ص ٦٣. هل هذا حقاً تحذير سالم؟ هل يستطيع هذا الشبح الآدمي المطوق بالبول والخراء أن يردد تحذيراً مسؤولاً كهذا؟ أم هو تحذير المؤلف نفسه؟ لو حاكمنا سالم نو كشخصية تنطبق عليها الموصفات الفنية، مثل أي شخصية روائية أخرى، نستنتج أن مايقوله سالم نولا يتلاءم قط مع تكوينه النفسي والثقافي كما صورت له الرواية. أن تحذيراً خطيراً كهذا لابد أن تطلقه شخصية روائية خطيرة أيضاً. وهي صفة لا تنطبق على سالم نو. ولهذا فإننا نقول أن هذا التحذير هو تحذير المؤلف، تحذير جنان حلاوي نفسه. ربما استمده حلاوي من زميل له هو الشاعر الإنكليزي الفرد أوين. قال أوين، وكان

وقتها يخوض مخاضة حقيقية لا مجازية هي الحرب العالمية الأولى: «كل ما يستطيع شاعر أن يفعله هو التحذير»<sup>(٤)</sup>. وجنان حلاوي يريد أن يقول محذراً، إن غربة الجنس البشري، أو قل غربة العراقيين ستتحول، إن لم يفيقوا عاجلاً، إلى كابوس حقيقي فاجع، ليس فيه وحوله غير البول والخراء.

أما من ثمة أمل، من باب للأمل، من كوة حتى كوة يشرعها حلاوي حتى يغادر منها الانسان العراقي هذه المخاضة، هذه الغربة الانسانية؟ عندما نستمر في قراءة صفحات الرواية، سنجد مثل هذه الكوى. الفتاة غصون تتمرد على مجتمعها لتحظى بحريتها وتتغلب على غريبتها. الشيوعي علي الأعرج يتمرد ضد السلطة السياسية للوصول إلى الحرية. هاتان كوتان للأمل أشرعها حلاوي، لكنهما سرعان ما أغلقتا. نقول أغلقتا ولم نقل أن جنان هو الذي أغلقهما. إن جنان الحلاوي يريد أن يكون نزيها وشريفاً مع القراء. فهو ليس سوداويكاً يائساً ولكنه لا يريد، في الوقت نفسه، أن يبيع أو هاماً أو أحلاماً مجانية للقراء. إنه ينقل الواقع مثلاً يراه. والواقع العراقي الذي يناقشه حلاوي يقول إن طوفان الدم والخراب يطفئ كل الآمال. غصون فشلت في تمردها وانتهى بها المطاف قتيلة غسلاً للعار على أيدي أخوتها. وعلي الأعرج هو الآخر انتهى قتيلاً على يد الدولة.

والشيخ ايبارا؟ هل تستطيع هذه الشخصية أن تنقذ شيئاً وقيل ذلك أن تنقذ رواية ياكوكتي حتى لا تتحول، هي ذاتها، إلى كابوس؟ المشكلة الحقيقية مع ايبارا هي شيخوخته. لم تعد الحياة مطواعة بين يديه، يشكلها مثلاً يريد. لا يملك هذا الشيخ (الابياقراطي نسبة إلى EPIQURATE) الذي يتساهل في توفير اللذة لعشاق أو آخر الليل ويمارسها هو أيضاً بعض الأحيان ص ١٥٢، إلا تجربة حياة وحكمة علمته أياها الحياة. وهو: «ضائع بين الحكمة التي رسختها العزلة، والعذاب الذي املته العزلة ذاتها عليه» ص ٢٢٢. رغم ذلك، فإن الشيخ ايبارا يقدم حكمته على شكل نصيحة لسلمان العبد: «انذهب ودمر ذلك البيت (باشا النقيب)». ولكن النقطة التراجمية في شخصية ايبارا هي أن هذا الشيخ «يحدث الناس عن الأمل، وهو بلا أمل» ص ٢٢٤. ويعترف بيبابه الروحي «أنا قتلوني منذ زمن بعيد» ص ١٨٢. ولكن هذا لا يمنع أن تكون عند الشيخ ايبارا ما يسميه هو «بقايا روعي» ص ١٨٢. وهو يصب هذه البقايا في روح سلمان العبد قائلاً له: انذهب ودمر بيت باشا النقيب» ص ١٨٢. فهل يستطيع سلمان العبد، مهما كان حماسه وإخلاصه وصدقه أن ينفذ وصية الشيخ ايبارا، أم إنه سيفشل مثل غصون وعلي الأعرج.

## المكان

يرى الشاعر هاشم شفيق أن ياكوكتي «رواية استلهمت أجواء الحرب العراقية — الإيرانية عبر منطلقها المكاني في البصرة»<sup>(٥)</sup>، لم نجد عندما أنتهينا من قراءة هذه الرواية ما يسند قول شفيق، لأن الحرب العراقية — الإيرانية لا وجود لها في الرواية، تصريحاً أو تلميحاً. ولعل هاشم شفيق يتحدث عن رواية أخرى كتبها حلاوي أو مجموعة قصصية. وإذا كان شفيق يعتمد فقط على البصرة كمكان تدور فيه أحداث الحكاية، ليستنتج بعد ذلك أن الرواية استلهمت أجواء الحرب مع إيران، فإننا نجد من الصعب أن نتفق معه. البصرة في رواية ياكوكتي هي العنصر الغائب والحاضر في آن واحد. البصرة حاضرة لأن الرواية ما كانت تتم أو حتى تخلق بدونها، فهي تستلهم تاريخها: معركة الزنج، القرامطة، الزط، حرب الجمل، معركة الشعبية. والبصرة غائبة في النص الروائي، لأن الروائي استخدمها كتاريخ أو كرمز لتاريخ، أكثر من كونها مكاناً جيوبوليتيكياً أو ديمغرافياً. ليس للبصرة حضور فولكلوري أو سوسولوجي. وطوال صفحات الرواية، يتجنب الروائي اصطحاب القارئ، مثلاً لبيوت البصرة ليتعرف على عادات وتقاليده وطرق معيشة البصريين. ولم تجد في الرواية مشهداً واحداً يجتمع فيه أهل البصرة ليتحدثوا عن همومهم ومشاكلهم في هذه المدينة. وحتى الأماكن الجغرافية البصرية، التي تذكرها الرواية، لانجد لها وصفاً موسعاً، ونظن أن — بسبب الطريقة الحيدانية التي وصفها بها المؤلف، عند القارئ حينئذٍ خاصاً. وكانت أمام الروائي فرص كثيرة يجمع فيها البصريين ليناقشوا همومهم اليومية، لكنه لم يفعل. كانت إحدى الفرص مثلاً هي أن يجمع بعض الشخصيات في بار آسيا — والبار كما نعرف يرد كثيراً في الروايات العراقية — ليتحدثوا بدون خوف عن مدينتهم. وكانت فرصته الثانية أن يجعل الفتاة غصون، وهي امرأة خربت المجتمع البصري، تتحدث عن نساء المدينة مثلاً، لكنه لم يفعل. وكانت فرصته الثالثة أمام دكان علي القزم أو أمام دار السينما، لكنه أهمل، عامداً متعمداً، هذه الفرص وأخرى غيرها.

ولو قارنا ياكوكتي بنص آخر عن البصرة هو بصريانا الذي كتبه محمد خضير لوجدنا في هذا الأخير تفصيلاً جغرافياً واجتماعياً وديمغرافياً لمدينة البصرة، لم نجده في رواية ياكوكتي. حلاوي يعتمر البصرة ويحولها إلى تاريخ ورمز. وإذا كانت البصرة هي المكان الذي تدور فيه أحداث الحكاية في رواية ياكوكتي، فإن المؤلف ينقلنا عبر شخصيات متعددة إلى أماكن تبدو، جغرافياً، بعيدة عن البصرة أو العراق، ولكنها



ليست كذلك كالهند والخليج العربي. ويكرس المؤلف لهذه الأماكن، في بعض الأحيان أكثر من صفحة.

وإذا كان للعراق منافذ برية متعددة، فالبصرة هي الباب البحري الوحيد للعراق (علينا أن نتذكر إن لدينا سندباداً واحداً في العراق، وهو سندباد بحري وليس برياً، على أية حال). ومن هذا الباب دخلت وخرجت قوتان محركتان في تاريخ البشر، لا في تاريخ البصرة وحسب، هما السيف والثروة. خرج السيف العربي منتصراً ليجلب الثروة المادية والبشرية (الزئوج) من أصقاع العالم. ثم لما ثلم السيف العربي دخل هذه المرة السيف البريطاني منتصراً ليسرق الثروة.

وليست شخصيات مثل سلمان الزنجي، الراقصة الفيليبينية، والبحارة الهنود وكذلك الإشارة إلى الجنود البريطانيين الذين جاءوا البصرة والعراق من الهند، هي شخصيات أختيرت بعشوائية. لكل هذه الشخصيات دلالات تاريخية قديمة ومعاصرة. تشير إلى علاقات متصارعة ومتناقضة: غالب ومغلوب، جلد وضحية. ولا يمكن أن نفهم هذه العلاقات إلا إذا وضعناها ضمن الدورة الكبرى للتاريخ: تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية، تاريخ الاحتلال العثماني، تاريخ الاستعمار البريطاني وبالتالي تاريخ العراق قديماً وحديثاً. وقد تكون بعض هذه الشخصيات عابرة في الرواية، كالراقصة الفيليبينية. هذه شخصية غير مهمة فيما يتعلق بالفعل الروائي، لكنها مع ذلك ليست ديكوراً أو إيكسيسواراً. إذ تكمن أهميتها في تكوين رؤية المؤلف وفلسفته.

يقترب ظهور الراقصة الفيليبينية بظهور البحارة الهنود والزنجي سلمان العبد. وعندما تظهر، فإن المؤلف يؤكد على إستلابها الروحي، مركزاً على مواضع الشهوة في جسدها، أي على وظيفة هذا الجسد باعتباره سلعة تباع وتشترى. إنها في البصرة من أجل أن «يتلفها» حزن أحد الطالبين، فريقي أمعاء البانجنانية على قستانها، ص ٢٨. الراقصة الفيليبينية جاءت أو جيء بها للبصرة المعاصرة، الغنية باموال النفط في سبعينات أو ثمانينات هذا القرن لتوفر فائض اللذة لأثرياء البصرة الجدد، تماماً مثلما كانت تفعل جارية سيران في البصرة العباسية وكان ثمنها من عمان ثمانين ألف درهم<sup>(٧)</sup>. جيء بالراقصة الفيليبينية مثلما جيء بالزنجي سلمان العبد وقبله أجداده لتوفير فائض بالانتاج لأثرياء البصرة القدامى. فهما تجسيد ورمز لتاريخ مغرق بالقدم، لكنه لم يمت بعد. إنه تاريخ ستاتيكي، جامد، يكرر نفسه حتى لحظة كتابة الرواية. الفيليبينية من الرقيق الأبيض المعاصر وسلمان من الرقيق الأسود. فلا تزال

تجارة الرقيق قائمة، بصرف النظر عن اللون، لانتاج قلائص في الثروة أو في الشهوة الجسدية.

أثناء الدورة التاريخية الكبرى التي شهدتها البصرة، أو بالأحرى العراق، تغيرت الأمور، لكنها لم تتغير جذرياً نحو الأفضل. أثرياء البصرة الذين جلبوا الزوج لخدمتهم فتحولوا، أو تحول أحفادهم — لا فرق — إلى عبيد عند العثمانيين أولاً وعند الانكليز لاحقاً. وخلال ذلك ظلت البصرة، وخاتمة الرواية تقول أنها ستظل، مكاناً شهد ويشهد معارك وصراعات تحتدم مرة وتنتفيء ثانية. وهذا الصراع لابد أن يحدث وإن اتخذ كل مرة أسماء جديدة: ثورة الزنج، القرامطة، معركة الجمل، الزط، العيارون، المعتزلة، ثورة العشرين، الشيوعيون.

أثرياء البصرة القدامى يضطهدون الزوج فيثور هؤلاء لاسترداد كرامتهم وحقوقهم. ثم يتحول المضطهد، عندما يدور التاريخ دورته، إلى ضحية على يد العثمانيين والانكليز، إلى مضطهد.

تقدم لنا رواية ياكوكتي نوعين من العلاقات التاريخية. الأولى تربط الفيليبينية والزنجي. هذه علاقة لتاريخ ستاتيكي، لكنه فاجع: الاضطهاد العبودي يكرر نفسه. العلاقة الثانية هي بين المضطهدين أنفسهم، بين الذين اضطهدوا سلمان العبد وأجداده من جهة وبين العثمانيين والانكليز من جهة أخرى. هذه العلاقة قد تبدو ديناميكية، لكن الأمر ليس كذلك. لأنها تلامس القشرة ولا تنفذ للأعماق. فالأمور بالنسبة للزنجي العبد ظلت مثل ما عاشها أجداده. أجداد سلمان كانوا عبيداً في بصرة العباسيين، وهاهو حفيدهم لا يزال عبداً في البصرة المعاصرة، مثلما كان أبوه عبداً في بصرة الانكليز وجده في بصرة العثمانيين. في الواقع، إن ما يحرك الفعل عند سلمان العبد كشخصية روائية هو ليس شخصاً مثله يتعارض مع أهدافه أو يقف عقبة أمامه إنما هو الماضي — الحاضر، أي التاريخ. صحيح أن سلمان العبد يشعر بغربة تولدها العلاقات البشرية، إذ لابد من وجود بشر أو شخصيات بشرية في الرواية، ولكن هؤلاء البشر الذين يقفون بالصد من حرية سلمان، هم أنفسهم عبيد، وبالتالي، حتى إذا إنتصر سلمان على (الباشا) فإن الانتصار لن يكون كاملاً، بل لن يكون انتصاراً قط، فسلمان لم يظفر بحريته؛ إذ أن أفراد المجتمع الآخرين الذين سيحيا سلمان في وسطهم سيكونون (باشوات) من نوع آخر، رغم أنهم في الحقيقة، مثل سلمان، عبيد ولكنهم لا يعون عبوديتهم. من هنا تكون للبصرة باعتبارها حاضنة قديمة للزنج أهمية تاريخية في

رواية ياكوكتي. البصرة هي رافعة أو أسطوانة من أساطين عديدة بنى عليها المؤلف رؤياه الأيديولوجية.

### الهوامش

(١) جنان حلاوي، ياكوكتي، رياض الزيس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩١ ص ١٩٥. وسنذكر، من الآن فصاعداً، صفحات الاستشهاد في متن المقالة:

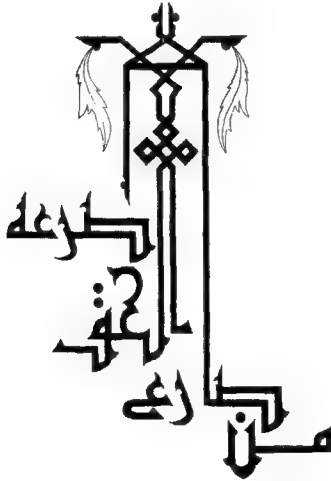
(٢) R. BOURNEUF et R. OUELLET, L'UNIVERS DU ROMAN, Ed, puf paris 1981, p 45.

(٣) JEAN GENET, JOURNAL DU VOLEUR, Ed, folio, paris 1992, p 10.

(٤) WILFORD OWEN, POEMS, Edinburgh, R. and R. Clark Limited, 1949, p 52. انظر مقدمة الشاعر.

(٥) هاشم شفيق، صحيفة الحياة، ٢/٥/١٩٩٥.

(٦) الف ليلة وليلة، صفحة ٣٤٤.



«من صارح الحق صرعه» للخطاط حميد - السويد

حوار مع المخرج رياض أحمد

## متعة المغامرة في «هذيان بين اثنين»

---

مؤيد عبد الستار

يوجين يونسكو من اعلام المسرح الاوروبي، نجح المخرج العراقي رياض أحمد، المقيم في السويد، في تقديم مسرحيته «هذيان بين اثنين» في مدينتي مالمو، ولوند. فحازت المسرحية على اعجاب النقاد والمشاهدين. تدور أحداث المسرحية في سرداب بنائية يلجأ اليه نحّات وفنانة، في زمن استثنائي، زمن الخراب والدمار اثناء حرب مدمرة في الخارج فيضطران الى الاختباء، ويعملان للتغلب على الواقع الصعب من خلال تفاصيل الحياة اليومية: العمل، الجنس، الكلام، الصراع، الهذيان. . .

حاول رياض أحمد، تقديم عمل مسرحي متميز، فاستخدم لغات مختلفة داخل العرض، وعمل مع ممثلين من أصول مهاجرة، ومنح باعده الجريه ابعاداً جمالية للعرض، فنجح في امتاع وادهاش المشاهد. حضرت أحد العروض في مدينة لوند الجامعية ثم حاورت المخرج.

«هذيان بين اثنين» نص مسرحي ليوجين يونسكو لم يكن مترجماً الى السويدية سابقاً، أي أنه كان مجهولاً للمشاهد السويدي، ألم يكن مغامرة منك اختيار هذا النص كي تقدمه؟ وما الذي استفزك فيه؟

المغامرة في المسرح لها متعتها الخاصة، فهي تعني، بالنسبة لي، خوض غمار عمل ابداعي يخضع للبحث والاجتهاد، وهي محاولة لاعادة صياغة الفضاء المسرحي صياغة

غير مألوفة تمنحني الحرية، وتطلق مخيلتي كمخرج مسرحي في العوالم والفضاءات المفتوحة لفكرة بناء العرض. إن ما استفزني هو طوعية النص للنسف وامكانية اعادة بنائه من جديد، النسف من أجل الخلق والتجديد. تفكيك النص المسرحي واعادة صياغته، أو تشكيله بما يخدم فكرة العرض، هي واحدة من المهمات الأساسية للمخرج المعاصر، والتي تعمق فكرة البحث، البحث عن أشكال ومضامين جديدة تلائم طبيعة العصر الذي نعيش. نصوص يونسكو المسرحية، المتميزة بأسلوبها الجاد والساخر من خلال استخداماته اللغوية المعقدة، وموقف اعماله من الواقع المتهترئ، هي التي تمنحني الجراءة للمغامرة بتناول أعماله ومن الزاوية التي تملئها علي فكرة العرض.

الفرد عند يونسكو، مستلب، منعزل في عالم خال من المعنى، فالواصر القائمة داخل الشخصية مصابة بالانهيار. يسعى يونسكو، في نصوصه المسرحية، الى تهشيم الواقع وتشكيله من جديد، بأسلوب متميز، فله نظرة ثاقبة وناقدة، وهو ما يدفعني لتناول اعماله. شخصياً وجدت في نص هذيان بين اثنين تلك الطوعية والمرونة التي تمنحني امكانية اعادة بناء الواقع المسرحي بناء يستند الى تاسيسات جمالية/ فكرية، ومنح العرض ديناميكية أكبر من أجل خلق المتعة والفرجة. الفكرة في هذا النص معاصرة، والشخصيات شديدة الحضور، مدمرة، مستلبة، محاصرة، ضمن الخراب الروحي العام للمدينة المعاصرة، يقول يونسكو «ان العالم الذي نعيش، يبدو وهمياً وخيالياً، السلوك الانساني يكشف عن سخفه، كما يكشف التاريخ عن ثقافته اللامتناهية...».

ان فكرة المسرحية العامة، تلامس بشدة واقعنا كمنفيين، وتعكس بصدق هذيانات المدنية المعاصرة.

**الحرب التي كانت تدور في الخارج، والتي تجري أحداث المسرحية تحت ظلالها، هل هي حرب معينة، كان تكون الحرب العالمية الثانية مثلاً، أم انها إحياء رمزي وظفه يونسكو من أجل الهدف الهذيان؟**

الحرب هنا تجري خارج مساحة العرض، لكنها تسمع بشدة من خلال دوى القنابل والصواريخ، فهاهي الا شاهد على ذلك (الخارج) المتمترس في دوامته الفكرية، هي دلالة على الخراب الروحي للانسانية، وهي رمز للتعسف والعنف، وحالة الوهم والعجز في التحوار والتعايش.

ان هذه الحرب هي نتاج العزلة والتوتر الحاد للمصراع اليومي للبشرية، انها هذيان

المدنية المعاصرة وبشاعتها. لقد حاولت في اعدادي للنص منح هذه الحرب شمولية أكبر، فهي لا تحدث في مكان وزمان محددين، بل يمكن ان تحدث الآن، أو غداً، أو بعد أعوام.. الجميع يشارك في هذه الحرب، فهي تحدث بسبب القصور الفادح في علاقات الانسان بالانسان.

الاعداد المسرحي منح للحرب عمقاً أكبر، فبإضافتي مشاهد دخول الجنود بملابس عصرية مرة، وأخرى بملابس سائقي الدراجات النارية، ومن ثم بملابس مشابهة لملابس العنصريين الجدد، منح ذلك العرض فكرة وبناء، ديناميكية أكبر في التأثير على عقل واحساس المشاهد. لقد وصف النقاد السويديون مشاهد دخول الجنود بأنها كوميدية، مثيرة ومزعجة في آن واحد.

لاحظت استخدام مفردات وعبارات من لغات مختلفة في المسرحية، أظن أنها مقحمة على النص الأصلي ليوئسكي، هل تعمدت ذلك من أجل ادعاش المشاهد الاوروبي، أم أنك تهدف الى غاية محددة من وراء ذلك تخدم العمل المسرحي؟

ليست هناك حدود للفنان الباحث، بل هناك فضاءات وعوالم مأخوذة بالسحر والفتنانيا. لم أضف مفردات للنص الأصلي، بل هشمت بناءه المرن بإعادة صياغته صياغة شاملة، فقد طوّعت النص لصالح الفكرة الاخراجية، مضيفاً وحاذفاً مشاهد كاملة، من أجل تعميق الصراع، وإعطاء العرض ديناميكية أكبر، ومنح الشخصيات عمقاً. أنت تعد ذلك اقحاماً على النص الأصلي، وأنا اعتبره إضافة فاعلة تصب في اللامألوف وإعادة تأسيس من أجل خلق الجديد وتقديم الفرجة والمتعة، وليكن كذلك من أجل ادعاش المشاهد. استخدمت في العرض لغات متعددة، الصربية، المجرية، الصينية، الاسبانية، الانكليزية وقليلاً من العربية، بالإضافة الى السويدية، التي هي اللغة الاساس للعرض. ولم يكن استخدام هذه اللغات على شكل مفردات، بل ان مشاهد كاملة كانت بالصربية او الصينية والاسبانية معاً، ورغم هذه اللغات الغريبة على المشاهد السويدي، لم يكن العرض غامضاً، بل اعتبره النقاد والجمهور من أهم العروض التي تعرض الآن في جنوب السويد. ان استخدام عدة لغات داخل المشهد الواحد هو محاولة لدعم فكرتي المتمثلة بقصور اللغة ومحدوديتها كمنطلق تفاهم بين البشر، والتأكيد على الفعل المسرحي والإيماء وحركة الممثلين.

اعتبرت المقالات النقدية التي كتبت عن العرض هذه الاضافة، استخدام عدة لغات

داخل العرض، على أنها محاولة فذة لتعميق نص يونسكو ومنحه شمولية أكبر.

**الفرقة التي عملت معها مكونة من عناصر مختلفة الجنسيات، ومن مختلف دول العالم. كيف استطعت الانسجام مع كل هؤلاء الممثلين والعاملين، ألم تواجههم صعوبة التمثيل بلغة غير لغتهم، وكيف استطعت التغلب على المعوقات؟**

أثير سؤال مشابه في مقابلة لي مع التلفزيون السعودي. أن أحد أدوات المخرج الإبداعية هو الممثل، لذلك أحرص بشدة على أن تكون هذه الأدوات طيعة، فاعلة ومبدعة. مهمة المخرج ليست إبداعية فقط، فهو منظم العلاقات داخل المجموعة الإبداعية، وهو الذي يسعى إلى خلق الحد الأدنى من التقارب في وجهات النظر المشتركة داخل المجموعة، ما دلت من صعوبات تواصلنا الإبداعي — رغم أننا جميعاً من ثقافات مختلفة — هو عملية البحث الفني، والذي شكل قاسماً مشتركاً وهاجساً للتواصل ذوّب الكثير من الاختلافات في وجهات النظر. لا أخفي أن البداية كانت صعبة بل معقدة في بعض الأحيان، ولكن الخبرة التي اكتسبتها، في التعامل مع الممثل الأوروبي، والتي بدأت في بلغاريا، ومن ثم في السويد، منحتني القدرة على التواصل الإبداعي، وخلق حالة من الألفة بين الجميع، مبنية على تزاوج الخبرات الفنية، وهذا ما يعطي العرض ميزة خاصة، ميزة امتزاج الثقافات في إنتاج عرض مسرحي متميز، يجمع بين الشرق الحالم وأوروبا الشديدة الواقعية.

**ماهي الامكانيات المتاحة أمامك لإنشاء أو تكوين نواة لمسرح عراقي أو عربي مهاجر في السويد؟**

كما ذكرت سابقاً، أن توفر الحد الأدنى من تطابق وجهات النظر، في أي مشروع إبداعي، كفيل بنجاح هذا المشروع. في الواقع لست بالضد مما طرحه، ولكن الحوار هو الخطوة الأولى قبل تشكيل أي مجموعة مسرحية. إن خلافتنا كمبدعين وهمية، وهي مبنية — في كثير من الأحيان — على قصور فادح في وجهات النظر، بل أن جزءاً هاماً منها هو من مخلفات الغربية وخرابها، ومحاولات تأطير الأمور بأطر أيديولوجية فجّة، جامدة، لا تخدم إلا في تعميق كسلنا، إن الحوار من أجل الخروج من مأزق فرقتنا — عند البعض مأزق إبداعي أيضاً — هو الطريق السليم للبحث في مشروع لقاء مسرحي يضم الجميع دون استثناء، ولا يقتصر على «صديقي» فقط، كما حدث في أحد المهرجانات المسرحية الأخيرة.

الجهل (يلعب) دوراً فاعلاً في علاقاتنا الابداعية، فمثلاً، في نفس ذلك المهرجان شارك أحد المهتمين بالنقد المسرحي محاضراً عما يسمى بمسرح المنفى، في الوقت الذي لم يمض على منفاه سوى عامين اثنين، في حين أن منفانا السياسي والابداعي قارب العقدين!! وإذا كانت هناك النية الحسنة والحقيقة للقاء فعلينا التخلّص مما يلي: أولاً، وهم الكفاءة والعبقرية. ثانياً، النزعة الابوية في التعامل. ثالثاً، المداينة وتلفيق المديح. رابعاً، المهارات الضيقة الأفق. ويتجاوزنا لهذه المظاهر، يمكن أن نجتمع ونتحاور.

**هل فكرت في اختيار نص من الأدب العربي المعاصر أو من التراث الإسلامي أو الشرقي، كي تقول من خلاله ماتريد للمشاهد السويدي أو الأوروبي؟**

ليس من السهل تقديم عمل عربي أو تراثي، فمثل هذه الأعمال تحتاج إلى إمكانات كبيرة جداً على الصعيد المادي والكادر، وكذلك فإن ترجمة النص ليست أقل أهمية، فهي تكلف مبالغ كبيرة لا يستطيع اليوم تجاوزها، رغم ذلك كله، تلح عليّ فكرة العمل على انتاج عمل عربي قد يكون من التراث، أو من الأعمال المعاصرة، وقد يكون ذلك في المستقبل القريب.



### بطاقة:

رياض أحمد: مواليد بابل عام ١٩٥٦.

عضو فرقة المسرح الفني الحديث ٧٣ — ١٩٧٩.

درس التمثيل في أكاديمية الفنون الجميلة ٧٤ — ١٩٧٨.

حصل على الماجستير في الاخراج المسرحي من بلغاريا.

شارك في أعمال مسرحية عديدة داخل العراق وخارجه.

يعمل حالياً في المسرح السويدي وقدم أربعة أعمال بالسويدية حتى الآن آخرها

هذيان بين أنثيين ليونسكو والتي لا تزال تعرض بنجاح كبير/

تشرين الثاني ١٩٩٦.



هموم وتطلعات عراقية على المسرح الاسترالي

## «حب من طرف واحد»

مازن يوسف قلو

قبل الحديث عن مسرحية «حب من طرف واحد» التي قدمتها فرقة «لارساء» في سدني باستراليا لأبد من الإشارة الى أن الحركة المسرحية العراقية قد ترعرعت بين أحضان الحركة الوطنية، وارتبطت منذ نشأتها بهموم وتطلعات الانسان العراقي التواق للديمقراطية والتحرر، تلك الطموحات التي وجدت تجلياتها في مضامين النصوص والعروض المسرحية. وبذلك أصبحت الحركة المسرحية جزءاً من حركة التاريخ العراقي الوطني. وهكذا صارت آلام الشعب وتطلعاته المنهل الذي اغترف منه المسرحيون العراقيون وترجموه في نتاجهم الابداعي بصدق. وعلى هذا الاساس المتين تربت اجيال المسرحيين العراقيين، وهذا ما يفسر التشجيع والدعم الذي حظى به مسرحهم من قبل الجمهور. وبالمقابل فقد حرص المسرحيون على تقديم الاعمال الابداعية الراقية وان يخلقوا تقاليد مسرحية ساهمت في تشكيل وعي فني وانساني متقدم حيث تحول الجمهور الى عنصر فاعل في العرض، ليس متلقياً له وحسب وانما كذلك مفسراً ومحللاً له يناقشه ويقارنه بواقعه اليومي المعاش ويتقصى رموزه في محاولة لادراك المغزى الكامن وراء الكلمات وما يحمله العمل من دلالات.

وهكذا فان مسرحية «حب من طرف واحد» هي امتداد لتلك الحركة التي ارسى تقاليدها الكثير من المبدعين العراقيين كتاباً ومخرجين وممثلين وفنيين. «حب من طرف واحد» توليفة مسرحية اعتمدت ثلاثة نصوص هي:

«وداعا يا وطن.. مرحباً يا وطن» لمحمد البياتي، «جلسة خمر عراقية» لمحمد سعيد

الصغار، «الاطفائي» لفلاذيمير بولياكوف. وفي اعدادها قام المخرج عبد الهادي ماهود باعادة صياغتها وفق رؤية اخراجية تنسجم مع طبيعة النصوص باعتماد شخصية الرجل / الراوي التي قام بادائها بطلاقة ومرونة جسدية ساعدت على تنفيذ الموازنة بين الاحكام والتلقائية، ليقدم لنا نصاً كاملاً مستفيداً من الحوار الفصيح تارة والعراقي الدارج تارة اخرى.

تبدأ المسرحية باثارة حالة التداعي على لسان الرجل..

لماذا قدر لي أن اولد على أرض العراق

واعيش في سواها

اهرم واموت وأدفن في سواها

لماذا لا احب سواها

وتستمر حالة التداعي هذه باستحضار المفردات اليومية الحياتية، وذلك من خلال الزمان والمكان ومايرتبط بهما، ليرشح عنهما من صور وذكريات وطقوس وممارسات تفعل قطعها في تصعيد الخط البياني للمشاهد الرئيسية الثلاثة التي يتضمنها العمل لتتعمد في كل مقطع شعراً (باستعارة مقاطع من قصائد للشعر سركون بولص، غيلان، زاهد محمد) أو نثراً في السياق لتسهيل عملية الانتقال سواء داخل المشهد الواحد أو بين المشاهد بايقاع مسرحي متلون وتضافر منطقي تساوق في تلاحم ساخن لانضاج العمل المسرحي وشد اجزائه باعتماد ديناميكية السجل المتألق وترابطه الممتع الذي يمثل العمود الفقري لقوام العمل المسرحي.

وقد نجح المخرج في الاستفادة من توظيف الدرج للصعود والنزول ليؤشر عملية استحضار المتخيل / العراق بأندفاعه من جانب الجمهور / الخارج الى المسرح / البلد.

**المشهد الأول:** مائدة خمر ضمت صديقين يتناولان همومهما التي تعكس هموم المرحلة الحالية تتجلى برغبة «ستار» في الرحيل الى الضفة الاخرى، بعيداً عن الجحيم الذي لم يعد بوسعه تحمله. فقد ضاقت به سبل العيش تحت وطأة ما افرزته الحرب من دمار وحصار. ولذا فهو يمني النفس بان يبعث له شقيقه المقيم في الخارج بعض المال لتحقيق حلمه بالسفر فيقول:

« مكاني مو هنا، مكاني هناك يم الناس المستريحة» ليعكس ببساطة ووضوح حال الاغلبية الساحقة من العراقيين.

في ذات الوقت الذي يعكس فيه الحوار (على المائدة الاخرى) بين ابو علاء / الشاعر

وأبو سمير هموم المثقف ومعاناته وما شهدت السنوات العجاف من هدم وتدمير لقيم الإنسان الجميلة في هذا المشهد يمتزج الحزن بالضحك الساخر الذي يمارسه نجم على صديقه ستار وذلك من خلال عدم حصوله على المال كإشارة لتجاهل قطاع واسع من المقيمين في الخارج لهموم ومتاعب الناس في الداخل. فإذا لا يجد من هم في الداخل لقمة العيش يبعثر البعض أمواله على متع يمكن الاستغناء عنها، ولا سيما في هذه الظروف القاسية التي يمر بها البلد. كما تشير أيضاً إلى التأثير الذي تمارسه البيئة الجديدة. الخارج على المقيم / المهاجر باضعاف حدة المشاعر والروابط تجاه الناس والوطن.

**المشهد الثاني:** هنا يقوم القاص بعرض قصته على سكرتير ورئيس التحرير ليتحول الأخير ليس إلى ناقد أدبي بل ليمارس ذات السلوك العدواني الذي تمارسه السلطة بشكل يومي. وقد اختارت المسرحية أن تقدم نموذجاً من هذا السلوك من خلال المجلة كمؤسسة ثقافية لتؤكد أن الدكتاتورية تستثمر كل المواقع بما فيها الفكرية منها، لممارسة القمع. وبذلك تُبرز المسرحية تحول بعض المثقفين إلى أدوات في مؤسسات السلطة لتطبيق برامجها وإبداع ما لاتخيله رموز السلطة أحياناً من ممارسات قمعية. ينتهي المشهد ببكاء حار من جانب القاص واستخدام الدعاء الديني ضد السلطة في الوقت الذي يكون فيه سكرتير رئيس التحرير ورئيس التحرير الذي يرمز إلى الرئيس أيضاً منخرطين في البكاء أيضاً في السخرية المريرة التي تخلق المشهد بأكمله.

**المشهد الأخير:** هنا يتصاعد النداء بالعودة ثانية للمكان الأول. الحانة لتتعدد الصلة بين الطاولتين عبر قراءة من جانب الشاعر أبو علاء وغناء نجم. ويتناوب التناقل مع التركيز على هموم الشاعر وصديقه «حافظ» الذي يلاحق توثيق المرحلة من خلال جمع نماذج من الإنتاج الشعري معتمداً على العمق التاريخي والحضاري في رهبانه على الغد المشرق القادم لامحالة.

ينساب صوت الرجل مرة أخرى:

لماذا قدر لي أن أولد على أرض العراق

وأعيش في سواها

أهرم وأموت وأدفن في سواها

لماذا لا أحب سواها

أسئلة وتداعيات استطاع العمل المسرحي إضائها عبر المشاهد الثلاثة بما تردد في الحوارات اليومية السريعة حيناً (نجم — ستار) والفكرية العميقة حيناً آخر (الشاعر أبو

علاء وحافظ) باعتماد منحى اخراجي سلس، دون تعقيد أو بهرجة، مستفيداً من فضاء المسرح لتحقيق الانسيابية في الحركة. كذلك فإن بساطة الديكور واعتماد الملابس اليومية وعدم استعمال المكياج لتحقيق الانسيابية في الحركة، كذلك فإن بساطة الديكور واعتماد اسلوب البقعة في الانارة (لإبراز الحدث) استطاع ان يسحب العمل الى اليومي والمألوف ويمنحه الحيوية التي جعلته قريباً من المتفرج.

ان عمل المخرج في مرحلة اعداد النص قد ساعد في جعل العملية الاخراجية اكثر مرونة وتلقائية. حيث استطاع عبد الهادي ماهود تخليص العملية الاخراجية من الكثير من الصعوبات، التي تعترض العمل المسرحي، باعتماد وسائل المخرج العارف امكانيات ادواته المسرحية وماتطلبه العملية الاخراجية. وبذلك يمكن أن يعد هذا العمل ضمن الاسلوب التجريبي. فالتجريب لايعني قفزاً في الفراغ بل تمثلاً للتراث ومعرفة بالقواعد الاصولية ثم تحطيم هذه القواعد، بعضها أو كلها، التماساً لقواعد أخرى لتصبح بدورها في قلب التراث. وهذا هو الجدل الحقيقي بين التقليد والتجديد. كما استطاع جمال باوي، الذي لعب دور ابو علاء الشاعر ودور القاص، ان يقدم شخصيتين جميلتين ليضيف الى العمل عمقا وجمالاً ويؤشر معرفة طيبة بطبيعة العمل المسرحي عبر قدرته في التلوين الصوتي والاداء التلقائي الذي يشد المتفرج ويحملة على التفاعل مع الشخصية. كذلك فان حلاوة صوت احمد البدرى وامكانياته تنبئنا بطاقة مسرحية يمكنها ان تقدم المزيد.

كما تجدر الإشارة الى الجهد الطيب الذي قدمه كل من احمد محسن وحافظ ابراهيم، علما ان هناك امكانيات اخرى كان يمكن تججيرها من خلال هاتين الشخصيتين اللتين بدتا باهتتين احياناً. كما ان شخصية النادل لم يجر توظيفها بحيث ظلت دون فعل مسرحي يذكر. هذا الى جانب بعض الملاحظات الاخرى.

بيد ان ذلك لا يقلل من القيمة الغنية والمتعة الجميلة والمغزى العميق الذي نجح العمل المسرحي، كجهد جماعي، في تقديمه الى الجمهور.

## لغة اللون والتجريد في أعمال خالد بابان

### فلاح موسى

استقبلت صالة Borsn في مدينة غوتنبورغ في السويد، والفترة الممتدة من ٩-٢٢ أيلول. أعمال أربعة فنانيين عراقيين متباينين الأساليب والرؤى، جمعتهم مبادرة مؤسسة «الحرف العربي» التي ساهمت في الترتيب لهذا المعرض.

عدد الأعمال التي ساهم بها الفنان خالد بابان ١١، جميعها بالالوان الزيتية على أرضية خشنة. وتميزت أعماله ببعد تشكيلي وجمالي خاص. اذ ابتعد الفنان في لوحاته عن الوصف والتوثيق على حساب المادة التشكيلية. لقد وضعنا أمام مفهومين للشكل المنظور في اللوحة. فهناك الشكل الذي تراه العين؛ والشكل الذي يرسمه الإدراك من التجريد. وما حاولته لوحات خالد بابان هو التعامل مع الحس بهدف انتاج شكله، بعيداً عن القوالب المسبقة التي كان هدف صنعها هو تحديد الفكرة داخل اطار اللوحة فقط. الفنان هنا يتخلص بشكل واضح من هذه القوالب، بحيث تبدو لوحاته وكأنها قاطرات تشكيلية تسير نحو أفق غامض. وهكذا تطرح هذه الاعمال تجربة مليئة بزخم ابداعي، واختلاف في الاسلوب الخاص الذي خضع لتطور وعي الفنان لعلاقته الجمالية مع الواقع بكل تجلياته وغوامضه.

فبعد أن مر خالد بابان (الذي عمل كمهندس معماري لمدة ١٥ عاماً) بمرحلة التشكيل المعماري، حيث كانت الأشكال الهندسية (المكونة من المثلثات والاقواس والمربعات وكذلك التركيز الواضح على زخرفة الواجهات بالأشكال الهندسية القائمة على الحسابات

الدقيقة التي لا يفوتها تجسيد تحولات الضوء واللون) مادة مهمة في لوحاته، نجد في هذا المعرض إنسحاباً كاملاً لهذا الحضور الطاغي للعمارة الهندسية.

فالاعمال المقدمة في المعرض الحالي تمثل مرحلة جديدة لدى الفنان؛ مرحلة نجح فيها في المزج بين التجريد والرمز، وفي الجمع بين نسق من الحساسيات الذاتية والجماليات العصرية، في محاولة إعادة صياغة الحس والشكل بآليات تشكيلية جديدة قوامها تراكيب لونية غاية في الثراء يرافقها استخدام ذهني عال للألوان بكل محياتها وإبعادها الرمزية.

من الواضح ان الفنان يستخدم طريقة الرسم بالمجموعات. وهذه ليست الاحالة ذهنية وعاطفية متولدة من الرغبة في اطالة او تكرار التجربة: موضوع البحث. هذا بالإضافة الى محاولته، من خلال التكرار، اعطاء العمل التجريدي أكثر من قراءة ومن تأويل، فهو يؤكد على التجريد المفتوح الذي لم يؤسس لاعطاء اجوبة محددة.

مجموعة «بقايا مسافر»، التي هي ثلاث لوحات، تشكل حدساً لرؤى تغلفها مشاعر التداعي والتوتر التي يفتح الفنان أعيننا على علاماتها واشكالها. الكثير من جزئيات هذه المجموعة هي أشياء قائمة بذاتها. الا ان التجريد والابهام اللوني المستعمل جعل منها بعض آثار او بعض بقايا ذات دلالات تشبيهية تهيم في الرمز والتجريد، على أن هذا لا يمثل بأية حال تخلياً عن الموضوع، بل هو احتفاء بالحس واللون.

هذا الاحتفاء يمتد بعض الاحيان الى درجة تعيق اللوحة عن اعطاء أية إحالات، ما عدا التهويم في فضاءات غير محددة: كتل لونية متداخلة لا تمنح الرائي فرصة محددة للقراءة. هذا مانجده بوضوح في لوحة «تعارض» ولوحة «علاقة»، حيث يعتمد الفنان على اللون أساساً حركياً — لا مساعداً — في سبيل تقديم عالم متمازج. فهو في لوحة «تعارض» يصفّر اللون الاسود والاحمر والاصفر بوضوح شديد لتأكيد غموض عالمه. في هذه اللوحة يتسيد الاحمر والاسود على كل الابعاد ليعطيا إحياءات مختلفة تخرج بنا الى حالتين: اما الاحباط المفرط أو التفاؤل المفتوح. وكذلك الحال مع لوحة «علاقة» حيث يتصافر اللون الازرق مع الاصفر في تحقيق المشهد وفي تحقيق التجربة الجمالية التي تتطور في متعة التأمل وفي الابحار بعيداً في أقاليم الذهن والعاطفة.

في مجموعة أخرى تضم لوحة «الأوتل» و «هور من الذاكرة» و «شيء من الميناء» نجد أن الشكل الاصطلاحي أو النموذج الخيالي وليس الحقيقي هو الطاغي بشكل كامل. فكل مفردة من مفردات الواقع المقصود باللوحة (كالمشحوف أو رصيف الميناء

المستوحش) تجسدت في كتلة لونية تتناهى بتداخلات ضوئية متدرجة تنتهي بالدكنة أحياناً أو بالشحوب، فيما تنسحب في خلفية جميع هذه اللوحات زرقة الماء المبنية على مستويات عدة، من القاني حتى الفاتح. هذه الزرقة، التي تحمل في طياتها الكثير من الرموز الموحية، تعود ثانية لتتداخل مع الكتل اللونية الأخرى المواجهة (كتل مفردات الواقع) لتمثل في النهاية صورة من الهواجس المعلقة، صورة للواقع ليس كما هو مرئي بل أيضاً كما هو محسوس في المخيلة.

اللوحات التي شارك بها خالد بابان في هذا المعرض تجمع بينها خاصية الكثافة اللونية في التعامل مع المساحة وكذلك الاستخدام الإيحائي الموفق للون، علاوة على ما ذكرنا من رمزية في التعبير دون التضحية بالقيمة الجمالية لموضوع اللوحة. إن أغلب أعماله لا تحتمل الشروحات، بل تمنح المشاهد فرصة القراءة على أوجه عدة لعل أهمها القراءة الذهنية التي تعتمد التجريد. إنها فرصة للتأمل والحلم.

غوتنبورغ - السويد

## النهر\*

### يوسف ابو الفوز

الغروب يحتضن المكان. الجو عاصف. النهر بدا غاضباً يتلاعب بزوارق الصيادين. النوارس هائجة تبحث عن ملاذ لها وتطلق اصواتا حادة كالاستغاثة. بمحاذاة النهر تمرق السيارات. مغلقة الابواب، مسدلة الستائر، مكتظة بالركاب أو فارغة الا انها كانت تمرق بسرعة، عدا سيارة تقف قبالة المرسى القديم. سائقها ينبش في ماكنتها متجهما والى جانبه وقف مساعده يرتجف من البرد والحيرة. عند الشاطئ وقف شاب يحدق إلى النهر الغاضب غير عابى بالبرد أو الريح. داخل السيارة كان الركاب يتطلعون الى ساعاتهم بالحاح والتذمر يلوح على محياهم. مال الرجل البدين الجالس في مقدمة السيارة الى جاره ذي الحقيبة (السامسونيت) وقال بصوت مسموع وهو يشير بكفه الغليظة باتجاه الشاطئ: ماذا يفعل هذا المجنون هنا في مثل هذا الطقس؟

رد صاحبه ذو الحقيبة بصوت أجش: مجنون! ضحكا بصوت عال واخذا يهتزان في مقعديهما، توجهت انظار الركاب الى حيث أشار الرجل البدين فلاح لهم الشاب منتصباً مثل سارية علم والريح تخفق بملابسه. قالت ارملة شابة متشحة بالسواد لجارتها ذات الصفائر الطويلة: مسكين، يبدو أنه يعاني من الوحدة.

اجابت جارتها وهي تعبت بضفيرتها بعصبية: ربما و... قد يكون يعاني من تجربة حب فاشلة، ومن يدري قد يكون اللحظة يفكر بـ... الانتحار!



خلفها يجلس شاب بقميص أبيض موشى بزهور ناعمة، تنهد، حاول أن يرد عليهما إلا أنه قدر أن ذلك سيكون تطفلاً، فقال لجاره ذي الوجه المجذور: انهما وأهمتان، انه ينتظر حبيبته، بالتأكيد هناك سبب ما أخرها، انظر، لا يتحمل طقساً كهذا إلا عاشق.

نظر ذو الوجه المجذور الى جاره ملياً، تفحص وجهه بحذر ثم قال بلا مبالاة: ربما! ثم أدار بصره ليحديق جيداً بالشاب الذي لا يزال منتصباً عند الشاطئ، قال لنفسه: كلكم واهمون يا كلاب.. وبجاستي الخاصة اسم رائحة أخرى، قد يكون هذا السافل متأمرأ ولديه موعد ما.

من خلفهم مال عليهم رجل حليق الشارب وقال بتأدب وهو يشدد على مخارج الحروف: عفواً، قد يكون تطفلاً مني، ولكن الا تعتقدون أن هذا الشاب يود العبور الى الضفة الثانية؟

من مؤخرة السيارة لوح شيخ بذراعه المعروقة وصاح بصوت عميق: بدلاً من مؤتمر الاحتمالات هذا، اليس من الاجدر معرفة خلل السيارة كي نسرع في مغادرة المكان؟

ساد الهدوء لفترة من الزمن. نظر الجميع اثناءها الى الشيخ بتبصر، كل شخص حملت نظراته معنى ما، ثم قطع الهدوء صوت السائق وهو يجاهد لافتنال ابتسامة بدت باهتة: يا اخوان سنتأخر قليلاً، فقط تحلّوا بالصبر وان شاء الله سنتحرك.

عند الشاطئ، فرك الشاب كفيه ببعضهما وهتف لنفسه: سيصل لابد أن يصل.

ثم فكّر وهو يراقب زورقا يصارع الموج ليبلغ الشاطئ الآخر:

النهر، الزورق، الريح والانسان. كل هذا يمكن أن اوظفه في كتابة قصة جديدة! وشعر بشيء يكبر في داخله ويطفئ على كل ما يثار بسبب الريح او البرد.

وصل!

هتف عالياً ولوح بيديه كالطفل وهو يرى الزورق يبلغ الشاطئ. غادر مكانه وشعور طاغ يملكه بأن ريحاً أخرى اشد تدوى في اعماقه وأن النهر يصخب في خلاياه. بحركة رشقية بارعة تخطى الحاجز الحديدي الواطيء، نحو الشارع، بلغ السيارة، اجتازها دون ان يلتفت اليها. كانت عيون ركابها تتفحصه باهتمام كبير.

همس الرجل البدن: لا يبدو عليه الجنون.

هز ذو الحقيبة كتفيه: ربما!

قالت الارملة لجارتها ذات الضفائر: لا يبدو عليه الشعور بالوحدة.

أجاب الفتاة وهي تنهد: ولا يبدو ممن يفكرون بالانتحار.

قال الشاب ذو القميص الأبيض: يبدو ان امرأ مهما جعل حبيبته تتخلف عن الموعد.  
قال ذو الوجه المجذور لنفسه: لا يبدو مرييا للحد الذي تصورته.  
تمتم الرجل الحليق الشارب: يبدو أنه سيستخدم الجسر للعبور.  
صاح الشيخ: هل كتب علينا ان نتحجر هنا؟  
قال الشاب ذو القميص الأبيض: يبدو كذلك.  
وتابع بنظراته الشاب الذي كان عند الشاطئ وهو يندفع للامام على طول الشارع  
بمحاذاة النهر مبتعداً نحو قلب المدينة.  
« من مجموعة مخطوطة بعنوان «طائر الدمشة»

قرية جه ماني - كردستان ١٩٨٦/١٠/٣٠



«ولا يحق المكر السيء إلا بأهله» للخطاط حميد - السويد

## غربة أليفة

محمد حسين الأعرجي

غريب شعرك الأسود  
 وعبء وجهك الأسمر  
 فقد تنظّرت إعجاباً  
 فمن يبطأ ذلي أطيا  
 فقد دارت بي الدنيا  
 وغنت لي أغاني الخصب  
 فلي في كل يوم منزل  
 وسبحان الذي أنشا  
 وطوبى للبخفين  
 ومن كانت له أذناً  
 لبست صباي منقياً  
 فرحت أريق ماء العمى  
 وكنت أخاف من عشر  
 وأضيق معبر من لم  
 وإذا عاثرت أحلامني  
 وأين مبالغات الطير  
 ومات أبي، ولم تلمس  
 فمن ينفض عن غرة  
 ومن يندفئ أصالي  
 ويألي الرصاصي  
 في هففة الشقره  
 لولا سحنة حمره  
 فتأسي أن ترى النظرة  
 فأحبائي، ولو مره؟  
 فما وازنت الثوره  
 لكن لم أر الخضره  
 يسبني على غير  
 دار اثنين في صره  
 فلا زاد، ولا فبره  
 ن فليسمع شجي الزفره  
 ولأندم، ولا حبره  
 ر حيث الضيق والعسر  
 تراق، فزدتها عشره  
 يصن متعمداً عمره  
 فما بالغت في العشره  
 يحلم أن يرى وكبره؟  
 دموع بنوتتي قبره  
 أيامي أذى الغبره؟  
 بذكرى الشمس محمره  
 ألم تشتق إلى سحره؟

غريب الروح ، لا تيسأر  
 فما بلغ الغناء العذب  
 ولا وأمس عصف الرياح  
 ويدري الطحلب الغافي  
 ويعرف يومنا الموعود  
 لسوف أظلم في مقل  
 ولسولا أنه وطني  
 فلم أر مثله أفعمي  
 فشرد كل ذي شرف  
 وراهن أن يطير حمامه  
 ومجنون من اعتزل  
 أقول ، هديت ، لا أعني  
 غريب الوجه ، لا تحزن  
 وكان السندباد يرى وضوء  
 ففهم تضيق بالمنفى  
 وفهم تخاف من روض  
 تماحك له لك واجد  
 أفق لي يا هداك الله واستحضر  
 فهل أجداك لون الوجه  
 أم أنك قد ظلمت الأجنبي  
 تجمجم ناصح الخطرات  
 لانت أجل من أن تنـ  
 فحلقت ثم زدحتي  
 وفي الإنسان لبي وطن  
 وكل الأفق معبراج  
 غريب الوجه ، لا تحزن  
 فللدود الثرى ، لكنما للأنسر الزهر  
 فماذا شعرك المستغرب اللون ؟  
 وما السمر

## زهديات (مواويل)

كريم الاسدي

ياساري الليل وديهم ورد ودنا  
 احنا على حبههم ابد اللي ابتعد ودنا  
 تطفئ الشمس نارها ونشعلها من ودنا  
 وفي ودنا احتار كل صاحب غرام وهوى  
 والنجم من ودنا ودع مداره وهوى  
 كل حجي الحباب بالتالي رياح وهوى  
 بس حجينه بودنا مالي الأرض ودنا

\*\*\*\*

كل الوصف غاب من دته بوصف ولفي  
 تايه بالاشواك ماعدت استجى ولفي  
 كل يوم اقول الكلب تاب وهجع ولفي  
 طير الكلب شاه بشتان الارض بصره  
 وضع طريجه ونويته وحكمته وبصره  
 ياساري الليل عبرني لطرف بصره  
 ارد اهجع هناك ما بين النخل ولفي

دمشق ٩٦

## صوت المسافات

بلقيس حميد حسن

ينزوي بعيداً  
أمل مهاجر  
يحط على اهداب الروح  
ويرحل.....  
ريشته تتحدث بالورد  
واقدار الأوتار الظمأى...  
يخفق خلف واحات... كانت  
لوحته الغربة .  
ابكنه لعبة طفل وثنايا فستان .  
اجلس من فضلك ،  
يكفيك دوران الارض  
لتسقط بين سنين القهر ،  
يكفيك شربانا للتنزف  
يبكى وطننا في الاعماق  
.....  
اسند رأسك واحلم  
فالحلم هنا مسموح  
ولغتك ممنوعة

لا تعطي ظهرك للريح  
مرتجف أنت  
والبرد شديد  
بلادك آه...  
حين تسافر بلدان الناس ،  
تدعونا  
لطاولة اخبارك ،  
ولمركز الأرض...  
استعن بحفيظك في الليل  
فالصوت يأكل المسافات ،  
والدرب طويل.....  
هل احرت مفاتيح الأبواب؟  
لاندرى  
من أين تأتينا هذه الافاعي  
اطفئ السراج  
اقرأ آيات النور  
فانت وحيد .

## الاشتراك السنوي

50 دولاراً أو ما يعادلها

100 دولار للمؤسسات

يدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 467127-42

**ANI HAMED AYOUB**

**BANQUE LIBANO-FRANCAISE**

**Bar Elias, LEBANON**

أو يدفع إلى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وما ليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة، سورية، دمشق، ص.ب: ٧١٢٢، تليفاكس: 4449724





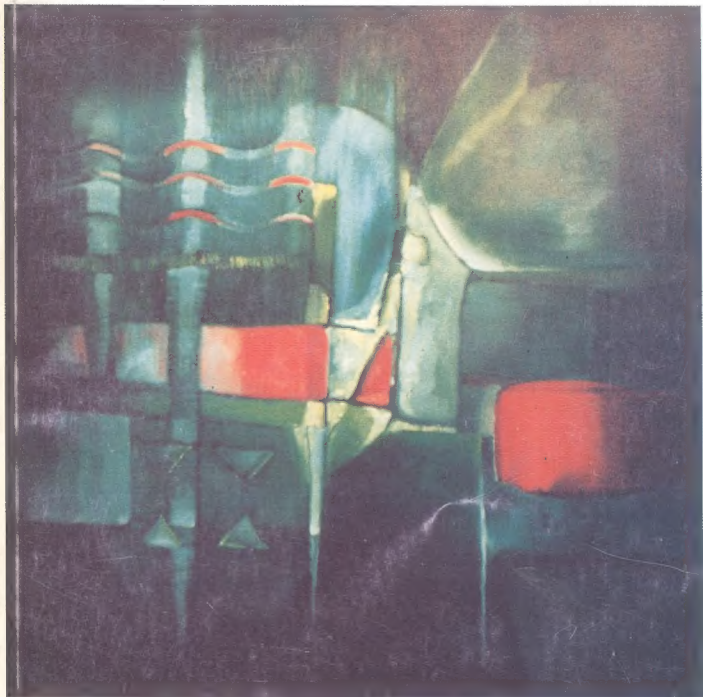








فكر علمي  
ثقافة تقديمية



السعر عشرة دنانير